عبد العزيز بن عبد الله
استاذ الحضارة و الفن (كلية الآداب)
الامين العام لمركز تنسيق التعريب في العالم العربي

معطيات الحضـــارة المغربية

الطبعة الثالثة المطولة لكتاب مظاهر الحضارة المغربية

(مقرر فى السلك الجامعى ومدارس المعلمين)

الجزء الاول

1963

نشر وتوزيع

دار الكتب العربية

الربـــاط



المؤلف فى مكتبه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا بحث قضيت سنوات عديدة فى جمع عناصره وتحقيقها ووضعها فى قالب ارجو ان اكون وفقت فى حسن صياغته وعرضه فهو تحقيق اصيل فى بابه اضطرنى جمع اطرافه ولم شعثه الى الانكباب على مراجع عدة بين مطبوع ومخطوط تتكامل نسبيا وتنتج عن الموازنة بين معطياتها صورة لا ازعم انها كاملة ولا قريبة من الكمال ولكن يمكن ان تعتبر على الاقل خطوة اولى فى هذا السبيل ولن احاول فى هذا التقديم الاتيان بوصف مفصل للكتاب لأن استقراء فصوله ينم تلقائيا عن الاصطبار الرصين الذى كوبد خلال عقد من السنين لتحقيق مناطه وتهذيب حواشيه وقد أدرجت فى الطبعة الثانية فصولا جديدة وتبويبا طريفا وهذا البحث وان كان متواضعا فانه يمكن أن يعتبر مدخلا لتاريخ المغرب فهو فذلكة جامعة لمختلف مظاهر الحضارة المغربية وكثير من العناصر التى مررت بها لماما يمكن ان تكون موضوع بحث خاص قائم بذاته فتاريخ الفن مثلا قد افردت له كتابا خاصا باللغتين العربيــة والفرنسية وكذلك تاريــخ التصوف وتاريخ الموسيقى وتاريخ الطب والاطباء الخ .

وقد تلقيت رسائل وتشجيعات تحدونى الى مزيد العناية بهذا المجلى الرائع من تاريخنا الوطنى **الأصيل**

تقديم

الاستاذ الكبير علال الفاسى

للطبعة الاولى من الكتاب

أول ما يبعث الامة على الاستقرار فى الفكر والطمأنينة فى النفس ثقتها بنفسها وبكيانها وايمانها بشخصيتها ، ولذلك فان المستعمرين لا يالون جهدا فى محو هذه الثقة من نفوس الشعوب التى يحتلونها ويحلون مكانها الايمان بحضارة الاجنبى وقيمه وتفوقه على كل التراث الاهلى ، فتنبيه الامة لمعرفة تاريخها وبعث ثقتها فى نفسها خير ما يدعوها الى اليقظة والى التقدم للعمل فى جو من الرضى الباعث على الاستقرار .

وقد ادرك هذه الحقيقة صديقنا السيد عبد العزيز بنعبد الله فانكب ينقب عن مظاهر الحضارة المغربية حتى اخرج لشبابنا كتابا قيما فى الموضوع ، يمكن كما قال المؤلف أن يعتبر مدخلا لدراسة تاريخ المغرب ، وقد تصفحنا المؤلّف فوجدناه مفيدا للغاية ومحققا للغرض المنشود منه ، وحمدنا الله على آن هدى واحدا من اخواننا الاستقلاليين لاداء هذه المهمة التى ليست بالسهلة على الباحثين .

والحق اننى فى اثناء مقامى بنيويورك ، لاحظت ضرورة العناية بتصنيف كتاب عن حضارة المغرب يلم بحقيقة تاريخنا وتراثنا القومى والانسانى للامريكيين والاجانب حتى يتيقنوا بان شعبا له ما ضيه المجيد مثل مالنا جدير بان يحيا حياة العزة والكرامة والحرية ، وقد اتفقت مع صديقنا الدكتور رضى الله على القيام بهذه المحاولة وبدأ يشتغل ولكن ظروفا خارجة عن ارادتنا حالت دون انجاز العمل ، وقد حقق امنيتنا الاستاذ بنعبد الله باصدار هذا الكتاب الذى جاء فى ابانه

ونلاحظ على حضرة الاخ المؤلف اهماله لبعض جوانب الموضوع الذى تناوله اذ ليس فى مؤلفه فصل يتعلق بالموسيقى المغربية مع أنها من أهم مظاهر حضارتنا ، وكل حضارة انسانية ، كما أنه لم يتناول بالبحث الدقيق موضوع العمارة المغربية ووقوفها الموقف الوسط بين الهندسة العربية المشرقية وبين هندسة الحصون البربرية وتنقصه كذلك المامة شيقة بمظاهر التعاون المغربى التى تتجلى فى كثير من الاوقاف الاسلامية التى يعرف الاخ المؤلف عنها الشىء الكثير .

ولكن ذلك كله لا ينقص من قيمة عمل الاستاذ ؛ ويمكن ان يتداركه فى طبعة مقبلة باذن الله .

بارك الله فى همة اخينا ابى فارس وكثر فى الشباب الاستقلالى من امثاله

وحدة المغرب العربي

المغرب فى عرف المؤرخين العرب هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربى مصر بما فيها برقة وطرابلس ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لانه يستند الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافى ،كما لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراث .

وسنستعرض فى هذا البحث بحول الله المجالى المختلفة لهذه الوحدة التى تجعل من المغرب العربى قطعة متراصة من القارة الافريقية .

« ان جزيرة المغرب » محاطة بالبحر فى أهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها فى الفيافى الافريقية نظرا للمقومات الجوهرية التى يرتكز عليها المجموع .

نعم ان هذه الصحراء التى هى اعظم صحراء فى العالم كانت فى الماضى أكثر عمرانا منها اليوم كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربى.

ومع ذلك فان الاقليم الذى تسلسلت فيه الحضارة بكيفية أعمق وأبهى هو ذلك الجزء الذى يمتد على ضفاف البحر الابيض المتوسط الذى كان يسمى بحر العرب والمحيط الاطلنطيكى أو بحر الظلمات فى شريط هائل طوله ثلاثة ءالاف ك . م . وعرضه مائة وخمسون ك . م . ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم وهو امازيغ من طرابلس الى قابس الى الصويرة (سوردون ـ مؤسسات واعراف البرابر بالمغرب ص 27) .

وقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التى كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسيةفى ظرف سنوات معدودات بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها فى مركز من المراكز الى أقصى التخوم مثال ذلك ان بعض امراء نوميديا (بلاد الزاب) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس وابن تاشفين من الصحراء الى قلب الجزائر وعبد المومن الى طرابلس وابى الحسن المرينى الى حدود برقة (1)

الا أن معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة زاعمين أن من خواص المغرب وكذلك الشرق انعدام نقطة مركزية أصيلة تلتف

(1) المسند لابن مرزوق — هسبريس ج 5 ص 1925

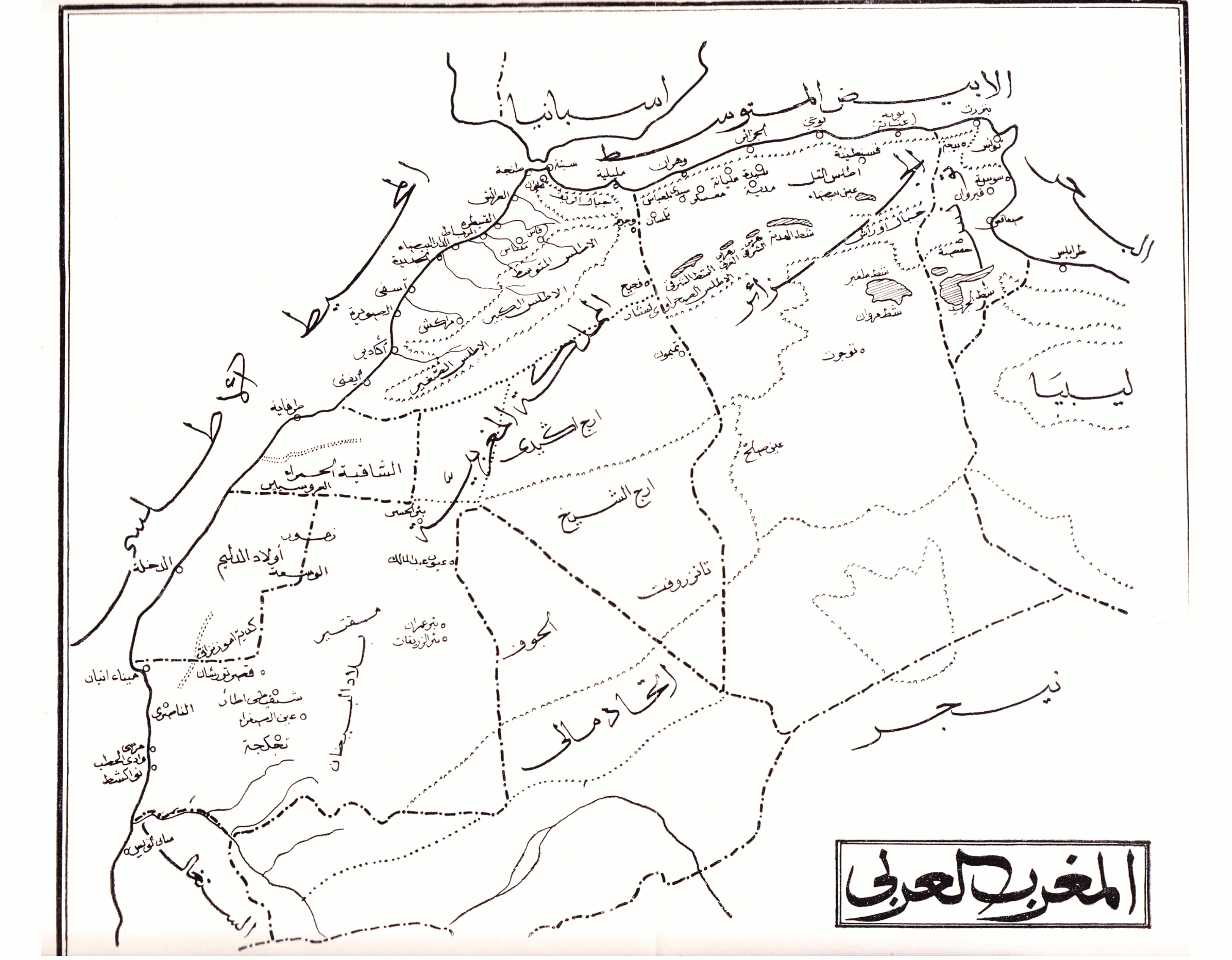
حولها الامة على نسق ما جرى مثلا فى أوربا حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة ثم ترعرعت تدريجيا الى أن تكونت منها الدول الألمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية ولعلنا فى غير حاجة الى التدليل على أن عناصر الوحدة التى تتوفر جوهريا فى المغرب العربى وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الاوربية هى القوام الحقيقى لتلك الظاهرة التى لم تتأت قط لفاتح اجنبى غير العرب .

ويقول اولئك المؤرخون أيضا بأن الفكر الشرقى ومنه الفكر البربرى يتصور ان تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافى بمعنى أن الوطنية العربية أو البربرية لا ترتكز فى نظره على التراب ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة وان الجهاز القبلى الذى هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمى لانه جهاز جنسى قبل كل شىء ، ولعل هذا الوهم المستتب فى أذهان الغربيين راجع الى عدة عوامل منها ان الاسلام فى عهده الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لانه كان يهدف الى نشر فكرة لا تحدها تخوم مصطنعة ومنها كذلك أن جوهر القبيلة سلالى ككل قبائل العالم ولكن الشىء الذى أغفله هؤلاء المؤرخون هو أن فى المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل أخرى وأعطت بذلك الاسبقية للاطار الجغرافى وقد يكون الوازع فى هذه الحال اما امكانيات اقتصادية أوفر واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الرأس ومرتع الصبا وعلى كل فان نظرية الغربيين فى هذا الموضوع تنطوى على شىء غير قليل من الافتعال .

وقد شعر سوردون فى كتابه « مؤسسات واعراف البربر فى المغرب » (ص 438) بما فى ذلك من التناقض فصار يتلعثم فى الدفاع عن هذه الفكرة التى روجها أول الامر بعض المستشرقين والتى تهدف الى التوفيق بين تعلق البربرى بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن .

واذا كانت هناك قبائل رحالة تنتقل من الجبل الى السهل حسب الفصول انتجاعا للماء والكلأ فانها تبتعد غالبا عن مركزها الأصلى الذى تقوم فيه مستودعات وبنايات قارة بأقل من مائة كيلومتر وقد تحدث ابن خلدون عن بعض هذه القبائل فعلل أيضا انتقالها عن مساقط رؤوسها بضيق العيش فى اطارها الجغرافى الأصلى لا سيما وانها تسكن الخيام المنقولة .

على أنه يمكن أن نرى فى هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على ان العقلية البربرية لا تفرق بين أجزاء هذا الوطن الاكبر الذى هو مجموع المغرب وأنه متى أعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش فى ناحية انتقلت الى أخرى ضمن الاطار الجغرافى العام بل هناك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى أجزاء اخرى وكيف لا وهى تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية



المغرب العربي
الأبيض المتوسط
اسبانيا
المحيط الأطلسي
المغرب
الجزائر
ليبيا
نيجر
اتحاد مالي
السنغال
طنجة
سبتة
مليلية
وهران
الجزائر
قسنطينة
بنزرت
تونس
سوسة
قيروان
صفاقس
طرابلس
العرائش
القنيطرة
الرباط
الدار البيضاء
فاس
مكناس
آسفي
الصويرة
مراكش
أكادير
طرفاية
وجدة
تلمسان
فجيج
الأطلس المتوسط
الأطلس الكبير
الأطلس الصغير
أطلس التل
الأطلس الصحراوي
جبال أوراس
الساقية الحمراء
أولاد الدليم
الداخلة
الجوف
تانزروفت
ميناء ابنان
نواكشط

والعواطف على أن البحث عن الحيز الحيوى ولو بالانفصال عن المقر الاصلى غير مستبعد حتى فى أوربا التى هاجر رجالها الى امريكا حيث كونوا لانفسهم موطنا جديدا وفى ذلك ما يحدو الاوربيين حسب م . كوتيى الى تغيير نظرهم فى ضرورة القوام الترابى للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص 93)

ومع ذلك فان هذه الظاهرة أو تلك لم تكن حادية لنفى الاطار الجغرافى كبوتقة لانصهار مقومات الوطن لا سيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لا يتطلبون فى تكوين الامة سوى وحدة التاريخ والعواطف .

فلنستعرض الآن قبائل زناتة مثلا والدور الذى قامت به العوامل السلالية فى تكوين المغرب العربى

فقد قرر ابن خلدون ـ وأقره على ذلك مؤرخون غربيون أمثال كوتيى وكزيل ـ أن زناتة الذين خصص لهم سفرا خاصا فى تاريخه منتشرون فى المغرب من غدامس الى سوس الاقصى بل يكونون معظم سكان قرى الصحراء وأنت تجدهم اليوم فى كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك فى مزاب وورغلة وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك فى ناحية طرابلس ووسط سهول افريقية وجبال الاوراس بالجزائر وما زال الى الآن فى جبل نفوسة الطرابلسية « برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية « ويشعرون الى الآن بقرابتهم مع المزابيين » (كوتيى ص 195) ويؤكد ابن خلدون أيضا أن معظم الزناتيين يقطنون المغرب الاوسط (اى الجزائر) وينصب الوادى الزناتى الى اليوم شمالى الاوراس فى حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغلت اللغة العربية فى المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين

ومن زناتة كذلك بنو يفرن الذين أسسوا ممالك فى أغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم الى عهد المرابطين فى حين أقام بنو عمهم المغراويون ممالك فى فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى فى طرابلس

واذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا فى المغرب الاقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممر تازة الى سهول المحيط الاطلسى المتسمة كلها بالطابع العربى

وهكذا نرى ان زناتة التى انتشرت فى مجموع افريقيا الشمالية تمثل احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب

ولا يخفى ان البربر اما برانس أو بتر ونصف هؤلاء البتر من نفوسة ولواتة أى من أصل طرابلسى ولواتة بالخصوص قبيلة اصلها من برقة يقال أنها من ارومة قبطية « وقد لعبت دورا هاما فى بداية تاريخ المغرب العربى » كما يقول كوتيى وقد غمر اللواتيون الواردون من الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية فى تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة وأحواز تلمسان وفى عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت

مطغريين وانبث المطغريون كذلك في واحات النخيل بين توات وفجيج وقد أكد كوتيي أن فجيج هذه كانت في القرن الرابع عشر الميلادى هى البقعة الوحيدة التى احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية (ص 206)

وينسب المطغريون لبنى فاتن الذين توجد لهم فروع أخرى فى افريقية وباقى نواحى المغرب لا سيما أقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين أسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسى حيث أسسوا جزيرة جربة ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التى تقطن بالمغرب الاوسط من مصب شليف الى مدينة مزونة والمغرب الاقصى بين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة فى مقاطعة تلمسان وممر تازة شمالى فاس ومن أهم قبائل بنى فاتن كومية التى انتقل قسط منها مع عبد المومن الكومى الى المغرب وفى هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد أكد اللغوى الخبير ويليام مارسى أن لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت اليها فى العهد الموحدى

وتقطن فى نفس المقاطعات مكناسة التى أسست كرسيف ورباط تازة وأقامت مملكتين احداهما في التسول (ناحية تازة) والاخرى فى سجلماسة ودائرتها ويتجلى من هذا العرض أن البتر أو زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجود والوهاد من طرابلس الى تازة واصلين بحبل وثيق أقطار المغرب العربى وصحراءه

ذلك هو بعض الدور الذى قام به البتر فماذا كان دور اخوانهم البرانس ؟

ان قبائل البرانس التى اتسمت باهمية كبرى فى توجيه تاريخ المغرب العربى هى كتامة وصنهاجة ومصمودة

فموقع كتامة الجغرافى هو الاطار الذى تركزت فيه الدولة الفاطمية والذى كان تابعا لبنى أغلب امراء افريقية وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم وبعد انهزام أبى يزيد « أبو حمارة » ، الذى كاد يضعضع أركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمى الى القيروان حيث أسس المنصورية فى ارباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة فى كل ذلك دورا أساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين ومنذ ذلك العهد صار الحكم فى المغرب العربى الى البربر المسلمين طوال عدة قرون

والمقاطعة القبائلية فى الجزائر هى الموقع الاصلى لقبيلة كتامة التى مازال سكان شرقيها يتكلمون لهجة عربية ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى تونس وسهول عنابة حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التى يجمعها معها مصدر واحد فى حين أنها لم تدخل الجزائر ـ فى نظر ابن خلدون ـ الا فى القرن الثامن وربما كان لكتامة اثر فى تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط وهذا الدور الذى قامت به كتامة فى تاريخ المغرب العربى بل وفى تاريخ الشرق الاسلامي لم يمتد أكثر من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل فى الاعماق حيث أدى الى تأسيس الخلافة الفاطمية وانتقال الكتاميين انفسهم الى الكنانة أما صنهاجة فانها

قبيلة ترعرعت وامتدت فروعها فى اقاليم شاسعة من المغرب العربى وهـى تقطـن ناحية « القبائل » من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنهـا الزنوج فى بلاد السنغال) وشرقى الاطلس بين ممر تازة والصحراء وهـم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير - على ما يقال - واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر فى « قبائل الجزائر فـان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدية (كوتيى ص 335)

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقية ليسوا من القبائل الرحالة مثل بنى عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين فى المغرب أمير صنهاجى هو بلقين بن زيرى بن منـاد الذى أسسُ مدينـة أشير عـام 324 هـ ثـم بعدها جزائر بنى مزغانة ومليانة والمدية وقد أسس حماد بن بلقين (عام 398 هـ) القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد وهى العاصمة الثانية لبنى زيرى الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة ارباع قرن الى بجاية وهى العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد أكد كوتيى أن المملكة الصنهاجية خضعت لتأثيرات الشرق حيث أبرز بيئيى فى حفرياته الطابع الشرقى الذى تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقى فى أروقة قلعة بنى حماد والطابع الفارسى فى زخرفة الاوانى) اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم ايضا غمارة سكان الريف

وقد اتضح الآن أن مجموع الجبال المغربية و « القبائل » الجزائرية كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة أوربة وهى قبيلة كسيلة الشهير التى كانت تسكن غربى الاوراس حسب « مسكارى » ويقطن عقبها اليوم فى سهـول وادى انعبيد ووادى العرب ويظهر من كلام ابن خلدون أنهم كانوا منتشرين فـى التـل الوهرانى وناحية تلمسان وحتى ممر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بـن نافع وانهزام كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة وليلى المعروفة ايضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث ان شكلية الاراضى نفسها أقرت رابطة طبيعية بين اقليمى الاوراس والملويـة الذيـن كان امراء نوميديا (أى بلاد مزاب) مثل سيفاكس وماسينيسة وجوكورطا متارجحين بـينهمـا

ولكن اين الصحراء من كل هذا ؟ الى أية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون فى أعماق الصحراء المتاخمة للسودان ؟ انهم بربر اشهرهم التـوارك أو الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولمتونة الا أن علماء النسب يرون فـى هـؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين أسسوا الدولة المرابطية وهم من قرابة صنهاجة الاطلس وصنهاجة الجزائر فهم اذن برانس وهنالك فريق ءاخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة وطرابلس ولعبوا دورا هاما فـى تـونس والاوراس الجزائرية فهـم اذن بتر من بنى عمومة

ولعل من أهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذى احترمه حتى الاغالبة التونسيون ـ على قول النويرى ـ لقرابته من الرسول واذا كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع أوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة وجميع القبائل الاخرى التى كانت تستوطن المغرب مثل أوربة ومطغرة (التى ساندت ميسرة من قبل) ومغيلة الجزائرية هذا علاوة على بنى يفرن ومغراوة أى مجموع الكتلة الزناتية من فاس الى الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مآت من العرب اخترق بهم تامسنة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة الى نشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هى المرة الاولى التى تطأ فيها اقدام فاتح أجنبى تراب هذه الناحية من جنوب المغرب « لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة فى المغرب الجنوبى (ص 289) .

ويحق للمؤرخ كوتيى القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التى انفتح بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق « وقد عاد المغرب الاقصى فى عهد المرابطين ـ كما يقول الاستاذ « طيراس » فى تاريخه (جاص 257) كما كان مغربا مزدهرا تحتف به الطمأنينية والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان » كما ازدهرت فى عهدهم وبفضلهم فى الاندلس حضارة الاسلام (ج اص 259) وقد أمكن لابن تاشفين بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية أن يوحد جبال الاطلس (ج I ص 273) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج I ص 238) وعبد المومن هو الذى وحد المغرب الاسلامى للمرة الاولى فى التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج I ص 314) .

وهكذا قامت للمرة الاولى فى التاريخ ـ حسب المؤرخ كزيل ـ دولة موحدة فى مجموع المغرب العربى (سوردون ـ الكتاب المذكور ص 28) ولكن فى هذا العهد (القرن الخامس الهجرى) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هى اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب بالمعنى العادى للفظة لغة أى جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وأدبه » بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص 386) غير أن العرب الجدد أشاعوا اللغة العربية فى شكلها الدارج حيثما حلوا أى فى البادية نفسها وبذلك « تغلغلت العربية فى تونس وحواشي الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة الى سهول المحيط الاطلسى أى فى مجموع البلاد التى تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا أن العامل اللغوى انضاف الى العامل الجنسي لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربي وقد امتد

اشعاع اللغة البونيقية التى كانت تشتمل على نسبة مهمة من العربية من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجريد والاوراس (تاريخ المغرب كواساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ فى البونيقية من أن لفظ « ملك » لها نفس المعنى فى اللغتين (سوردون ـ الكتاب المذكور ص 36)

على ان عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على أن أفواج بنى هلال وبني سليم التى اخترقت ألفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى مائتى ألف نسمة على اكبر تقدير واذا صدقنا الاستاذ كوتيى القائل بأن سكان مغرب القرن الخامس كانوا اوفر منهم اليوم أمكننا ان نقدر النسبة الضئيلة التى تمثلها هذه الهجرة العربية التى استطاعت مع ذلك أن تترعرع فى شخص الاعراب الذين ساهموا فى رفع نسبة التوالد بين الجنسين وامتزاج السلالتين ذلك أن هؤلاء الاعراب ما لبثوا أن عمروا كما يقول كوتيى (ص 405) «مجموع الصحراء الشمالية فى سفوح الاطلس الى بحر الظلمات » ثم بعد ذلك سهول أزغار وتامسنا وتادلة ودكالة ومما يدل على تسرب العربية عن طريقهم الى الصحراء ان « بعض التصاريف النحوية التى اندثرت فى المغرب توجد الآن فى الصحراء » (ص 405) .

وفى الجزائر نفسها شاهد ابن خلدون انتشار هؤلاء الاعراب الذين ما لبثوا أن اندرجوا فى سلك قبائل زناتة الاصلية بل كان لوجودهم بين ظهرانى البربر تأثير قوى أدى بالكثير الى تبنى اللغة العربية كما وقع فى افريقية حيث اعتنقت هوارة ما للهلاليين والسلميين من أعراف وأساليب فى الحياة واللباس وغير ذلك بل تركت البربرية حتى اصبحت نسيا منسيا واتخذت مكانها لغة الضاد وقد انتشر بنوزغبة وهم من العرب فى المغرب الاوسط حيث سكنوا الحواضر والبوادى واندمجوا فى زناتة ولاحظ ابن خلدون أن العرب أصبحوا يستوطنون فى عصره مجموع نواحى بجاية وقسنطينة التى كانت موطن زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة اللهم الا بعض الجبال المنيعة

ثم جاءت الهجرة الاندلسية فانتشرت اللغة العربية والحضارة الاسلامية فى مجموع المغرب مع فلول الاندلسيين التى استقرت بالحواضر الكبرى مثل تونس ووهران وتطوان والرباط وفاس وحتى فى بعض النواحى الجبلية مثل فازاز بالاطلس الاوسط وقد تغلغلت الروح العربية فى نفوس البربر الى حد ان الرحل العرب بدون استثناء ـ كما يقول كوتيى (ص 410) أصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب الى أرومة بربرية فهم يرون فى هذا الاحتمال سبابا لهم وضربا من المحال وهم لا يكتفون باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون أنهم عرب وانه لا تجرى فى عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية وهكذا نجد العرب اليوم مستقرين فى المواطن التى كانت تعمرها زناتة فى العصور الوسطى «فهذا الاشعاع الخالد الذى تمخض

عنه الفتح الاسلامى واستتباب الروح العربية منذ أزيد من ألف سنة يتناقض مع ذلك الانمحاء الكلى الذى منيت به الحضارة الرومانية فى المغرب العربى فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) «ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية» تبخرت فى المغرب فى ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطاجنة على يد جنسيريك عام 439 م . الى أن فتح عقبة بن نافع مدينة طنجة عام 682 م . وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب أى تراث رومانى غير الانقاض »

هذا فى حين أن حضارة البونيك ظلت متأصلة فى المغرب العربى حيث امتد نفوذها الى القرن الخامس أى طوال الاحتلال الرومانى « محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربى » (سوردون ص 31)

ولكن لماذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفقت مدنية الرومان ؟

يظهر ان وجود القرطاجنيين فى المغرب يرجع الى القرن الثانى عشر قبل الميلاد فقد أسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة « اوتيك » التى أسست بالقرب منها هى أقدم وكذلك المدينتان المعروفتان بـ « هيبو » وهما بنزرت وعنابة أو مدينة « ليبتيس ماكنة » أى طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام 146 بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقى بالمغرب استمر عمليا ألف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل فى غربى البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التى هى أقدم حضارة فى العالم وقد فضل الفنيقيون الاستيطان فى السواحل واقامة مدنهم على طولها حفظا لملاحتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التى صارت عاصمة المغرب والتى دمرها الرومان فى « الحرب البونيقية الثالثة » التى كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ما سينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى - تلك هى نظرية المؤرخ كزيل الذى أكد من جهة أخرى انماسينسا هذا تمنى ان يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ما كانه الاسكندر المقدونى بالنسبة للحضارة الافريقية لا سيما وان هذا الامتزاج والتداخل كانا قد قطعا أشواطا فى المغرب لانهما تهيئا منذ قرون (كوتيى ص 102)

ويرى كزيل ان قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد أسست نحو العشرين مدينة فى الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجنى بالدم البربرى فكانت لحمة اولى بين الشرق العربى الممثل فى القرطاجنيين وبين المغرب المشخص فى البرابرة وكانت لغة البونيك (التى تقرب من ارامية اهل الشام) اللغة الرسمية عند أمراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقى تجاوز نطاق الحدود التى كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية فى تونس وشرقى الجزائر وأكد سان - أو كستان (الذى ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادى) ان اللغة البونيقية كانت منتشرة فى البادية فى عهده

واكد «بروكوب» أنها كانت دارجة في القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الاسلامى لهذا يقول كزيل - ان فى وسعنا أن نفرض ان البربر تبنوا لغة الاسلام لانهم تعلموها بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التى لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ افريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 498) وقد استند كزيل نفسه الى وثائق قديمة أشار اليها فى كتابه واستنتج منها كوتيى (عصور المغرب الغامضة ص 165) تسلسل تاريخ المغرب « تسلسلا عميقا» وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقى الى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد اذ ذاك من صيدون (وهى صيدا الحالية) الى مصر وعندما اكتسحها العبريون هاجر الفنيقيون من وطنهم الى بلاد الكنانة التى كانت فى حدود بلادهم ومنها الى المغرب حيث انتشروا الى «اساطين» هرقل (مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب فى انتساب كتامة وصنهاجة الى حمير ومعلوم ان الحميريين اقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقى حوض المتوسط هم مثل الفينيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان بين البربر - فى نظر ابن خلدون - قبائل حميرية ومضرية وقبطيةوكنعانية وقرشية تجمعت فى الشام وبها غزا افريقش الحميرى المغرب .

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع أن القرطاجنيين مشارقة وأن لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا - كما يقول كزيل - تحت الرماد طوال عهد الرومان الوندال والبزنطيين الى ان جاء الاسلام فوجد فى «قرطاجنة جرثومة مشرقية لم تندثر بل كانت مستعدة للتفتح والازدهار واستمرار البونيقية فى المغرب كانت له فى نظر كزيل ذيول أخرى منها الدينى (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد (الاصابع الخمسة) للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين

ويستمر كزيل فى الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقى فى المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر أو تقصيره وارسال اللحى وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود فى العبادة (مما كان يدهش الاغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو أعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذى يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتيى ص125)

والذى يؤكد ايضا من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر أو وحدة الشرق والمغرب أن القطرين الذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج افريقيا فى غرب حوض البحر المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدهما اللذان استوطنهما الفنيقيون والقرطاجنيون قبل الاسلام « وعلى كل فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام قد اندرج فى سجل التاريخ» وان سكان قسط شاسع من المغرب يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسون على طريقة المشارقة منذ ما يقرب من ثلاثة ءالاف من السنين « (كوتيى ص 130 - 132) »

وننساق من هذا الى الحديث عن الاعراف والعوائد الاجتماعية فى المغرب فما نسميه بالعرف لا يمثل العرف دائما لان العادة المحكمة تكون تارة عرفا وتارة شرعا والشرع كما يقول سوردون (ص 281) هو العرف العام أى المادة التى يستقى منها العرف فى حين أن العرف فى نطاقه الحقيقى ليس سوى ذلك الجزء الجنائى أو المدنى من العادات وهو عبارة عن الاتفاقات المبرمة بين الجماعات لتحديد بعض نقط العادة أو تعديلها فى خصوص العوائد المتعلقة بالسواقى أو المخازن المسماة « باجدير » (1)

وشكلية الجماعة عند الشلوح شبيهة بالتى توجد عند امازيغ (الدسكرة ـ الدوار ـ مجلس الاعيان ـ اجدير الخ) وتلاحظ نفس الوحدة فى الهيكل العام للقانون العمومى ولا بدع فى ذلك حيث ان القبيلة التى هى النواة الجهوية للجماعة تتسم بنفس المظاهر فى السهول وفى الاطلسين المراكشي والتلى ومجلس الجماعة هو المكلف هنا وهناك بتطبيق العرف العام الذى هو الشرع وكذلك العرف الجنائى الخاص .

على أن الفقه المالكى منتشر فى نصف المغرب العربى تقريبا (سوردون ص 473) وحتى فى النواحى العرفية يلجأ الناس الى الطلبة أو الى حكام يطلقون عليهم اسم قضاة او مفتين ويختارونهم بالاقتراع لمدة موقتة أو بصورة دائمة ويؤكد سوردون «انه لم يقع قط أى تصادم بين الشرع والعرف» فى المغرب (ص 342) . ولنضرب مثالا بمنطقة الاوراس البربرية « فان الفقه المالكى مطبق فيها ولكن ذلك لم يمنع سكانها وهم شاوية أن يطبقوا فى نفس الوقت عرفا يستمد مقوماته الخاصة من وسط شبيه بسوس والاطلس الاوسط » (ص 390) والاعراف متشابهة فى افريقية (تونس) وبلاد القبائل الجزائرية والاطلس الاوسط بينما نرى التقارب محسوسا بين الاعراف فى وسط المغرب الادنى وجنوبه والاوراس (ص 442) بحيث تلحظ وحدة موصولة بين كثير من أجزاء المغرب العربى لان الجوهر واحد « فمن اجدير الى قابس الى الجزائر الى بوذنيب الى عين صالح فى الصحراء توجد لحمة واحدة فى الهيكل العام الذى هو افريقيا الشمالية » (ص 473)

ولعل من أبرز مظاهر وحدة المغرب العربى المظهر الجغرافى الذى تمخضت عنه كثير من المظاهر وبالاخص الحاجيات الاجتماعية والوحدة الاقتصادية ذلك أن

---

(1) اجدير عبارة عن مستودع لخزن ذخائر مجموعة من العائلات التى تملك الهرى وتسمى أهل الحصن أو اهل الاصل وهى تكتتب لشراء الارض ثم يبنى عليها عمارة من ثلاث طبقات ويباشر تسيير هذه المستودعات بالارتكاز على فكرة اللوازم وهى واجبات الشركاء أو المصالح وهى العلائق بين هؤلاء الشركاء ولا يخفى ان فكرة «المصالح المرسلة» فى المذهب المالكى تجعل هذا النوع من العرف عادة محكمة ذات صبغة شرعية

أقطار افريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق الى الغرب فى مسافة ينيف طولها على 1800 كيلومتر وعرضها على 400 كيلومتر ويحف بها البحر من ثلاث جهات فى حين تتغلغل جنوبا فى فيافى الصحراء واذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التى هى امتداد طبيعي للمغرب العربى وجدنا ان مساحة افريقيا الشمالية تبلغ 000 800كم

ويمتد الاطلسان الاوسط والاكبر نحو الشمال الشرقى عبر المغرب العربى بواسطة الاطلس التلى بينما ينعرج الاطلس الاكبر شرقا الى جبال «القصور» ثم يستطيل « اطلسا صحراويا » نحو الشمال الشرقى فى سلسلة سامقة تتخللها ممرات واسعة وفى تونس يلتحق الاطلسان الواحد بالآخر ثم يمتزجان .

ومن الاطلس الكبير الى تونس يحف الاطلسان بسلسلة من الهضاب الكبرى يتراوح ارتفاعها بين 800 و 1000 متر وتتسم الشواطىء أيضا بنفس المظهر : ضفاف واطئة فى المحيط الاطلسى دون أى نتوء صخرى وعلى ضفاف المتوسط شواطىء تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقى .

أما المناخ فهو على وجه العموم حار معتدل مع أمطار شتوية وتمتد امام نظرك على طول الشاطىء وفى السهول ومنحدرات الاطلس التلى والريف والاطلسين الاوسط والاكبر أدواح وأشجار مستديمة الاوراق صيفا وشتاء يتخللها الدفل والعناب والدوم ومآت النباتات العطرية وترتفع غابات الزيتون فى السفوح الى 800 م بينما تكثر فى النواحى الرطبة اشجار الصنوبر والعفصية والبلوط والخفاف (الذى لا يوجد الا فى الحوض الغربى للمتوسط) وتتسامق اشجار الارز فى القنن العالية .

أما فى الهضاب العليا والنواحى التى لا تنزل فيها الامطار بكثرة فان قطعان الغنم تسير تحت حراسة رعاة رحل بينما تغطى الحلفة بخضرتها القاتمة مساحات شاسعة (افريقيا الشمالية لم.كلى) ولا توجد فى اى مكان فى الدنيا غير الاطلس واسبانيا فالحلفة اذن من اكبر خواص المغرب العربى (افريقيا البيضاء ــ كوتيى ص 161) وهكذا يتجلى الاطلس المتسلسل من المغرب الاقصى الى المغرب الادنى قطعة واحدة يغمرها نفس الضياء ونفس الاشعة ونفس المناظر الطبيعية (افريقيا البيضاء كوتيى ص 153) ولكن فى مجموع اقطار الاطلس وعلى طول 3000 كيلومتر من أكادير الى صفرو لا تتوغل الحياة البدوية والحضرية اكثر من 150 كيلومتر فى عمق الجبال (ص 155)

ومن ثروات افريقيا الشمالية علاوة على الزيتون اشجار الفواكه واللوز والكرم والحوامض والمشمش .

وتتسم هذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية بطابع خاص بين المغرب الشرقى والجزائر حيث يمتد التل الوهرانى الى نهر الملوية الذى هو أعظم نهر فى آفريقيا الشمالية كما تتلاحق هضاب دبدو مع هضاب تلمسان وتتلاحق نفس الهضاب من الجزائر الى قلب الصحراء (تندرارة) وفى هضاب الجزائر والمغرب الشرقى تكثر

الحلفة وقطعان الغنم التى تباع فى بركنت وتصدر الى الخارج من وهران وتعتبر فجيج مركزا هاما فى الاطلس الصحراوى المغربى والجزائرى على أن سهول وهران نفسها انما هى امتداد طبيعى لممر تازة أو العكس .

وتوجد فى المغرب العربى نفس المعادن تقريبا (الفوسفاط والحديد والزنك والرصاص والنحاس وان كان المغرب الاقصى ينفرد بالمانغانيز والقصدير والكوبالط والموليبدين وبالاخص الفحم والبترول .

وخلاصة القول هى أن افريقيا الشمالية واحدة فى جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة كما يقول الكولونيل بوطس فى كتيبه عن افريقيا الشمالية (ص55) فهى «كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها» وقد أبرز الوحدة بين اجزاء جزيرة هائلة عاش سكانها منطوين حول انفسهم آلاف السنين فى حين هيأت لهم الوضعية الجغرافية الخاصة اسباب التواصل فتيسرت للحياة فى المغرب الاسلامى » فى جميع العصور عوامل التبادل من اقصى المغرب الى أقصاه بين عناصر تجمعها أروقة واحدة وسلسلة من المسالك السهلة تمتد من تونس عبر ممر تبسة الى هضاب وهران ومن ممر تازة الى المحيط الاطلسى تلك الطريق التى عبرها عقبة بن نافع منذ أزيد من الف عام لتوطيد قدم العروبة والاسلام هى التي وصفها ويليام مارسى بأنها « الخط الاكبر وهذه الطريق تتخلل الاطالس الثلاثة لتضفى على المغرب العربـى وحدة جغرافيـة خاصة تجعل هذا الجزء من القارة الافريقية فريدا فى بابه لا سيما اذا اضفنا الى ذلك وحدة الطقس التى تنشر على الكل سربالها الدافىء المشع بنوره الازرق اللماع .

والمغرب العربى يعتبر من الوجهة الاقتصادية قطرا فتيا فلاحيا فى جوهره ينطوى على قابلية ذاتية للتصنيع نظرا لوفرة المواد الخام واليد العاملة ولا تزيد التطورات الحديثة هذه المغارب الثلاثة الا تقاربا أبلغ وأمتن .

وهذه الوحدة الخاصة التى تجعل من المغرب العربى وصحرائه كتلة من جميع الوجوه لا تتنافى مع الوحدة العامة التى تربط المغرب بالعالم العربى والتى تتجلى مظاهرها فى وحدة اللغة والحضارة والدين والعواطف وكذلك التاريخ فـالقطـر الليبى هو امتداد طبيعى للمغرب العربى نحو الكنانة وباقى اقطار الشرق تجمعه بالمغرب وحدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة ولكنه ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا لان الاطالس تمتد الى تونس فقط ولان الصحراء تمتد فى ليبيا الى الشواطىء نفسها .

ولا يختلف وضع مصر عن وضع ليبيا بالنسبة للمغرب الا قليلا اذا اعتبرنا ان الاقباط ينتمون الى نفس الفصيلة اللغوية التى ينتمى اليها البربر وان مصر كانت دائما معبرا بين الشرق والمغرب العربيين وصلة وصل حية بينهما .

فعن طريق مصر دخل الى المغرب الفاتح العربى ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب الهلاليين والسلميين الذين تواردوا الى الصعيد المصرى من جزيرة العرب

التى تصلها بالمغرب زيادة على هذه النفثة الجنسية التى كان لها أعمق الاثــر فــى التاريخ ـ أسباب أخرى لا تقل عن الأسباب التى تربطها بباقى العالم العربى .

وبلاد الشام التى كانت مهد الخلافة الاسلامية في العصر الاموى والتى كانت حدودها السياسية والجغرافية والحضارية تتغلغل بين دجلة والفرات والاردن الى صحراء فلسطين كانت أيضا مهد الفنيقيين الذين نشروا الكرم والرمان (الكولونيل بوطس ص 82)

ومن هذا العرض الموجز تتجلى لنا فى أعمق مظاهرها وابهى مجاليها تلك الوحدة العريقة التى تجعل من المغرب العربى مجموعة متراصة ينتظر أن تقوم بدور هام فى افريقيا وحوض البحر المتوسط خصوصا والعالم الحر عموما مع شقيقاتها .

■

الصحراء المغربية

ان الصحراء الافريقية التى يحدها الاطلس شمالا هى اعظم الفلوات وأجمل الفيافى العالمية لانهـا عبارة عن سلسلة من السهول والاودية والانهار والجبال حيث تتساوق الرمال مع الاحجار .

وقد عاش الصحراويون الاحباش وحدهم قرب ينابيع المياه حتى هاجر اليها الرحل بجمالهم بعد الاحتلال الرومانى لافريقيا الشمالية وتسرب العنصر العربـى الشرقى فى نفس الوقت الى القارة الافريقية حيث تحسنت الحياة نسبيا وتطورت المواصلات بفضل الجمل المستورد من اشوريا وفارس وحينـذاك تدخـل العنصر الزناتى فى الصحراء فحفر الابيار وغرس النخيل لا سيما فى توات منذ البعثة النبوية.

والقبائل الصنهاجية مثـل هوارة ولمطة تشكـل اول فـوج مـن البرابـرة البيض الذين غزوا الصحراء فى القرن الثالث الميلادى وهى التى نقلت الاسلام الى التخوم الجنوبية لا سيما فى السنغال والسودان والصنهاجيون المغاربة هم ابرع الرحل الجمليين فى حين ظل صنهاجة التل والقبائل الجزائريـة قـابعين بالقرب من مراكز المصامدة المغاربة .

على ان نوعا من الاستقرار شوهد اذ ذاك فى الصحراء نفسها بظهـور القصور والواحات وتسربت الحضارة الى هذه الفيافى عن طريق برابرة الشمال الافريقى بعد أن أخفق فى ذلك الرومان والاغارقة

ومنذ ذلك العهد برزت الصحراء كحلقة طبيعية من افريقيا الشمالية وبالاخص الاطلس الجنوبى كما تشهد بذلك الوحدة النباتية والحيوانيـة والتجـانس بيـن النوالة المغربية ونوالة خط الاستواء وبين رسوم الريف والسـودان والموسيقـى المغربية والزنجية (هسبريس مجلد II عام 1930) .

وعقبة بن نافع هـو أول من فتح من العرب اقاليم الجنوب وطبع بعض جوانبها بالطابع الاسلامى ويزعم بعض المؤرخين أن هذا الفاتح العربى وصل الى السودان واحتل التكرور الى غانة وان الكنتيين من سلالته ولكن الظاهر ان عقبة لم يتجاوز الفرسية حيث منبع الساقية الحمراء ولكن الشىء المحقق هو ان ذلك كان اول فرصة لاتصال الصحراويين بالاسلام وقد أكد صاحب القرطاس (ج ١ ص 7) ان اسلام بعض اقاليم السودان يرجع الى القرن الاول الهجرى حيث تمكن عقبة من احتلال مدينة

تكلاتين قرب السودان وعبد الرحمن بن حبيب والى افريقيا عام 127 هـ (وهو من سلالة عقبة) هو الذى حفر الابيار من واحات البانى الى موريطانيا الشرقية ـ

ومنذ دخول العرب الى افريقيا برزت الوحدة المغربية الصحراوية فـي اجلى مظاهرها كما يظهر ذلك من دراسات ابن خلدون فالزناتيون البتر يكونون معظـم سكان دساكر الصحراء واحفادهم من المغراويين واليفرانيين والمرينيين هـم الذين احتلوا هذه الفلوات ومن الصدف الغريبة ان اهم غزوات زناتة للصحـراء يرجـع تاريخها الى سنة الفيل اى سنة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وزحف المولى ادريس الثانى على رأس خمسمائة عربى الى الاطلس الكبير الذى لم تتمكن من الوصول اليه الفلول الرومانية قبل ذلك هو الذى فتح ابواب الشمال فى وجه الموحدين وبدأ منذ ذلك العصر تاريخ المغرب الكبير وبرزت للمـرة الاولى فى تاريخ افريقيا طريق المغرب الى الصحراء بعد ان التفت حول المولى ادريس الاكبر معظم القبائل البربرية من اوربة (اصحاب كسيلة) وجراوة اصحـاب الكاهنـة الى كتامة الذين ناصروا الفاطميين وصنهاجة دعاة المرابطين والمصامدة دعامة الموحدين

ومنذ القرن الثالث الهجرى سدت طريق القوافل التى كانت تصل مملكة غانة بمصر واصبح الاتصال جاريا بين السودان والشرق عن طريق سجلماسة التى كانت أكبر مركز تجارى فى أقطار الاسلام وامسى المغرب حسب ابن حوقل ممرا للقوافل المتنقلة بين الصحراء وبغداد والبصرة وقد تزايد نفوذ صنهاجة فى الصحراء حيث عمت سلطة الملثمين مجموع الفيافى من غدامس بطرابلس الغرب الى المحيط الاطلسى ومن الجنوب الى تخوم السنغال والنيجر (النيل) وقد تركز اللمتونيون فى ادرار بموريطانيا بينما وصل اخوانهم المسوفيـون والكداليـون الى النيجر وقـد قبض اللمتونيون على زمام مملكة غانة التى كانت اعظم واقدم ممالك الـزنوج ، وملكهـا يتلوتان المسلم الذى ارضخ لنفوذه ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان (القرطاس ج 2 ص 6) ـ

وفى عهد يحيى ابن ابراهيم الكدالى حيث ترعرع الاسـلام (عـام 427 هـ) فى ربوع السودان سيطرت الفكرة الاسلامية فاتحدت مسوفة ولمطة وكدالة ولمتونة وتناسقت الواحات تحت شعار الاسلام وتكونت على يد المرابطين اول دولة افريقية امتدت من الاندلس الى الجزائر الى السودان ـ

واذا كان الموحدون قد تركوا فى الصحراء الحبل على الغارب للمرابطين فقد خلف هؤلاء فى القرون التالية المرينيون ثم السعديون ثم العلويون ـ

وفى عهد الموحدين تسرب الهلاليون الى الصحراء حيث نمت اللغة العربيـة وازدهرت معالمها وبعد ذلك بقرون وصل زيادة على بنى هلال بنو سليم فى هذه الاقاليم(ومن بنيهم اطرود وبنوهلال اولادسيدى الشيخ واولاد جرير)وتوصلت سلالتهم من بنى حسان منذ اقل من ثلاثة قرون الى جنوب الساقية الحمراء حيـث كونـوا

القبائل الموريطانية وقبل ذلك اندمج بنو معقل فى قبائل سوس وءايت باعمران وقد أكد كل من ابن بطوطة وابن خلدون ان جزولة استقرت بين سوس والساقية الحمراء وصنهاجة فى اقصى الجنوب ولمتونة شمالى النيجر وما زالت صنهاجة الى الآن تعمر المغرب الكبير من النيل الى طنجة ويظهر حسب رواية صاحب الاستقصا — ان ملك مالى منسى بن ابى بكر رضخ الى نفوذ ابى الحسن المرينى .

وقد حاول البرتغاليون والاسبان منذ القرن الخامس عشر الميلادى التسرب بين الساقية الحمراء والسنغال ولكن السعديين طردوهم معززين برجال الطرق فى الصحراء وعلى اثر انتصار معركة وادى المخازن توغل المنصور عبر القبائل الى ان وصل الى السودان .

وهكذا احتل المنصور ناحية توات عام 1581 م وبعد ذلك بثلاث سنوات أخذ طريق ادرار الى ان بلغ النيجر حيث استقر الباشا جودر بتنبكتو عام 1591 وبعد ذلك باقل من قرن(عام 1670) دخل الملوك العلويون الى الصحراء والسودان وقد طارد مولاى رشيد الى ان بلغ النيجر أحد المتمردين فى سوس واحتل مولاى اسماعيل الاقاليم الخصبة فى السودان فتجاوز الحدود التى وصل اليها المنصور

وقد وصل نجله المولى عبد الله الى السودان كذلك فى سنتى 1734 م و 1736 م وظل السودان تحت الحماية المغربية الى ان استولى عليه العالم الصوفى سيدى عمر القوتى مؤسس مملكة السود — (هسبريس مجلد II عام 1930)

وهكذا ظل السودان خاضعا للمغرب طوال اربعة قرون تحت اشراف باشوات بلغ عددهم بالتوالى — واحدا وعشرين من عام 1612 الى 1660 و 188 من عام 1660 الى 1750 م وقد استعيض عام 1780 عن لقب الباشا بلقب الكاهية الذى بقى مشرفا على السودان باسم المغرب الى دخول الفرنسيين عام 1893 م على عهد مولاى الحسن وعندما هدد الفرنسيون تمبكتو وصل وفد سودانى الى فاس للاستنجاد بملك المغرب كما وقع بعد ذلك عند احتلال فرنسا لتوات وتيدكلت .

اما فى موريطانيا فقد لاحظ المؤرخ دولاشابيل ان سياسة الملوك العلويين كانت انشط منها فى السودان فقد توالت الغزوات ضد المهرجين فتوجهت الجيوش المغاربة الى وادان عام 1665 والى ادرار عام 1678 م والى تاكانت عام 1680 والى شنجيط وحتى الى السودان عام 1730 م (عن طريق ماسة وواد نون والساقية الحمراء) وتيشيت عام 1789

وجعل المغرب فيالق من جيشه رهن اشارة امير الترارزة حوالى عام 1672 م وحصل هذا الامير على تولية السلطان اياه ومنذ عهد السعديين وتعيين شيوخ الطوارق مندرج فى اختصاصات باشوات المغرب فى تنبكتو وقد تجددت هذه التوليات فى عهد سيدى محمد بن عبد الله وفى عهد مولاى الحسن .

وفى القرن الماضى عرفت الصحراء الصوفى الكبير سيدى محمد الفاضل تلميذ

سيدى المختار الكنتى وبعد وفاته قبض بنوه على زمام الامر واستولى ماء العينين على مقاليد الحكم فى شنجيط والساقية الحمراء حيث اسس سمارة وزرع النخيل والحبوب وقد ورد على مولاى الحسن الذى تفضل فوجه اليه بواخر مشحونة بالاعتدة للوقوف فى وجه التدخل الفرنسى فى موريطانيا وعندما وصلت الجنود الفرنسية الى موريطانيا والحوض استنجدت جميع القبائل الشنجيطية بالسلطان مولاى عبد العزيز الذى هب للمطالبة بهذه الاقاليم كجزء من المغرب .

وقد استغل الاسبان معاهدة 1860 فحاولوا الاستقرار فى ايفنى التى زعموا أنها هى سانطا - كروز وما بيكينا المتنازل عنها لهم من طرف المغرب وفى نفس الوقت أسس الانجليزيان ماكنزى وكوتيص مراكز تجارية احدهما فى طرفاية والآخر فى اركسيس بآيت باعمران وكان رد فعل السلطان مولاى الحسن شديدا للغاية وفى عام 1886 وصلت فيالق مغربية الى كولميم فخرج ماكنزى من طرفاية التى عاد اليها الاسبان بعد ذلك حتى انتزعها منهم جلالة الملك محمد الخامس بعد الاستقلال



بين المتوسط والمحيط ولكن توغل تخومه فى قلب الصحراء كان من شانه ان يخضعه لتأثيرات طقس قاس لولا ان بحدود هذه البلاد محيطا تنعشها رطوبته وفى خلالها انهارا فياضة

وهكذا تتجاذب المغرب عوامل الطقس البرى والبحرى والصحراوى والمناخ المعتدل ولكن بالرغم عن تشعب مميزاته فشخصيته القوية تتوفر على خواص توجد بين سهوله وجباله وهضابه .

على أن هذه المظاهر المتضاربة نفسها لا يمكن ان تكتمل بدونها شخصية جغرافية ممتازة لانها هى فى ذاتها متكاملة

ويذكر الجيولوجيون ان الناحية التى بين الجنوب والمقاطعات الشمالية كانت مياه البحر تصل اليها فى فروع مستطيلة هى مضيق جنوب الريف وهى اليوم عبارة عن غور يتوسطه ممر تازا الذى يشطر الناحية الى حوضين هما حوض سبو وسهول الناحية الوسطى لنهر الملوية .

وبسبب هذه الوضعية الجيولوجية تتوازى فى المغرب سلسلة جبال شمالية فى الريف محاذية للمتوسط مع سلسلة اخرى تحاذى الصحراء وهى الاطلس وبين هذه وتلك ناحية وسطى تتلاحق فيها هضاب سامقة وتتخلل كل هذا سلسلة ثلاثية من السهول : سهول سبو وسهول المحيط الاطلسى والسهول الداخلية الواقعة فى سفوح الاطلس .

والغريب ان كل ناحية من هذه النواحى الاساسية تتوافر فيها مظاهر التصادم ولنضرب لك مثلا بالريف فهذا اللفظ يطلق على مجموعة الجبال المحاذية للمتوسط من مضيق جبل طارق الى الملوية والممتدة فى الجنوب الى الورغة ويدخل علماء الجيولوجيا فى عداد جبال الريف كلا من زلاغ وزرهون الواقعتين فى جنوبى سهول سبو .

والريف فى عرف المغاربة اذا اطلق ينصرف للقسم الشرقى من هذه الجبال بينما يسمى القسم الغربى بجبالة وهذا القسم الاخير يتفتح مباشرة لرياح المحيط ومن ذلك وفرة الامطار فيه وبجنوب السلسلة الجبلية تمتد ناحية وزان وبنى زروال حيث تكثر جبال متقطعة تتخللها اودية

والامطار التى هى فى جهة المتوسط اقل منها فى جهة المحيط تزداد قلة من الغرب الى الشرق فتخف وطاة تأثيرات المحيط وتنخفض قمم الجبال التى لا يتجاوز علوها 1500 متر بينما تبلغ فى الغرب ما يقرب من 2500 متر ويزعم الجيولوجيون ان ممرا بحريا كان يفصل القسم الغربى الذى هو اشبه بجبال الالب الاروبية عن القسم الشرقى .

وقد شاهد الانسان الذى عاش فى اوائل العصر الجيولوجى الرابع ثلوجا مستديمة ونفثات بركانية قوية فى قمم الاطلس المغربى وكانت الامطار اذ ذاك تنهمر

بعنف فتطفح بمياهها وديان اضخم مسيلا من وديان اليوم والاودية التى جفت جنباتها اليوم كانت مسربا لانهار كبرى لم تكن تستطيع الانصباب فى البحر ويدل دروس هذه الوديان على أن ارض المغرب لحقها جفاف تدريجى .

وقد انتشرت فى المغرب الشرقى وكذلك فى اسبانيا والجزائر صناعة من ابرز مميزاتها دقة الآلات وصغر حجمها .

ولم يعرف المغرب على ما يلوح عصور النحاس والبرونز والحديد لان هذه المعادن دخلت اليه بواسطة مبادلات تجارية لا بواسطة غزوات استعمارية وكانت اسبانيا فى عصور ما قبل التاريخ ميدانا انتقاليا بين افريقيا وفرنسا من حيث الطبيعة والمناخ وكان مضيق جبل طارق مفتوحا منذ أوائل العصر الجيولوجى الرابع حيث كانت وسائل المواصلات بين اروبا وافريقيا بدائية بسيطة وبذلك يكون المغرب قد لعب دورا هاما اذ ذاك فى تنقل الشعوب والحضارات .

وقد خلف لنا هذا العصر ءاثارا تعرف فى الاوساط الافريقية بالحجارات المكتوبة وهى كثيرة على الخصوص فى الاطلس الصحراوى بين شليف ونواحى بشار

ومعلوم أن فى العصر الحجرى ظهرت البوادر الفنية الاولى حيث بدا الانسان ينقش على الحجر بل يصور على جدران المغاور والكهوف حيوانات باسلوب جرىء ترتسم بعض ملامحه فى طرائق رجال الفن الحديث وقد ترك العصر الجيولوجى الرابع فى كثير من أقطار العالم صورا بديعة شهد كثير من العلماء انها نماذج صنعها اصحابها خدمة للفن .

واول ما استعمل الانسان النحاس والبرونز فى الشرق ومنه انتقل هذان المعدنان الى أروبا حيث بدأ الناس حوالى سنة 2 000 قبل الميلاد يقيمون هياكل من النحاس وبفضل تدفق البرونز على اوربا تطورت الصناعات الحديدية فى اسبانيا وبوهيميا حتى جاء الرعاة الشماليون فقضوا على هذه الحضارة البدائية ثم تدفق حديد الشرق على المغرب فعجل بانحلال الحضارات البدائية وكان الحديد مستعملا فى مصر حوالى عام I 100 ق.م. ثم انتشر فى شواطىء المتوسط حوالى سنة 900 ق.م .

وتمتاز الحيوانات المغربية بكونها لم يلحقها تغيير عميق منذ عصور ما قبل التاريخ الى الآن كما تدل على ذلك شكلية الهياكل التى وقع العثور عليها الا أنه كان من جملة هذه الحيوانات الفيل الذى لم تندرس اعلامه من المغرب الا بعد تسرب الحضارة الرومانية الى هذه الربوع .

ويظهر من الحجارات المكتوبة ان المغرب كان فيه اذ ذاك سباع وضباع وزرافات وغزلان ونعامات وحيوانات داجنة وثعالب وهلاليف كما كان سكانه

يلتحفون جلود الحيوان ويستعملون السهام والدرقات ويتحلون بالعقود والاسورة .

ويوجد فى بلاد زعير انواع من الحيوان عرف بالمغرب منذ عهد الرومان واصل هذه الحيوانات من نواحى دائرة الانقلاب الافريقية ومن الحيوانات التى لوحظ وجودها فى بعض نواحى الصحراء التمساح .

وقد كان الفيل يعيش قبل اليوم فى قطعان متوافرة بجبال الاطلس وهذا امر اتفق علماء الطبيعة على صحته ويحدثنا التاريخ عن فيلة المغرب فىعهد القرطاجنيين وهذ النوع من الفيل هو المعروف عند العلماء بالفيل الافريقى الذى وقع العثور على بقايا عظامه واسنانه ولا يوجد على وجه البسيطة الا نوعان اثنان : الفيل الافريقى والفيل الهندى ومن النوع الاول ما عرف بالمغرب فى اول القرن الحادى عشر الهجرى حيث جلب المنصور السعدى بعد فتح السودان كمية من الفيلة دخلت الى فاس عام 1007 الذى سمى بعام الفيل وقد حدثنا المؤرخ بلين(Pline)ان الفيل كان موجودا باحواز مدينة سلا فى اول التاريخ الميلادى وكذلك فى ناحية طنجة ووادى كير وذكر غيره ان العاج من منتجات السهول المغربية ولا تزال الى الآن صور افيال مرتسمة فوق الصخور لا سيما فى جبل عمور .

وكان ارسطو وهو من علماء الطبيعة يتحدث عن هذا العلم من خلال الفلسفة وقد استشهد على كروية الارض بانتشار المواقع التى يوجد بها الفيل لان هذا النوع من الحيوان لا يوجد الا بطرفى المعمور وهما الهند واعمدة هرقل : (اى مضيق جبل طارق .)

وليس بغريب وجود هذه الانواع من الحيوان بالمغرب لان افريقيا معروفة منذ فجر التاريخ بانها مهد الفيلة والسباع والضباع والنعام .

وقد اشتهرت السلالة البشرية فى افريقيا بالمتانة والمناعة فى الصحة والهيكل الجثمانى الذى لم يكن يقهره على حد تعبير المؤرخ ساليوت(Salluot)الا ثلاثة اشياء : الهرم والحرب والحيوانات الضارية ومن افريقيا كان الرومانيون يجلبون الحيوانات لاستخدامها فى المسارح وقد انحصرت صادرات نوميديا (الزاب) فى الضوارى والمرمر وكان المغرب اخصب عرين لهذه الحيوانات التى لم يظهر من بينها الجمل الا اواخر الحكم الرومانى .

وكان السكان يضطرون الى مطاردة هذه الحيوانات لابعادها عن مراكز استيطانهم ثم صاروا يصطادون الوحوش اما لاستئصال شافتها وأما لاستخدامها فى الالعاب وحتى فى الوقت الذى عرف المغاربة الفلاحة لم ينقطعوا عن تربية البهائم من بقر وغنم وافراس وماعز فكان البعض يسكن منازل قارة والبعض الآخر ينتقل فى الصيف

الى الجبال حيث يكثر العشب ويتوافر الكلأ ، ثم ينزل فى الشتاء الى السهول فرارا من ثلوج القمم ولم تتطور الفلاحة فى الحقيقة الا فى عهد الزعيم البربرى الاكبر ماسينيسا فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وقد احتفظت القبائل البدوية بملكية الاراضى على شكل ملكية الجماعة اليوم وكانت بين السكان اشتراكية فلاحية اى أن الجماعة كانت توزع غلل العمل المشترك على الجميع أو توزع الاراضى نفسها على العائلات وفى هذه العصور عرف المغاربة الملكية الفردية .

أما شكلية المسكن فان الكهوف والمغاور التى هى عبارة عن غرف منحوتة فى النجود لم تكن تصلح للرحل الكثيرى التنقل بقطعانهم فلذلك كانوا يأوون الى مساكن متحركة ينقلون اطرافها معهم على ظهر عربات تجرها البهائم بينما كان القارون يسكنون (النوايل) أو الاكواخ المبنية من الطوب .

ثم صار الناس يقيمون ما يعرف (بالقصور) أى معاقل تسند حمايتها لرجال مسلحين أو ابراجا تبنى على اطراف الجبال بمستودعات الذخيرة ومطامير القموح .

ومنذ عصر ما قبل التاريخ تجمع الافارقة فى مداشر قوامها نوايل واكواخ مبنية فى أماكن توفرت فيها بعض شروط الراحة أما المدن فلم يشرع فى اقامتها الا فى عهد الفينيقيين .

وكان المغاربة معروفين بمناعة البنية وقوة الجسم وطول التعمير لكونهم نباتيين فكان الفلاح ياكل الكسكس والرعاة يكتفون بالالبان عن اللحوم ولم يكن الجميع يشربون سوى الماء القراح وكانت طرائد الصيد والحلزون والعسل من الماكولات العادية .

وكانت ثيابهم فى الاول مخيطات تستر العورة ثم جلود الحيوان الواقية من البرد ثم الجبة الصوفية ثم اكسية اشبه بالبرانس وكانت على رؤوس معظمهم اكاليل من الريش .

اما سلاحهم فكان اولا الحجارة فى العهد الحجرى - الذى امتد طويلا فى افريقيا حيث لم يعرف الناس منذ الاول معادن الحديد والبرونز والنحاس - ثم الحراب فالقوس فالخناجر وكانت درقات الدفاع مصنوعة من جلد الفيلة الذى كان ماء المطر يفسده .

وكان رجل عصور ما قبل التاريخ يصنع آلات واسلحة وكان ينقش اولا بالاظافر ثم رؤوس الحجارة ثم أطراف العظام الحادة ثم اسنان اشبه باسنان المناشير وعلاوة على صنع أنواع الجواهر كان يرسم على الحجارة صورا تمثل بعض مواقف حياته اليومية ولا تزال اثار هذه الحجارة المكتوبة ماثلة للعيان الى اليوم وقد كان بعضها مكتوبا باللغة الحميرية .

وكانوا يتحلون – رجالا ونساء – بالاسورة والعقود ويتميز الذكور باقراط الاذان والنساء بالخلاخل وكانت الاوانى كلها خزفية والمرأة فنانة تتولى نقش هذه الاوانى بنفسها كما تتولى نسج الزرابى والفن البربرى يستمد من الاشكال الهندسية لا من صور الطبيعة فقلما يستعمل الاقواس والحنايا وانما هى خطوط وتعاريج هندسية ويرجع هذا الفن الهندسى لعهود غابرة ولعله يخفى فى مظهره البسيط صورا شتى تتمثل فيها مراحل التطور وقد وصف اندرى جوليان اصحاب هذا الفن بالحيوية الدافقة لانهم صمدوا باصالتهم الفنية فى وجه التأثيرات الاسبانية .

اما الموتى فانهم كانوا يدفنون فى عصر ما قبل التاريخ فى مغاور طبيعية ثم صاروا يوضعون فى كهوف مربعة او مستطيلة تنحت فى حجارة الجبال وكانت هذه الكهوف اشبه بمساكن تحشر فيها جثث متعددة بعد ثنيها وكسر عظامها ولكن ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد صار بعض المغاربة يحذون على ما يلوح حذو القرطاجنيين واليونانيين فى احراق موتاهم كما تعودوا صبغ الموتى بالاصباغ المختلفة وايداع الحلى والاثاث مع مالكها فى مرقده الاخير .

وتدل وفرة الاثاث والاسلحة فيما قبل التاريخ على ان المغاربة كانت أهم حياة اجتماعية منذ اعرق العصور ولم يكن نظام الانتساب الابوى يختلف عنه اليوم وكذلك عادة تعدد الزوجات أما ما اشاعه بعض المؤرخين من شيوعية المرأة بين كثير من الرجال فى بعض القبائل الشرقية فقد فنده اندرى جوليان فى تاريخه لافريقيا الشمالية .

وكان حق الاشراف على العائلة يتمتع به قيدومها لا الابن الاكبر خلافا لما كان عليه الامر فى كثير من اقطار اوربا وهذه العادة معروفة عند الوندال وكذلك فى نظام وراثة العرش البيلكى فى تونس الى السنين الأخيرة .

وفوق نظام العائلة يوجد نظام الدسكرة التى يقيمها الفلاحون القارون للتحصن ضد القوم الرحل وكانت هذه الدساكر عبارة عن جمهوريات صغيرة لها مجلس اشبه بمجلس الجماعة اليوم فى الحياة العرفية ولم تكن القبيلة تختار لنفسها رئيسا الا عندما تشب حرب فاذا ما صادف هذا الرئيس التوفيق سعى فى تملك السلطة هو وبنوه وكانت هذه القبائل تنهار أو تتقلص او تتسع حسب مصاير الحروب فكان القائد القوى يشرف بعض الاحيان على قبائل مختلفة .

وقد سادت اعراف وعادات وانظمة اشبه بهذه سائدة فى باقى شواطىء المتوسط غير ان كثيرا من شعوب المتوسط انفعلوا للتأثيرات الخارجية بينما ظل المغاربة على نظامهم القديم قرونا متطاولة فكان احتلال الاجانب للمغرب يمر غالبا دون ان يترك اثرا ادبيا فى نفوس القبائل المغربية وقد خلفت الحضارة القرطاجنية بعض التأثيرات ولكن الفتح الاسلامى هو الذى استطاع وحده بفضل عوامله الروحية سبر الاغوار وقلب جوهر الاوضاع وطبع عناصر هذا الشعب التى كانت متفرقة

بطابع الوحدة الدينية والفكرية .

ولنضرب مثلا لعوامل الحياة فى الأطلس الذى كان ولا يزال قلب المغرب العربى النابض فالاطلس يشغل مساحة شاسعة من التراب المغربى ويمتد تاثيره بصورة غير مباشرة الى ما وراء المنطقة الجبلية ومن الصعب حصر حدود هذه الجبال وقد اصطلح على تقسيمها الى ثلاث سلاسل :

1) — الاطلس الاكبر الذى يمتد من ساحل المحيط الى الهضاب الواقعة جنوبى المغرب الشرقى .

2) — الاطلس الاوسط الذى ينفصل عن الاكبر فى ناحية تساوت ويمتد الى تـازا .

3) — الاطلس الاصغر الذى يرتبط بزميله بواسطة جبل سارو البركانـى وصخور هذا القسم من الاطلس عريقة فى القدم من الوجهة الجيولوجية وهو أشبه بالنجود الصحراوية منه بجبال المتوسط.

وقد شبهت سلسلة الاطلس بسد شاهق لان الاتصال بين السهل المراكشى البالغ ارتفاعه تسعمائة متر والاطلس الكبير البالغة اعلى قننه 200 4 متر (توبكال) هو اتصال مباشر لا تدرج فيه كما هى العادة وكذلك الاطلس الاوسط الذى يشرف على تادلة وجبال بنى ملال .

وقد نخرت الانهار والسيول القلل المتوسطة الارتفاع حيث يكاد يستوى سطح الجبل وهذا بخلاف ما يلاحظ فى الاطلس الكبير بناحية مراكش حيث تظهر القنن فى شكل دقيق حاد ولكن فى الاحواض العليا لام الربيع ووادى بهت وأبى رقراق تكثر السطوح المستوية الاديم التى تتخللها وهدات سحيقة تعلو جوانبها قنن حداد مثال ذلك بلاد زيان بغرب ام الربيع .

والمنظر فى الاطلس ثقيل لارتفاع الجبال ولكن الاودية التى تحاذى هذه الجبال اما فى شكل عمودى أو مواز تحدث شيئا من الانفراج وهنا تتوافر المراكز والمجتمعات البشرية بسبب وفرة الممرات الممتدة فى عرض الجبال كممر رصيفة فى الاطلس الاوسط وزيز بشرق الاطلس الكبير والممرات الثلاثة الشهيرة بغرب الاطلس الكبير وهى ممر معاشو بمتوكة وتست بكندافة وتلوات بكلاوة وفى هذه الممرات تتجه الطرق نحو مراكش .

ان الحياة فى داخل الاطلس الكبير تتميز فى القمم الشاهقة الخالية من السكان — عنها فى الاودية التى تتوافر فيها عوامل الثراء .

والسبب فى قلة السكان فى القمم العالية هو كثرة الثلوج فى الشتاء وتخلل ذلك بالزوابع العاصفة ثم الجفاف اللافح زد على ذلك ان صلابة الصخور البركانية فى غربى الاطلس الكبير وقابلية التخلل فى المساحات الجيرية بشرقى الاطلس يحولان

دون تطور المراعى ومسارح السوائم ولا يستثنى من ذلك الا الهضاب الحمراء فى متوكة وكلاوة حيث تتمخض الرطوبة عن مرعى خصيب يحصد اعشابه سكان النواحى المجاورة فى اوائل الصيف ولكن الكلأ فى الجبال ليس سوى مورد اضافى لذلك تتركز الحياة فى الاودية على ان هناك فرقا بينا بين شقى الاطلس الكبير الذين يفصلهما حوض تساوت : فسكان الناحية الغربية فلاحون ومزارعون لهم عناية باشجار بينما سكان الشرق ينتجعون كلأ الجبال فى الصيف وهم فى ذلك اشبه بسكان الاطلس المتوسط .

وكل هذه الاودية ميدان للحقول المتدرجة والزروع التى تنتشر بفضل السقى ويتطلب حفر السواقى مجهودات جبارة يتغلب عليها السكان بما جبلوا عليه من مثابرة وحيوية ولكن كثيرا ما تكون منابع هذه السواقى محصورة وراء حاجز واد ينهار فيجرف سيله بالدسكرة الواقعة تحته وتنتج هذه الحقول المندرجة في المنحدرات القمح والشعير والخضر (البصل والبطاطس واللفت) تتخللها ازهار منوعة وينبت الخرطال احيانا بدون سقي ولكن الذرة هي محور الاقتصاد ففى شهر اكتوبر تحصد السنابل وتترك الحقول للسوائم تمرح فيها وتكثر كذلك اشجار الفواكه كالبرتقال والكروم والزيتون والرمان واللوز والجوز (فى الاودية العالية) ويتنوع الانتاج خاصة فى المنحدرات المقابلة للصحراء واشد ما يدهشك فى فصل الربيع خضرة الحقول والجنان فى قلب الوادى المتنافية مع المنحدرات الجرداء اما الدور فان فيها طابقا يصعد اليه بدرج بسيطة لا تتعدى احيانا خشبة مشققة وتوجد فى الطابق غالبا غرف كثيرة ودهليز لحفظ الحبوب وتتلاحق هذه الدور فى علو متدرج حتى يصير سقف هذه عتبة لتلك وما أكثر هذه النماذج فى شيشاوة ونفيس (كندافة) ووريكة وتساوت ولكن علاوة على هذه الدور توجد قصبات محصنة يسكنها الشيوخ والقواد ونوع اخر يسمى تغرمت وهو عبارة عن عمارة مربعة بداخلها ساحة وبجوانبها باب ومنافذ ضيقة وبكل ركن برج للحراسة وكثيرا ما يقطن عدة عائلات فى (تغرمت) واحد وهذا النوع متوافر فى حوض وادى العبيد وايت شخمان ونتيفة حيث يتكون «المدشر» من مجموعة هذه الدور غير ان العائلات المتواضعة تقطن فى دور وطيئة لا طابق فيها ولا ابراج (تدارت وامزير) .

ويتوافر لدى أغنياء هذه الاودية عزائب فى الجبل ينقلون اليها سوائمهم خلال فصل الصيف والعزيب عبارة عن ساحة محاطة بجدار من الحجارة تستعمل كحظيرة للقطعان ويبنى الراعى فى جانب منها نوالة ولكن فى بعض الاماكن يكون العزيب بمثابة دار حقيقية تمتد حولها المزروعات الصيفية .

ويلاحظ ان النواحى التى يوجد فيها الجير فى الاطلس الكبير تغلب فيها تربية الماشية على الزراعة .

ويختلف الاطلس الاوسط عن الاطلس الاكبر وعن الريف معا فهو أقل ارتفاعا من الاول واقل تشققا من الثانى وهو يحتوى على اخصب المراعى المغربية ففى

هضابه يكثر النبات نظرا لوفرة الامطار وطول مدة الثلوج وارتياد العواصف التى تحد من جفاف المصيف وفى منحدراته اجمات تتوافر فيها مسارح السوائم وقد جعلت كثرة الامطار وخصب الارض من بلاد زيان مراعى يتدفق الكلأ من جوانبها ولكن المنحدرات المتجهة نحو الملوية قليلة الخصب وهى فى ذلك متعارضة مع المنحدرات المتجهة صوب المحيط الاطلسى حيث الخضرة الدافقة وابرز نموذج للخصب هى ناحية ولماس كما ان ابرز مثال للاجداب هى تمحاضيت ولكن فى الصيف يكون الماء والعشب اقل فى الهضاب الغربية منه فى أودية القمم العليا .

ويكسو الثلج القنن التى يزيد علوها على الفى متر طوال شهرين(من متم دجنبر الى نهاية ابريل) بحيث يستحيل المرور والجولان فى تلك النواحى ويتعذر على قطعان الماشية الغذاء وبالاخص الشياه التى تتضرر ضررا فاحشا ويقسو فصل الشتاء احيانا فيودى بحياة الكثير من الغنم حتى يضطر الناس للجوء الى النواحى القليلة الارتفاع التى تحاذى الاطلس الاوسط .

وتختلف حياة هذه القبائل الجبلية بل وحتى امكنة استقرارها باختلاف احوال الطقس فبنو وراين مثلا يضطرون الى النزول من اعالى الجبال الى سهول ملولو وهذه الحركة قديمة لان الناس يهجرون النواحى القاحلة فى الجنوب الشرقى الى النواحى المحظوظة التى تكثر فيها الرطوبة بالشمال الغربى كما نجد قبائل زيان ترتاد الجبال فى المصيف انتجاعا للمرعى وتنزل الى السهول فى فصل الشتاء المزراعة الشتوية وتصعد فى الصيف الى الجبال لفلح الذرة التى تحتاج الى الرى وهكذا ترتحل قبائل وادى العبيد بماشيتها الى قمم الجبال واهم المدن فى هذه النواحى مدينة خنيفرة ويلاحظ ان البراكين قد لعبت دورا مهما حيث احالت اودية الى سهول داخلية يجمع ترابها بين الحرارة والخصب وسهولة الرى ويطفح بالزروع وبالاخص منها الذرة من ذلك صعيد وادى بهت وصعيد سبو وصعيد ام الربيع .

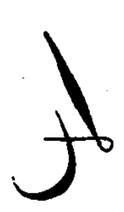
ولا اثر فى هذه النواحى للتوابل التى تكثر خاصة بسهول المحيط الاطلسى والغالب على الناس ان لهم دارا بالقرب من حقولهم الزراعية وعدة خيام يتنقلون بها مع قطعانهم الى حيث يطيب لهم المقام وحتى ذلك النوع الغالب من الدور متنوع حسب الجهات فهنالك بعض «المداشر» تشبه دورها ما نجده فى الاطلس الاكبر (طابق فوق القسم الارضى وسطح ودهليز مكشوف ودور متلاحقة متدرجة) ولكن ما اكثر الدور الواسعة الوطيئة التى يوجد فى سطحها المنبسط ثقب هو عبارة عن مدخنة وتغلب القصور بالاخص فى تاماغت ومرموشة وهى كناية عن دور محصنة انتقل استعمالها من الصحراء الى الملوية ولكن يوجد نوع من الدور ينفرد به الاطلس الاوسط وهو البناء المحصن الشامل الذى ينفذ اليه من باب واحدة تنفتح وسط ساحة داخلية اشبه بالنوع المسمى بتغرمت ولكنه وطىء بالنسبة اليه عارية اركانه الاربعة عن الابراج مسقف بالخشب الذى يغطى حتى بعض جدرانه المتجهة صوب ناحية المطر

وقلما يسكن الناس فى اوربا الجبال لانهم يفضلون السهول والبسائط حيث

الخصب والثراء ورقة المناخ وسهولة المسالك بخلاف ما فى المغرب مـع استثناء المناطق العليا البالغة 800 I متر فى الشمال و 400 2 متر فـى الجنوب فالمواطـن البشرية فى هذه المنطقة قليلة رغم عدم وجود ثلوج دائمة غير ان الشتاء قارس البرد قاسى الثلج والصيف جاف خانق ومع ذلك فهذه الجبال تلعب دورا مهما فى حياة القبائل لان فى سفوحها تتجمع المياه التى يتمخض عنها الثلج الذائب .

ولا توجد فى الجبال مساحات تتسع جوانبها للزراعة الكافية فقبائل الريف والاطلس تشترى قسطا من الحبوب التى تستهلكها من قبائل سبو والبطاح المجاورة ولكن الزراعات التى تحتـاج الى الرى كالذرة والفواكه تجد فى متوسـط القمم ما يساعدها على التفتق والازدهار وفى العروض الشاهقة مسارح ومراع للقطعان وهكذا تمتاز الجبال المغربية ـ وبالاخص سفوحها ووديانها ـ بتناسـق مظاهـر ثلاثة جوهرية فى النشاط الفلاحى هى الزروع والاشجار والسوائم علاوة على توافر الغابات التى تجد فى المناطق العليا مأمنا يقيها الطوارىء والتقلبات .

ويمتاز المناخ الجبلى بانعدام الرطوبة وكذلك شدة حرارة السهول الداخلية



الفصل الاول

المغرب بين الشرق والغرب

شرقية الحضارة المغربية

الحضارة فى مدلولها العام ومعناها العالى تستلزم طائفة من العناصر ابرزها شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسى وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمناعة والوفرة والامن والنظام والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصبغة التى تصطبغ بها فهنالك حضارات يطغى فيها الجانب المادى على الجانب الروحى اى تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة وتلك سمة يغلب وجودها فى الحضارات الاروبية بخلاف الحضارات الشرقية التى تضم الى جانب هيكلها المادى مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء فى ميدان الفلسفة ام الاقتصاد ام الاجتماع وغير خاف ان أقدم الحضارات فى العالم هى الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية واشورية وكلدانية وفينيقية وفارسية ولهذه الحضارات الاسوية تراث فكرى ومادى كان ولا يزال من اجل دعائم الحضارة الغربية الارية واقول مادى لان كثيرا من الاختراعات البدائية قد استمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة

ان من تتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهى امكان رد معظم هذه المقومات الى المدنية الشرقية ففى الفلسفة وفى العلوم وفى الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة فى كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التى تبناها عصر الانبعاث فى اوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

ومن اهم المصادر التى يمكن الاعتماد عليها علاوة على مصنفات التاريخ مصنفات الجغرافيين العرب وكتب الرحلات غير ان هذه الوثائق لا تعطينا فى الغالب فكرة عما قبل القرن الثالث الهجرى الذى ترجع اليه اقدم وثيقة فى هذا الباب . ويطول بنا العرض اذا نحن حاولنا استقراء مظاهر المدنية الشرقية العتيقة التى تبناها الغربيون لذلك سنقتصر على نماذج مبعثرة من مختلف الحضارات والعصور نستقيها من الرحلات وكتب التاريخ العربية والاجنبية .

وقد اعتنى العرب بتدوين اخبار الامم ولم يحل تنائى المسافات وبدائية وسائل النقل دون زياراتهم المتوالية الى شتى الاقطار فهذا سلام الترجمان رحل الى الصين الشمالية ايام الواثق وابن وهب القرشى رحل كذلك الى الصين عام 356 وزار الخليج الصينى قبله سليمان العراقى الذى كتب رحلته عام 237 وهو اول رحالة عربى اشار الى وجود الشاى فى الصين ثم زار الصين عام 331 الرحالة ابو دلف وهذا ابن فضلان طاف البلاد البلغارية عام 309 فى بعثة ارسلها المقتدر بالله الى ملك البلغار بعد أن اسلم وزارها بعده ابو حميد الغرناطى عام 530 .

ثم تضخم اواخر القرن الثالث واوائل الرابع الرحالون الجغرافيون كالاصطخرى والمسعودى وابن حوقل والمقدسى فكتبوا الشىء الكثير عن المدنيات القديمة التى اتصلوا ببقاياها كما سجلوا مظاهر الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مختلف البلاد العربية ومن هؤلاء ناصر خسرو الذى وصف الحالة الاجتماعية بمصر فى رحلة تعتبر مصدرا اساسيا لدراسة الحضارة فى الشرق الاسلامى فى القرن الخامس وقد أكد لنا أن أجور العمال كانت مرضية وان الاثمان التجارية كانت محددة (على غرار الاساليب العصرية) وان البائعين كانوا ياخذون على انفسهم - مثل الدور التجارية الكبرى فى عصرنا - اعطاء الزجاج والاوانى الخزفية والورق لوضع أولف المبيعات وكان العرب يستعملون الحوالات البنكية منذ القرن الخامس مع ان هذا النوع من وسائل المعاملة لم ينتشر فى اوربا على نسق كامل الا حوالى القرن السابع عشر بينما كان راود اسواق البصرة منذ ثمانية قرون يودعون اموالهم عند اصحاب المصارف وياخذون منهم اقرارات باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه صكوكا أو اذنا بقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . ويزعم بعض علماء الآثار ان المقابر الاثرية الفرعونية لم تعرف جيدا الا بعد دخول نابليون الى الكنانة مع ان ما خلفه لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى الطبيب الفيلسوف عن المقابر الاثرية لا يختلف كثيرا عما وصلت اليه الحقائق العلمية فى العصر الحاضر .

وما دمنا نستعرض مظاهر التقدم الاجتماعى فى الشرق العربى يجب أن نشير الى اساليب التجهيز الاجتماعى وغير الاجتماعى فى البلدان العربية فى القرن السابع والثامن فقد كتب ابن بطوطة المغربى وصفا مقتضبا لما شاهده فى دمشق حيث توافرت الملاجىء والهيآت الخيرية فكانت هناك اوقاف لتجهيز الفتيات المعوزات الى ازواجهن واخرى لفكاك الاسرى واخرى لابناء السبيل واوقاف لتعديل الطرق ورصفها لان ازقة دمشق كان لكل منها رصيفان فى جنبيها يمر عليها الراجلون ويمر الركبان بين ذلك وكان بدمشق ايضا وقف الاوانى المتكسرة وهو شبيه بالوقف المغربى الذى كان مرصودا لنفس الغاية الا ان المغرب كانت به علاوة على بعض ما ذكر انواع اخرى من الاوقاف هى غاية فى الغرابة مثل الاوقاف المحبسة لاطعام الطيور .

ومن ابدع ما حدثنا عنه ابن بطوطة فى ميدان الصناعة الرقيقة ان بعلبك كانت تصنع ملاعق وصحافا يتداخل بعضها فى جوف بعض الى ان تبلغ العشر وكانت

عشاريات الملاعق تغشى فى خرز من جلد وقاية لها ، وقد تاسست فى بعض انحاء الشرق اذ ذاك جماعات اشتراكية اسمى من تلك التى حدثنا عنها رجال الاقتصاد فى القرن السابع عشر باوربا فقد كانت بالاناضول جماعات الاخوان او الفتيان تتركب من عزاب يعيشون على مائدة واحدة ويتعاونون على البر واكرام الضيف والغناء والرقص واللهو البرىء ويتصل نظامهم بنظام الفتوة فى الاسلام .

ولا يخفى ان العرب اكتشفوا امريكا قبل كولمب وانهم سبقوا سائر الامم الى معرفة تيار الخليج Gulf-Stream الحارفى المحيط الاطلسى والى حركته من المكسيك الى ارلنـــده .

وكان نجم الحضارة الصينية في طور الافول عند ما زار ابن بطوطة انحاء الصين ومع ذلك فقد حدثنا عن اشياء لم تعرفها الحضارة الغربية بكيفية واسعة الا منذ قرنين فقد كان الصينيون يستعملون الاوراق البنكية بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان فاذا تمزقت حملوها الى دار السكة ليأخذوا عوضها وقد طبع التتر كذلك اوراقا بنكية وهم اول من ضرب النقود على مقاييس معينة ليتعامل الناس بها عدا لا وزنا ، وكان العامل او الصانع يعفى من الشغل وتنفق عليه الحكومة اذا بلغ الخمسين وهو مظهر قوى للضمان الاجتماعى يستغرب وجوده فى ذلك العصر .

وقد اورد ابن بطوطة مثالا آخر لعظمة الجهاز الصناعى فذكر أنه رأى 13 مركبا يحتوى كل منها على اربع طبقات يسكن فيها البحارة مع اسرهم ويزرعون الخضر والبقول فى احواض من خشب .

وفى الوقت الذى كان كثير من الاوربيين يعتبرون الاستحمام شيئا ثانويا كان ببغداد عاصمة الخلافة وحدها فى عهدى الرشيد والامين ستون الفا من الحمامات على ما ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخه ؟ وقد وقف ابن جبير فى القرن السادس على الفين من الحمامات فى بغداد قد طليت سطوحها بالقار وهذا النوع من المغتسلات الحارة هو من الاشياء التى اخذها المشارقة عن الرومان .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلى وطبقا لمؤثرات تتفاعل من اجل وسمها بطابع خاص .

فما هى وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالميـــة ؟ ومـا هى منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التى توالت على المغرب قبل الفتح الاسلامى ؟ وما هى علاقة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربية فى عدوتـى المغـرب والانـدلس ؟

ان العرب لما فتحوا افريقية والمغرب وجدوا الحضارات التى توالت على البلاد قد عفى عليها تناحر الامم التى تنازعت السلطة فى المغرب قبل دخول الاسلام اليه

فالحضارة القرطاجنية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاجنة واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضهـا شيئا جديدا ما لبث الوندال ان استأصلوه بدورهم ولكن لم يلبثوا فى المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم ما ارتكبوه هم فى الرومان وما ارتكبه الرومان فى القرطاجنيين وقـد ذكـر المؤرخون انه لم تمض ستة أشهر على انتصاب الروم حتى عفـوا على آثار الونـدال بالبلاد وخرج المغرب من سلسلة الاحتلالات الاجنبية صفر اليد خاوى الوفاض منهوك القوى ووجد سكان البلاد وهم البربـر أنفسهم كما كانوا أول مرة بدائيين فى حضارتهم وقد اكد الاستاذ الفريد بيل فى كتابه (ديانة الاسلام فى بلاد البربر) (ص 64) ان مما لوحظ كون لغة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الرومانى والقرطاجنى ـ قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى أساليبهم الوحشية مما يدلنا على ان البربر لم يستفيدوا قلامة ظفر من حضارة قرطاجنة ولا رومة ولعل الاستاذ بيل نسى ان يقول بان الشىء الذى ظل متغلغلا فى روح كثير من البرابرة هو اللغة البونيكية التى كانت قريبة من العربية والتى امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب ابناء البربر من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ ام كانوا مغمورين فى بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شىء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية وجاء برابرة الاطلس المغربى على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعى وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذى كان ملحوظا بين عادات العرب والبربر والذى كـان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية وقد اخترع البربر احرفا هجائية فى الوقت الذى اخترع الكنعانيون احرفا خاصة بهم والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعند ما انكسف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر فـى تيـار حضارتهم الشرقية الاصلية التى تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلت فى الاعماق كانوا ـ كالعرب ـ يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو (ميول وعواطف واحدة ومبادىء متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واكرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التمازج الا قوة وعمقا فتكونت مع الزمان مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر فى

بوتقتها تراثان كلاهما شرقى الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص.

وهنا تظهر حيوية الاسلام فى افريقيا الشمالية بالخصوص تلك الحيوية التى اقر بها الفريدبيل كما اقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون فالاسلام هو الذى استطاع وحده ان يخلق فى هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم سموهما واعنى بالحضارة الحق حضارة ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشيء قد اوجده الاسلام الذى انضوى المغرب تحت رايته طيلة اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة وتطورت بجانبها حضارة اخرى - هى حضارة الاندلس - استمدت روحها من تراث الشرق الذى نقله الفاتحون والمهاجرون واضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتدا الى الاعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر فى تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكرى ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية شرقيتين بعد ان تفاعلتا نحوا من ثلاثة قرون اى منذ عهد المرابطين الى عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتى مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هى المنوال الذى حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الاسلام ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقى والمغربى اسلوبا ونزعة وروحا لاحظ وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها الى مقتضيات اللون المحلى .

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية ليس فيها اى اثر يذكر للحضارة اللاتينيه التى قدر لها ان تمر مر السحاب فى هذه البلاد .

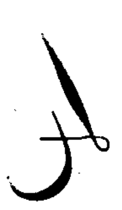
والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة اى شرقية المبنى عربية المعنى وقد تناوبت عواصم العدوتين وبالاخص مدينتا فاس وقرطبة مع عواصم الشرق فى حمل راية الحضارة العربية الاسلامية فى العالم ايام كان الجهل مخيما بكلكله الثقيل على اوربا فكانت فاس مركزا للاشعاع الفكرى والروحى يستمد من نبراسه المشارقة والاوروبيون كما هو معلوم عند من له ادنى المام بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل فى كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة فى بناء صرحه كالشريف الادريسى (استاذ اوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته والحاتمى باشراقياته وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه وابن الخطيب بادبياته ونكاته (التى يبذ بها الجاحظ فى كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية وابن طفيل بنظرياته فى الفلسفة الفطرية .

وقد كان فى المغرب علماء حملوا مشعل السلفية الحق على غرار ابن تيمية أو ابن القيم فى مصر والشام والشوكانى فى اليمن ومن اولئك العلماء المهدى بن تومرت وابن العربى المعافرى والشيخ زروق والامامان المازرى والطرطوشى .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا امة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية فى جوهرها ومقوماتها .

وهى حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التى تتكون الحضارة من بعضها فضلا عـن مجموعها .



الفصل الثاني

وحدة الحضارتين المغربية والاندلسية

عاش المغرب والاندلس متحدين اتحادا سياسيا نسبيا نحوا من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وقد تم الانصهار والتمازج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة فكانت الوفود الاندلسية تترى على مراكش عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية فى عهد المرينيين وكان افراد الشعب المغربى الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدوة الشمالية يتصلون بالعناصر الاندلسية ويقتبسون منها كثيرا من الاشياء فكريا واجتماعيا على ان هذا الاقتباس لم يكن واسع النطاق لكون معظم العناصر التى كانت تجوز اذ ذاك الى العدوة بدوية من سكان الاطلس لم تتهذب لديها بعد حواشى الحياة والمتطوعون الحضريون كانوا قليلين فى القرون الاولى واستمر الاحتكاك الفطرى عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة وأطباء أفذاذ كابن طفيل وابن رشد وبنى زهر (I) ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجرى الذى شهد سقوط معظم العواصم الاندلسية فى قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال فى حياة المغرب الناعمة وقد توالى سيل المهاجرين الاندلسيين ايام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندلسية التى طبعت اذ ذاك الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية بطابع الفخامة والرقة ولم يكد يقع النفى العام بالاندلس حتى غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطاون وسلا بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليافىصهر الحضارتين صهراطبعهمامنذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما الى ينبوعه فى كثير من الاحايين .

والعادة فى مثل هذه الحالة ان يرجع الانسان الى اقدم المصادر التاريخيـة وأوثقها بالنسبة للبلدين فيحقق وجود هذا المظهر أو ذاك وهذه العادة أو تلك ولكن الشيء الذى يجعل المقارنة والتنظير متعذرين ان لم نقل مستحيلين هو كون المصادر

(I) راجع كتابنا حول تاريخ الطب والاطباء حيث توجد نماذج شتى للتبادل العلمى بين العدوتين خلال ثلاثة قرون .

المغربية لا تهتم كثيرا بالجانب الاجتماعى فى التاريخ بل تقتصر عنايتها على الوقائع العسكرية ولم تلم بالاجتماعيات ولابالفكريات نفسها الا الماما بخلاف المصادرالاندلسية التى افاضت فى وصف المجتمع العربى فى قرطبة واشبيلية وغرناطة وصفا دقيقا ولا اعنى بالمصادر الاندلسية المصادر العربية وحدها فمعظم هذه قد ضاع فى ثنايا النكبات التى منيت بها الاندلس حيث احرق الاسبان نحو الثمانين الف مخطوط عربى ولكننى اقصد أيضا تلك الصفحات الناصعة التى كتبها عن المجتمع الاندلسى امثال الدكتور لى ولين بول ولورنتى وبريسكوت ودوزى وغيرهم . وما كتبه الاجانب عن المغرب قليل جدا اذا قيس بما كتبوه عن الاندلس ومع ذلك فاننا نجد فى ذلك الحظ النادر الذى ناب المغرب من عناية الكتاب والرحالين الاروبيين كثيرا من الاشياء لم يكن وجودها بالمغرب فى عهد من العهود يخطر على بال المغاربة لان مؤرخى المغرب لم يتعرضوا لها بالمرة او تعرضت لها مصادر فقدت منذ زمان .

ويتجلى الطابع الاندلسى خاصة فى تطاون وفاس فى ميدان التجارة والاقتصاد والموسيقى وفى سلا فى مناهج واساليب الفلاحة ففى كل من فاس وتطاون نلاحظ الى اليوم وجود اعراف ومظاهر واتجاهات يرجع اصلها الى المهاجرين الاندلسيين الذين وصفهم سرفانتيس فى بعض رسائله بالاقتصاد فى الانفاق واكتناز المال واحتكار تجارة الاغذية فى الاندلس حيث كانوا يضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها وذكر الدكتور لى أنه كان منهم تجار البقالة والماشية والقصابون والخبازون واصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال اموالهم فكان ذلك من اسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية ولا تزال ظاهرة اندلسية بارزة فى اخلاق التطوانيين والسلاويين وهى استمساكهم بتراثهم لا سيما منه الحقول والجنان بحيث لا يفوتونها على نسق غيرهم .

ومن العادات الاقتصادية التى عرفت بالاندلس ولا ندرى هل جرى العمل بها فى المغرب أم لا وجوب تسجيل الاثمان فى بطاقة وتعليقها على البضائع المعروضة للبيع (النفح ج ١ ص 134) .

والعنصرة عيد فلاحى كان الاندلسيون يحتفلون به يوم 24 يونيه من كل عام ولا يزال المغاربة يحتفلون به الآن لا سيما فى المراكز الفلاحية كمدينة سلا التى كانت الى عهد غير بعيد تنهج خطة معقدة فى الاحتفال بهذا اليوم وهنالك كثير من العادات والاساليب اقتبسها الفلاحون المغاربة من اخوانهم الاندلسيين فقد ذكر ابن غالب فى فرحة الانفس ان أهل الاندلس لما جلوا عن البلاد الى المغرب الاقصى مال اهل البادية فى البوادى الى ما اعتادوه وداخلوا اهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وكذلك رجال الصنائع والاساليب المعمارية نفسها اتخذت فى المغرب شكلها النهائى البديع ايام بنى عبد المومن الذين كانوا يجلبون صناع الاندلس وقد انتقل هذا الفن من مراكش الى تونس التى هى

مركز رابع فى افريقيا الشمالية صبغته التفاعلات بطابع اندلسى رائق وقد اكد المؤرخ الاندلسى ابن سعيد ان ذلك الانتقال كان على يد سلطان العاصمة الخضراء أبى زكرياء الحفصى .

وكان فن الاحصائيات العمرانية متقدما فى فاس حيث احتفظت لنا كتب التاريخ باحصاء رسمى لدور فاس ومعاهدها ومصانعها ايام المنصور والناصر على غرار ذلك الاحصاء الذى خلفه لنا المنصور ابن ابى عامر عن قرطبة وضاحيتها

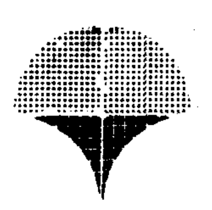
أما ما يتعلق باللباس والزى فهناك تبادل قوى بين العدوتين ونضرب لهذا أمثلة بسيطة قد لا ينتبه الكثير اليها بل لم يشر اليها احد من المؤرخين فيما نعلم ، فسكان الحواضر المغربية لا سيما فاس والرباط وتطاون يلبسون قلانس حمراء محاطة بعمامة تتوسطها « شوشة » زرقاء ولا شك ان هذا النوع من اللباس قد جاء به الى المغرب المهاجرون الاندلسيون على اثر النفى العام لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة فى الاندلس قبل عهود المحنة الاخيرة حيث اجبر الاسبان العرب المتنصرين على التميز بشارة زرقاء يجعلونها على قلانسهم وقد اضيفت الى القلنسوة (والشوشة) الاندلسيتين العمامة المغربية وتوغل هذا الثالوث فى الازياء الاستقراطية الى السنوات الاخيرة

ولباس البياض فى مناسبات وفصول خاصة عادة اندلسية ايضا فقد كان الاندلسيون يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان أى يوم العنصرة الكائن (فى ست بقين فى شهر يونيو) فيلبسونه حسب رواية المقرى (النفح) ج 2 ص 752) الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية ولا يزال كثير من المغاربة يتبعون هذه العادة التى يظهر انها دخلت من الاندلس الى الربوع الاوربية حيث يغلب نفس البياض فى فصل الصيف .

وتقصير الشعر على النمط الحديث عادة طريفة ادخلها المغنى زرياب الى الاندلس فقد كان الاندلسيون ـ رجالا ونساء ـ يرسلون جمتهم مفروقة وسط الجبين عامة للصدغين والحاجبين فقضت (موضة) زرياب بتقصير الشعر دون الجباه وتدويره الى الآذان واسداله الى الاصداغ والظاهر أن هذه العادة لم تتركز فى المغرب الذى ظل العنصر العربى فيه متاثرا بعادة العنصر البربرى القاضية بالحلق الكلى بحيث لم يكن (يوفر) الا الاشراف وبعض العلماء والزهاد والصوفية ولكن على نسق شرقى قديم وقد تاثرت الحالة الفكرية بالمغرب تاثرا بليغا بالنهضة الثقافية الاندلسية ويقال ان المباريات الشعرية كانت تنظم باسواق فاس اخر ايام المرينيين حسبما شهد بذلك رحالة اجنبى زار المغرب فى ذلك العهد وكان هذا النوع من المباريات شيئا مالوفا معتادا فى البلاد الاندلسية وقد ورد فى عدة مصادر تاريخية ان كتب الادب الاصلية انما نقلها الى الاندلس ومنها الى المغرب رجال الفكر الاندلسيون ـ ولعل هنالك جانبا رواه المغاربة عن المشارقة راسا وهو الحديث

والفقه ـ وقد تاثر الفقهاء المغاربة بالاسلوب العراقى فى البحث فكانوا يتخذون المدونة اساسا ويبنون عليها فصول المذهب بالادلة والقياس وكانت مدينة القيروان تمتاز بأسلوب خاص قوامه البحث عن الفاظ وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات واستعراض وجوه الاحتمالات .. وتتبع الاثار وترتيب اساليب الاخبار بينما كانت تغلب على اهل الاندلس فيقهة البلاغة فى حسن رصف الكلام وانتقائه على أنه وجد بين المغاربة من انتهت اليهم صناعة التاليف فى العالم الاسلامى كابن البنا المراكشى .

وهكذا فلم تكـد تنصرم القرون الوسطى ويبزغ فجر العصور الحديثة حتى تولدت عن تفاعلات حضارتى العدوتين حضارة موحدة تطبعها روح واحدة سداها التراث الشرقى الرصين ولحمتها عروبة متاصلة وتقاليد اسلامية مع الوان محلية براقة تجمع بين طرافة المظهر ومتانة المخبر



الفصل الثالث

رسالة الحضارة المغربية في افريقيا وحوض المتوسط

يحتل المغرب موقعا ممتازا فى القارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة ولكن هذا الوضع المحظوظ فى قلب العالم الغربى لم يفت فى اعضاد روح المغرب الشرقية التى عزتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمهما النهائى .

ان المغرب الذى يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب .

ويقبض المغرب ـ بفضل طنجة التى كانت عاصمته الدبلوماسية ـ على مقاليد غربى المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقى ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة فى الوضع الدولى الراهن لابد أن يلعبا دورا مهما فى حوض المتوسط الذى لا يمكن ان يتم فيه شيء بدون مساهمة ـ ترتكز على المساواة والسيادة ـ من طرف جميع الاقطار العربية التى تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكار الغربية قبل اليوم .

هذا وقد تبلورت رسالة المغرب الافريقية فى اشعاع بلغ تخوم النيجر جنوبا والنيل شرقا فقد شملت الامبراطورية المغربية منذ ايام المرابطين عاصمة الجزائر وامتد حكم الموحدين من قشتالة الى طرابلس الغرب محققا وحدة الاسلام للمرة الاولى فى الربوع الغربية ثم تركز نفوذ بنى مرين الادبى فيما بعد فى مصر وانبسط الحكم المغربى فى السودان الغربى الذى عاش تحت ظل الدولة المغربية على عهد الشرفاء بواسطة عمال من الباشوات الى عام 1893 م .

وبالجملة فقد كان المغرب محور ومصدر حيوية الامبراطورية التى قامت بالربوع الافريقية الغربية وهذه الرسالة التى اضطلع بها المغرب الى عهد قريب كانت حقيقة قارة لا سيما وانه لم تعد هناك دولة عربية مستقلة فى افريقيا غير المغرب بعد عام 1250 م حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك (راجع كتاب «العبقرية العربية» لماكس فانتيجو) فالمغرب هو الدولة الافريقية الوحيدة التى امكنها ان تغالب الصعاب

التى انبثقت فى طريق تطورها والتى عرفت كيف تحتفظ منذ الفتح العربى بوحدة كيانها وباستقلالها . وهنالك ظاهرة فذة فى حوليات الامم الفتية وهى ان المغرب تمكن من توطيد وحدته السياسية حتى فى بحبوحة الفوضى (ليفى بروفنصـال)

وترجع تقاليد المغرب وطابعه الشرقى الى عهود عريقة فى القدم فقد انهالت على المغرب منذ نحو الفين من السنين موجة من المهاجرين العرب انحدرت اليه من فلسطين فكانت نواة هامة فى مجتمعه ثم جاء الفينقيون العرب من غربى سواحل سوريا القديمة فعززوا وشائج العروبة بعالم مازيغ الذى وجد حتى فى اللغة البونيقية ذكريات لهجته العربية العتيقة ولعل هذا هو سبب نجاح البونيقية التى تغلغلت فى انحاء افريقيا الشمالية نحوا من سبعة قرون غب انهيار المراكز الفينيقية الساحلية ولم يزد الفتح الرومانى هذه الرابطة الا قوة لان امراء البربر تقبلوا بصدر رحب الفلول القرطاجنية وما حملت معها من حضارة وكتب وأساليب فنية (مالية وفلاحية) .

فلغة قرطاجنة عربية منحرفة ولفظة قرطاجنة نفسها معناها القرية الحديثة (قرية حداش) ولكنها استحالت ـ على طريقة التعطيش اللاتينية ـ كما قال توفيق المدنى ـ الى قرطاش وقد ذهب بعض المؤرخين الى حد القول بان اللغة البونيقية مهدت السبيل للغة العربية ومهما يكن فقد اثبت البحث الدقيق ان اللهجات البربرية تتضمن فى قاموسها التقليدى بضعة الاف من الكلمات العربية القحة التى تمثل الجانب الحيوى فيها مما يدل على عراقتها وتغلغل اثرها فى شتى مناحى الحياة .

ولسنا فى حاجة الى أن نرجع للعهد الجاهلى لابراز الطابع الشرقى فى المغرب اذ يكفى ان نلاحظ مع ميشو بيلير أنه (عندما حمل عقبة بن نافع الاسلام الى المغرب للمرة الاولى تقبل السكان الدين الجديد كعنصر خلاص) وتحمسوا للفاتحين العرب فاعتبروهم محررين ذلك ان القادة العرب كانوا متاهلين لتفهم عالم امازيغ الذى لم تكن شكليته الاجتماعية وجهازه الاقتصادى يتنافيان مع حياة اعراب البادية على أن البرابرة وجدوا فى الاسلام المرن السمح البسيط حوافز الوحدة آلتى حالت دونها فيما قبل عنصرية جهوية وعصبية قبلية هناك انبثق تيار جديد فاعاد الماء الى مجراه بين عالمين توأمين ولم يكد المغرب يتلقى العناصر الاولى للحضارة الشرقية التى نفحتها العبقرية العربية بروح جديدة حتى انصهر المغرب والشرق انصهارا نهائيا ما زالت رواسبه حية فى القلوب منذ ثلاثة عشر قرنا بل لا تزيد مع توالى السنين الا رسوخا وتغلغلا فالمغرب الذى جرفت به حضارات شتى قد وجد اخيرا فى مدنية العرب ولغتهم امثولته الخالدة وقد تجلت فاس منذ الف سنة خلت بمثابة صورة حية لعواصم الاسلام فكانت ـ كما يقول كوتيى ـ معجزة فى الاقتباس من الشرق وما لبث الموحدون (البرابرة) ان طبعوا الحياة المغربية بخاتم شرقى نهائى رغم احتواء حضارتهم على الوان محلية خاصة .

نعم اصطبغت معظم كبريات المدن المغربية بالميسم الشرقى حتى شبه المؤرخون

وقد اكد الكاتب الفرنسى المقتدر اندرى سيكفريد عضو اكاديمية باريس أن العرب غرسوا فى البحر المتوسط حضارة يانعة فطوروا الرى وادخلوا غراسات جديدة كالقطن والارز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحى) .

ان الاشعاع المادى للقوة المغربية فى المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لابراز الرسالة التى اضطلعنا بها فى هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحدى الذى كان يضم اربعمائة قطعة ما فتىء ان أصبح اول أسطول فى المتوسط (اندرى جوليان) على ان المغرب قد تزعم العالم الاسلامى والعربى فى هذا العصر مما حدا صلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجاد بالاساطيل المغربية لايقاف تقدم المسيحيين فى طريق الشام وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابى الحسن المرينى .وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما تمر على انبثاق الاسلام بضعة عقود فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بالفوسبعمائةسفينة ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربى البحرية حيث صنعت فى بعض أيام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجرى عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المومن بن على أهمية جبل طارق الذى هو أحد مفاتيح المتوسط فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن افريقيا والاندلس .

ان رسالة الحضارة المغربية الحق فى البحر المتوسط تتجلى فى مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادى والاشعاع الثقافى على ان الدور الاقتصادى نفسه لم يكن فى الواقع سوى نتيجة للنفوذ الادبى فسياسة التسامح التى نهجها المغرب فى اغلب عصوره قد ساهمت فى توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى اصبحت المراسى المغربية فى سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض فهى التى كانت الينبوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من موانىء اوربا وكانت هذه المبادلات تجرى طبقا لنظام منسق لان المسلمين كانوا ـ حسب اعتراف اندرى جوليان صاحب تاريخ افريقية الشمالية ـ اول من نظم المبادلات حسب مقتضيات التجارة الدولية وحسنوا اساليبها التى استمدها منهم المسيحيون فيما بعد .

وقد اتسمت اذ ذاك الحضارة الاندلسية ـ التى اضحت مصدر الهام اوربا فى العصور الوسطى – بمظهر ناصع زاده تلألؤا عودة الامن والطمأنينة فى ظلال الموحدين .

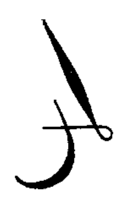
وقد أكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية le miracle arabe ان الحكومة الموحدية كانت من اشد الحكومات احتراما للحرية وان الاندلس عرفت

فى عهدها عصرا ماجدا تالق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التى سرى تيارها المنعش فى جنبات اوربا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمانيين وانجليزيين لذلك الانقلاب الفكرى العظيم الذى تفتق عن عصر النهضة وقد سبق لكوستاف لوبون ان قال نقلا عن العالم الايطالى ليبرى (لولا العرب لتأخر انبعاث الاداب فى اوربا بعدة قرون)

وقد عاشت الاندلس نحوا من ثلاثة قرون تحت ظل ملوك مراكش وفاس فكانت هذه الفترة من ازهر عصور تاريخها ولم يتصل الاروبيون بالعلوم العربية الا عن طريق اسبانيا المسلمة التى برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية - كما يقول فنتيجو - (عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية) وما لبث هذا الاشعاع العربى ان غمر شعوب الغرب فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيز وبولونى ومونبيلى وسلامانك وافينيون وباريس من وحشتها اللاتينية حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو ورغم انهزام الموحدين السياسى وعودة الاندلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد فى نظر الغربيين) حتى صارت باريس نفسها التى أسس جامعتها الملك فيليب اوجست على اثر عودته من الشرق - تستمد من المغرب والشرق كثيرا من اكتشافاتها

اليس اذن من الغريب ان لا يتجلى اثر الحضارة العربية فى ذهن الاوربى المتوسط الا فى فتوح اوقف تيارها شارل مارتيل فى بلاط الشهداء ؟

والذى يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وانما كانت رسالة تمدينية لا تهدف الى اى نوع من الوان الادماج ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام 1199 على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا فى مقابل جزية سنوية واعتناق الاسلام من طرف انجلترا ملكا وشعبا ولكن الملك العربى رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التى كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الاسلام .



الفصل الرابع :

المغرب بين اوربا والعالم الجديد

المغرب هو القطر العربى الوحيد الذى يملك منفذا مزدوجا يطل على محيطين عالميين فحدوده تمتد فى نحو من خمسمائة كيلومتر على طول سواحل بحر الظلمات وقد تعزز هذا الوضع الاستراتيجى فى مفترق بحرين دوليين من أشد بحار العالم نشاطا يوم اصبح مضيق جبل طارق ممرا حيويا بين اقطار المتوسط والعالم الجديد.

وما لبث المغرب ان اضطلع ــ بفضل هذا الوضع الممتاز ــ بمهمة الوساطة بين عالمين ذلك ان ميزة المغرب كقطر افريقى شرقى يطل على أوربا ومياه العالم الجديد قد جعلت منه نقطة اتصال وازدواج بين حضارتين ما فتئتا تتفاعلان منذ قرون من أجل امداد الانسانية بلبابهما المختار ولعل هذه الميزة هى التى ساعدت على اشعاع حضارتنا فيما وراء البحار حيث تجاوبت اصداؤها فى العالم الجديد منذ القرن السادس عشر بعد ان اخترقت مجاهل بحر الظلمات .

لقد زعم البعض ان العرب اكتشفوا امريكا منذ نحو من الف سنة (1) وساق الاب انستاس الكرملى للتدليل على ذلك بعض الحجج منها وجود كلمات عربية فى لهجات هنود امريكا وبقايا زنوج افارقة والشبه الملحوظ بين حضارة الاسلام ومظاهر الحياة فى بعض المجتمعات هناك وقد اكد الشريف الادريسى ان الفتيان المغرورين وصلوا الى جزر منها اصور وقيل ان حكايات شهامتهم التى اصبحت مضرب الامثال فى الاندلس هى التى حدت كريسطوف كولومبس الى القيام برحلته على أن الاستاذ رنان قد اشار فى دراساته حول ابن رشد الى رسالة بقلم كولومبس نفسه اعترف فيها بان مصنفات ابن رشد هى التى اوعزت له بوجود امريكا ومنذ قريب أكد الدكتور جيفريس الاستاذ فى جامعة (ويتواتر ستراند) الذى انكب على دراسة هذه القضية منذ سنوات ان العرب هم الذين اكتشفوا امريكا قبل كريسطوف كولومبوس بنحو من ثلاثة أو اربعة قرون كما يتبين ذلك من هياكل وقع العثور عليها ويقول الاستاذ بانه

(1) قال شيخ طريقة « المرمون » ان العراقيين قد اكتشفوا آمريكا منذ 5000 سنة ثم عاد بنو اسرائيل الى اكتشافها بعد 2500 سنة عندما فروا من غزو البابليين . وقد نشر الشيخ المذكور كتابا فى الموضوع بعنوان « قطيع واحد وراع واحد » ضمنه هذا القول المستند على وجود تشابه بين النقوش المكتشفة فى الشرق الاوسط وأمريكا وخاصة فى المكسيك وعلى دراسة دامت ست سنوات .

عندما وصل كريسطوف الى امريكا وجدَ جماعة من الزنوج الذين فروا من أسيادهم العرب وهو يرى أن المزروعات الافريقية دخلت الى امريكا على يد العرب وان العرب هم الذين نقلوا كذلك المزروعات الامريكية الى اوربا وهذا يفسر لنا ـ في نظره ـ سبب اشتهار الذرة في اوربا بالقمح الامريكي .

ومهما يكن فهنالك ظاهرة قارة في تاريخ المغرب وهي ان المغاربة والاندلسيين جالوا في جوانب المحيط الاطلسي ولعبوا دورا هاما في بعض جزره حيث كانت لهم جاليات مهمة على ان المغرب تحمل القسط الاوفر ـ طوال بضعة قرون ـ في الدفاع عن حوزة السواحل العربية المطلة على المحيط من اشبونة الى اكادير وكانت له اوراش واساطيل غير أنه قلما كان يستخدم المياه الاطلسية في ربط صلة الوصل بين العدوتين لان مضيق جبل طارق كان أقرب واسهل .

وقد اشعت الحضارة العربية الى الصدر الاول من السواحل الاندلسية خاصة فكانت المرية اعظم ورش بحرى في عهد الامويين ثم انبثقت اوراش أخرى اشار اليها الشريف الادريسي في نزهته كالجزيرة وقصر أبي دانس وطرطوشة ثم ما لبثا بعد ذلك وقد حاول الدنماركيون اكتساح الاندلس عام 966 م ولكن ملك اشبيلية صدهم باسطوله الذى كان يمخر عباب المحيط وقد أبى جميع ملوك الطوائف الا ان ينشئوا اساطيل على غرار الاسطول الاموى تجول قطعها في كل من البحر المتوسط وبحر الظلمات وكذلك بنو نصر في غرناطة

غير أن العلائق التي توثقت فيما بعد بين المغرب وبعض دول المحيط كالدنمارك والسويد وانجلترا وهولندا حدته الى الاهتمام بمراسيه الاطلسية وقد كانت هولندا اولى الامم الاطلسية التي تبلورت روابطها مع المغرب في مبادلات عبر المانش لا سيما بعد معاهدة 1610 التي اعطتها الاسبقية وكانت أهم مراسي المغرب اذ ذاك هي اسفي واكادير وماسة ثم اصبحت سلا انشط ميناء بالمغرب وظلت محتفظة بهذه الميزة طوال قرن كامل وعند بزوغ فجر الدولة العلوية حرر المولى اسماعيل بعض موانيء الشمال كطنجة والعرائش واصيلا من ربقة الاجانب فساهمت هذه المراكز الجديدة في تعزيز رسالة المغرب في المحيط الاطلسي تلك الرسالة التي اكتملت بعد بضعة عقود من السنين بتاسيس الصويرة على يد المولى محمد بن عبد الله وما لبث هذا الميناء الجديد ان احتكر مجموع النشاط التجارى المغربي ففي عام 1745 اصدر المغرب الى المحيط الاطلسي عن طريق الصويرة 85000 طن من القمح والقطاني وفي سنة 1751 تضخمت حركة الميناء فبلغت قيمة روجانه ما يقرب من ستة ملايين فرنك وهو مبلغ له خطورته في ذلك العصر وقد زار المراسي الاطلسية في تلك السنة 223 باخرة اوربية وظلت مراسي الصويرة مكتملة النشاط الى عام 1911 حيث زارها 462 باخرة وكان الميزان التجارى المغربي مزدهرا اذ ذاك لان الصادرات بلغت في هذه الاونة ثلاثة اضعاف الواردات .

تلك شواهد نوردها لدحض ما يزعمه البعض من أن المغرب عاش منطويا على نفسه نعم اضطر احيانا لاتقاء الدسائس الاوروبية بالانزواء والقبوع بل بلغت مضايقة بعض الاقطار اللاتينية مبلغا حداه الى قصر علائقه على بعض الامم البروتستانتية المحاذية لسواحل بحر الظلمات كانجلترا والسويد والدنمارك التـي امضى معهـا معاهدات تجارة ووداد وهذا يدلنا على ان النعرة الدينية لم تكن هي الباعث على انعزال المغرب عن اوربا ومع ذلك فلا يبعد ان يكون ملوك المغرب قد ظلت عالقة باذهانهم ذكريات تحريض البابوية والدول الكاثوليكية التابعة لها على اكتساح المغرب باسم الصليب ومهما يكن فان هذا القبوع يرجع في نهاية الامر الى رغبة المغرب فى التحصن ضد الحركـات التوسعيـة التى بدأت بوادرها تظهر في بعض سواحل المتوسط الافريقية .

وقد امضى السلطان سيدى محمد بن عبد الله قبل وفاته ببضـع سنـوات (1786) معاهدة تجارة وملاحة مـع الولايات المتحدة لـمدة خمسيـن سنـة وقـع تجديدها عام 1836

فالمغرب لم ينعزل اذن عن العـالم العصرى ولم يهمل كذلك تطور السيـاسة الاوروبية الامريكية بل تتبع بكامل الاهتمام واكيد العطف حركة تحرير شعوب مـا وراء لاطلسى وقد كان المغرب فى طليعة الدول التى اعترفت باستقلال جمهورية الولايات المتحدة الفتيـة .

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التى كانت الى ذلك التاريخ منحصرة فـي البحر المتوسط ان تدخـل الى امريكـا الجنوبية بواسطـة الغـزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تاثير المدنية الاندلسية فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربى ينمو ويضعف حسب الاصقاع فتقنعت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حياتها كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية فيما حكاه الرحالة ابن جبير تكييفا يحذو حذو النعل بالنعل ما عهد فى الاندلسيات والمغربيات نعم اصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من اناقة النساء الارستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة فى البادية فبالرغم عن اختلاف الطقس استخدم الفلاح الامريكى اجهزة واساليب الفلاحة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع أنحاء امريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوى عليه نظام الرى عندنا (السواقى والابار الخ) وقد نقل المعمرون البرتغاليون الى أمريكا جميع ما انجزه المغاربة فى القسم الجنوبى من الاندلس من مصانع السكر والقطن الى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت 3060 قرية اندلسية تتعاطى تربية دودة القز) على ان اللغة الاسبانية الامريكية تنم عن

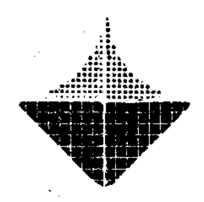
الاثار التى تركتها حضارتنا فى الميدان الثقافى والاقتصادى والاجتماعى بامريكا فالاصطلاح الامريكى فى المياه والسقى والرى معظمه عربى وكثير من الازهار والنباتات العطرية ما زالت تحمل فى اسبانيا وامريكا اسماء عربية اضف الى ذلك ما يمس (مودة) النساء من اسماء الحلى والمصوغات .

والشبه وثيق بين المغرب وأمريكا الجنوبية فى ميدان الهندسة المعمارية حيث لا تختلف فى البلدين اساليب البناء فى الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات وقد تأثر الاصطلاح الامريكى أيضا بالمفردات العربية .

ويضيق المجال عن تعداد المناحى التى تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والاندلسية بامريكا فحتى أساليب الطبخ واسماء العائلات لا تختلف فى أمريكا عنها فى المغرب ووحدة اصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية الى أمريكا لا سيما العناصر السورية واللبنانية التى ساهمت مع المغاربة منذ العصر الاموى فى تكييف الحضارة الاندلسية مما جعلنا نلمس من جهة أخرى وجوه الشبه العديدة بين كثير من المؤسسات السورية والمغربية .

ويتمتع المغربى فى أمريكا الجنوبية بسمعة طيبة فهو مثال النشاط والمثابرة والذكاء وقد اشتهر المغاربة كملاحين مهرة وليس ذلك ببدع فاذا كانت البحرية البرتغالية قد استطاعت ان تمخر عباب بحر الظلمات وان تصل الى أمريكا فما ذلك الا بفضل أساليب الملاحة العربية فالاندلسى ابن ماجد الملقب (باسد البحر الهائج) صاحب المصنفات العديدة فى قيادة السفن هو الذى كان ربان الرحال فاسكو دو كاما (1524 ـ 1469) الذى اكتشف عام 1498 طريق الهند وقد مهر مغاربة آخرون فى هذا الفن منهم عبد العزيز بن احمد .

تلك بعض المظاهر التاريخية لرسالة المغرب فى المحيط الاطلسى وهى رسالة أصبحت فى الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من أى وقت مضى .



القسم الثانى

المظهر الفكرى للحضارة المغربية

الفصل الخامس :

قصة دخول اللغة العربية الى المغرب

اتفق النسابون على أن القبائل البربرية ترجع الى ارومتين مهمتين وهما برنس ومادغيس (الملقب بالابتر) بحيث لايوجد من بين البرابرة من يخرج عن ذينك الاصلين فهم آما برانس كالمصامدة وصنهاجة وكتامة أو بتر كنفوسة وضريسة وقد ذكر بعض المؤرخين ان البرانس من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام والبتر من ذرية بر بن قيس بن عيلان بن مضر من ذرية سام ونقل ابن خلدون وغيره أبياتا ينسبها علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلى منها :

الا ايها الساعى لفرقة بيننا ... توقف هداك الله سبل الاطايب
فاقسم انا والبرابر اخوة ... نمانا وهم جد كبير المناصب

الى ان قال :

فنحن وهم ركن منيع واخوة ... على رغم اعداء لئام المناقب

وحكى ابن أبى زرع والبكرى ان بر المذكور أمه يريغ بنت مجدول البربرى وان قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب فى المساكن والاسواق والمراعى وتشاركهم فى المياه والمسارح وتصاهرهم فازداد العنصران بذلك امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور فالبتر عرب مضريون والبرانس أغلبيتهم من عرب اليمن . وقد انتقد ابن حزم كون صنهاجة وكتامة من حمير وتبعه فى بعض نظرياته صاحبا نشر المثانى والبدور الضاوية ولكن جمهور المؤرخين والنسابين صرحوا بنسبتهم الى عرب اليمن كالمسعودى والجرجانى والطبرى وابن الكلبى والسهيلى واعترف ابن خلدون بان هذا هو المشهور عند نسابة العرب .

وقد نص كثير ممن درس تاريخ البربر انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر ثم بليبيا ودخلوا الى المغرب حيث وجدهم فجر التاريخ فكانوا بذلك اول من استوطن هذه الديار بعد العصر الحجرى .

وكان ابناء عمهم الكنعانيون سكان فينيقيا (اى بلاد لبنان الحالية) قد اسسوا

اذ ذاك حضارة شامخة البنيان واخترعوا حروفا هجائية يكتبون بها ويصنفون كما اخترع البربر انفسهم احرفا ايام كانت الكتابة لا تزال هيروغليفية اى عبارة عن مجموعة من الصور تجتمع وتفترق تبعا للمعانى المراد التعبير عنها .

وكانت لغة الكنعانيين عربية لا يميزها عن لغتنا الفصحى الا هلهلة الاعراب وهنا يحق لنا ان نفتح باب التساؤل عن ماهية اللغة التى كان برابرة الشام (الذين هجروا الى المغرب) يتكلمون بها فيما بينهم ويتخاطبون بها مع جيرانهم وابناء عمهم الكنعانيين سكان السواحل الجنوبية التى تتكون اليوم منها بلاد لبنان ؟ هل كانوا يتكلمون اللغة العربية التى هى لغة الكنعانيين الاصلية ام كانوا يتكلمون لهجة تغايرها ؟ ان الاجابة بالضبط عن هذا السؤال متعذرة لان النصوص التاريخية الضرورية تعوزنا ولكن الذى يغلب على الظن هو ان الكنعانيين والبرابرة لم يكونوا ليتكلموا الا لغة واحدة لسببين اثنين اولهما جنسى والثانى ترابى فهم من جهة ابناء عمومة وتجمعهم من جهة أخرى بقعة واحدة من بقاع الشرق الادنى ولا يخفى ايضا ان البرابرة فى الشام كانوا من القبائل الرحل التى تنتجع الكلأ فى السفوح والهضاب الفينيقية فكانت تتصل ضروريا بالفنيقيين الذين كانوا من جهتهم يتوغلون فى سهول الشام وسواحله من أجل التجارة ولا شك ان الكنعانيين العرب كان من بينهم فريق اختار الفلاحة على التجارة فكانت تجمعهم ببربر الشام المراعى والمياه واسواق البادية المشتركة . كل هذه عوامل تجعلنا نعتقد ان البربر كانوا يتكلمون فى الشام لغة عربية او قريبة من العربية وأنهم نقلوا تلك اللغة معهم واللهجات البربرية المستعملة اليوم فى المغرب تحتوى على الفاظ عربية محرفة تحريفا بسيطا وتتضمن الى جانب ذلك نتفا من لهجات عتيقة ربما استمد البربر بعضها من السكان الافارقة الذين اتصلوا بهم عندما هاجروا من مرابعهم الشمالية الى البلاد الليبية على أن فى اللغة البربرية كلمات لايدرك اصل اشتقاقها الا بعناء زائد ونجد فى اللغة البربرية كلمات عبرية دخلت اليها فى نظرنا من ناحيتين اثنتين عن طريق الحضارة العبرية التى كان لها اثر فى مصر وبعض سواحل المتوسط وعن طريق بعض البرابرة الذين اعتنقوا الديانة الموسوية وادخلوا بعض تعاليمها وعباراتها المقدسة الى قلب القبائل البربرية وقد وجد الفاتحون العرب طوائف اسرائيلية فى بحبوحة بلاد البربر تدين كلها بالديانة اليهودية كقبيلة الكاهنة (ويلاحظ ان لفظة كاهنة كانت معروفة فى اللغة العربية) .

وقد دخل الكنعانيون العرب الى المغرب دخولا رسميا (لان اشتاتا منهم كانت قد دخلت قبل ذلك) عام 480 قبل الميلاد ـ فازداد امتزاجهم بابناء عمهم البربر وتكونت فى افريقيا الشمالية اذ ذاك لغة تسمى باللغة البونيكية Punique هى خليط من الفينقى والعبرى وكانت هذه اللغة – حسبما تشهد بذلك الواح اثرية سلمت من عوادى الزمان ـ قريبة من اللغة العربية الفصيحة بل أقرب اليها من لهجات عدة

شعوب عربية اليوم . ويحدثنا المؤرخون ان اللغة البونيكية كانت لغة علمية دونت بها المعارف والفنون ولكن الاحتلال اللاتيني لسواحل المتوسط عفى على هذا التراث بعد احراق الرومان لعاصمة قرطاجنة ودرس معالم حضارتها فكان الطغيان اللاتينى جناية فظيعة على الانسانية بوجه عام وعلى العروبة بوجه خاص .

وقد ظلت الحضارة الكنعانية متمكنة من قلوب البربر اثناء الحكم الرومانـي لان الكنعانيين كانوا من بنى عمومتهم ولان علاقة الكنعانيين بالبربر لم تكن علاقة سيطرة واستبداد وسيد بمسود حيث ان الكنعانيين – الذين لم يدخلوا الى المغرب الا بقصد الاتجار – تركوا مقاليد الامور بيد ابناء البلاد فاستمرت ذكرياتهم الطيبة عالقة باذهان هؤلاء – . ذلك ما يخص دخول الكنعانيين الى المغرب وانتشار اللغة العربية فى ربوع البلاد عن طريقهم .

فهل دخلت عناصر عربية اخرى الى المغرب قبل هذا التاريخ او بعده ؟ وما هوحظ (أسطورة) دخول العرب اليمنيين الى هذه البلاد من الصحة ؟ وماذا كـان تاثير ذلك فى (تعريب) افريقيا الشمالية ؟

صرح سان اوكوستان Saint - Augustin بان اللغة البونيقية ظلت متغلغلة فى انحاء البادية المغربية الى عهد الوندال اى الى عهد الفتح العربى وذكر غيره ممن تصدى لبحث اثر الحضارة اللاتينية فى المغرب – أن لغة الرومان اندرست كليا فى البلاد لان الحضارة اللاتينية لم تجد فى قلوب سكان المغرب المشارقة موطنا تاوى اليه ولايخفى أن الاستعمار الرومانى لم يستطع أن يخلق لا فى الشرق ولا فى الغرب اثناء العهد الامبراطورى سوى هيكل ادارى سطحى بينما استطاع فى الاقطار الاوربية التى استعمرها كبلاد الغول (فرنسا) وبلاد الاسبان ان يتغلغل فى اعماق المجتمع ويؤثر فى نفسية النخب والجماهير وتعفى لغته الرسمية ــ التى هى اللغة اللاتينية ــ على اللهجات المحلية طابعة اياها بميسم رومانى عميق وقد اعترف بهذه الحقيقة رجل طالما حاول الحط من كرامة المغاربة والمشارقة معا وتشدق بما يسميه (غربية) المغاربة وهو كوتيى صاحب كتـاب « العصور الغامضة فـى تاريـخ المغـرب » (Siècles obscurs dans l'Histoire du Maghreb) وكتاب « عوائد المسلمين واعرافهم (Mœurs et coutumes des Musulmans) وقد كان لدخول العرب اليمنيين الى المغرب تحت قيادة زعيمهم افريقش الحميرى اثره فى توطيد لغة الضاد فى هذه البلاد قبل الفتح الاسلامى بقرون ولعل دخول افريقش هذا كاد ان يكون من قبيل المرجح لا سيما بعد الاكتشافات الاثرية التى دلت على ان اللغـة الحميريـة لعبت دورا مهما فى تاريخ افريقيا الشمالية . ولكن ابن خلدون حاول نقض مـا يسميـه بعضهم (باسطورة) الهجرة الحميرية تابعا فى ذلك ابن حزم الذى صرح بانها مـن وضـع مؤرخى اليمن وقد استدل ابن خلدون على ذلك بان اليمنيين لم تكن لهم طريق يمرون عليها الى المغرب غير مصر التى كانت بها اذ ذاك دول تابى عليها سيادتها

أن تسمح لافواج اجنبية بالمرور عبر ترابها ولعل هذا الاحتجاج ضعيف ان لم نقل مهلهل لانه لا يبعد ان يكون التبابعة ورعايهم قد هاجروا الى المغرب فى فترات متعاقبة وحدانا أو جماعات قليلة لايسترعى مرورها النظر وما يدريك لعل افريقش دخل على رأس احدى هذه الفئات وليس ببعيد ان تكون هنالك محالفات قديمة بين مصر واليمن فسحت لرعاياهما مجال المرور فى البلدين على ان طريق مصر كانت هى الطريق الرسمية المألوفة ولم تكن الطريق الوحيد نعم كان من الصعب الدخول الى ليبيا من الجنوب بعد عبر المضيق البحرى الفاصل بين القارتين الافريقية والاسيوية ثم محاذاة اطراف الحبشة او السودان ومصر للالتحاق بالصحراء الليبية ولكن اذا كان من قبيل الصعب فانه لم يكن بمعتذر على همم اذكتها روح المغامرة كهمم الحميريين سكان ساحل الجزيرة العربية . على أن ابن خلدون ناقض نفسه بنفسه فنفى ما ذكره فى المقدمة بما اثبته فى كتاب العبر حيث اكد فى الجزء السادس أن المشهور هو ان صنهاجة وكتامة من اليمن وان افريقش لما غزا المغرب انزل الفريقين بها ثم عقب على ذلك مؤكدا ان الصنهاجيين والكتاميين يمنيون حقيقة (ص 97) وقد حكى فى مواضع اخرى اتفاق المؤرخين على غزو افريقش بن صيفى المغرب ومن جملة من ايد هذا الغزو الجرجانى والمسعودى وابن قتيبة والطبرى والكلبى (I)

وقد اورد البكرى فى مسالكه وصاحب الاستبصار ما يفيد ان قرطاجنة كان من بين آثارها قبر مكتوب عليه باللغة الحميرية واكتشفت اخيرا نقوش فى بعض قرى تونس كما وقع العثور منذ سنوات نقط على خط بربرى قرب داكار له شبه قوى بالخط الحميرى وهذا يدلنا على مبلغ تأثير أسلوب الكتابة العربية منذ أقدم العصور فى الكتابة البربرية وقد ذكر ميشو بيلير فى محاضراته (ص 269) ان قواعد النحو البربرى قريبة من القواعد العربية .

ولا تنحصر هجرة العرب الى المغرب قبل الاسلام فى الكنعانيين والحميريين فقد أكد شلوش فى مقال له بالوثائق المغربية أن فلولا من سكان خيبر العرب انتقلوا الى افريقيا والمغرب على اثر الهجرة النبوية وانبثوا فى الاصقاع الافريقية بينما هاجر آخرون الى الشام والعراق وغيرهما وقد اشار ميشو بلير الى هذه الرواية فذكر انها تؤكد ما يتناقله المؤرخون من ان البربر المغاربة اصلهم من الشرق ثم اوضح ــ بناء على مشاهداته فى الربوع الاطلسية ــ ان معظم البرابرة يعتقدون أنهم مشارقة الاصل .

(I) زعم الكلبى ان الجل من الكنعانيين بعد يوشع احتملهم افريقش من سواحل الشام فى غزاته الى المغرب التى قتل فيها جرجيس الملك وأنه أنزلهم بافريقية فمنهم البربر وترك معهم صنهاجة وكتامة من قبائل حمير (تاريخ ابن خلدون القسم الأول ــ المنهج الثانى عام 1956 ص 170)

وقد ذكر كوتيي فى كتابه « ماضى افريقيا الشمالية » (ص 148) نقلا عن كزيل ان القرطاجنيين كانوا يلبسون بالمغرب اللباس الشرقى اى القميص الطويل بدون حزام والطربوش وتحته رأس حليق ولحية مستطيلة وعيونهم مكتحلة وشعرهم مخضب بالحناء وكانوا يختتنون كالفنيقيين ويستعملون السجود فى صلاتهم ويحرمون اكل الخنزير . وقد أكد ايضا (فى صحيفة 157) ان فى قسم كبير من المغرب كان الناس يتكلمون لغة قريبة من العربية ويغطون رؤوسهم كما يفكرون ويشعرون على طريقة الشرقيين منذ ما يقرب من ثلاثة الاف من السنين . غير أن اللغة العربية التى نقلها المهاجرون العرب الى افريقيا الشمالية فى اطوار متعاقبة اعتورها تحريف عميـق .

ولكن لا تزال الى الان فى لهجات البربر الفاظ ظاهرة المصدر العربى ككلمات الماء (أمان) والدم والحياة والموت والاب والام والجد والعم والخال وهذه كلها كلمات ضرورية فى الحياة بل هى من ابرز مقومات اللغة فى المجتمعات البشرية ومنذ كان البرابرة وهم يستعملون هذه الالفاظ فى مخاطباتهم اليومية اذ لا توجد فى مختلف لهجاتهم كلمة يستعاض بها عما ذكر .

واغرب ما فى الامر ان معظم الالفاظ العربية التى اندمجت فى البربرية عريقة لا تكاد تستعمل كلفظة اخف التى معناها مقدم الرأس والتى استمدها البربر من كلمة يافوخ العربية وهنالك لفظة أخرى تؤدى نفس المعنى وهى اقلال التى يرجع اصلها الى لفظة قلة ويستعمل البربر الى الان كلمة اكزيم للدلالة على الفاس الذى يسمى بالعربية القلزم وهذا يدلنا على أن تلك الالفاظ انتقلت الى اللسان البربرى فى عهود سحيقة ايام كان استعمالها جاريا حتى بين الرعاع والدهمـاء أى فـى عصور الجاهلية .

ويرجع اصل لفظة ازرو البربرية الى كلمة اصر العربية ومعناها الحجر ولا تخفى العلاقة الطبيعية بين هذه التسمية وبين طبيعة تراب ناحية أزرو حيث تغلب الصخور الحجرية على غيرها وازبل باللسان البربرى معناه الشعر وهو السبلة بالعربية تجمع على سبال ومنها جاءت ازبل) والقائف أى الكاهن يسمى فى البربرية بانقفى والدرع بتدرعت والملحفة بتملحفت والدالية باضيل واللسان بالسن والمنخر بتنخر والاديم بادم والجدى باغجد وهكذا .

وقد انتقلت عبارات بنصها من العربية الى البربرية ولكن الاستعمال حرف شكلها تحريفا عميقا مثال ذلك العبارة العربية (ساقطع تربه) التى صارت فى اللسان البربرى « أدبيغ تريبات نس » فتريبات معناها التراب وادبيغ من أب أو تب أو جب أى قطع أما لفظة نس فهى من الروابط والملحقات البربرية .

أما النحو البربرى فقد اندرجت فيه ادوات عربية مثل كاف الخطاب ومـا الاستفهامية (ما تريت أى ما تريد ؟) وكلمات اخرى ككان التى صارت فـى اللسـان

البربرى اكا على أن هنالك ظاهرة اعمق وأبلغ وهى وجود حرف الضاد فى اللهجة الشلوحية (تشلحت) ويسمونه اضاد ولا يخفى أن هذا الحرف كادت تنفرد به اللغة العربية التى سميت بلغة الضاد .

أما فيما يخص التطورات التى وقعت بعد الفتح الاسلامى فان حملة عقبة بن نافع على المغرب كانت خاطفة لم تتمكن العناصر العربية خلالها من الانتشار والتركز وكان عدد الفاتحين ضئيلا استشهدوا فى مأساة تهودة الشهيـرة وظل الاسـلام بين مد وجزر طيلة قرن يغزو بمبادئه السياسية اكثر مما يغزو برجاله وظلت لغة القرآن اثناء هذه الفترة لغة طائفة غيـر قليلـة ممـن شغفهـم الديـن الجديـد فانكبوا على تعلم العربية وتخرج من صفوف البربر اذ ذاك مستعربون امثال طارق بن زياد الذى خطب على اجناده البرابرة بلغة الضاد يوم فتح الاندلس . ولم يكـد المولى ادريس (دفين فاس) يشارف العقد الثانى من عمره حتى جمع حوله من العرب الاقحاح واناط بهم مهمة نشر اللغة العربية بين البربر وتعليم القبائل المنضوية تحت راية الادارسة ــ شعار الدين الحنيف وكان الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز قد اوفد قبل ذلك (فى المائة الاولى) اساتذة وفقهاء الى افريقية لتلقين البرابرة لغة القرآن وتعاليم الاسلام

ويحدثنا التاريخ ان اللغة العربية سارت فى اعقاب جيوش المولى ادريس فتركزت حيث تركزوا وترعرعت حيث ترعرع الاسلام واذا كان سكان جبالة يتكلمون كلهم اليوم بالعربية وكذلك قسط من غمارة وبلاد الريف فان الفضل للادارسة وقد اعترف بهذه الحقيقة ميشو بيلير فى البحث القيم الذى كتبه عن الريف على ان الفضل فى تعريب برابرة الريف لا يرجع للادارسة وحدهم فان صالح بن منصور الحميرى لم يكد يفتح تمسمان حتى اقطعه اياها الوليد بن عبد الملك فاسس دولة عربية فى المغرب سميت بعد ذلك بدولة بنى صالح أو مملكة نكور (ونكور هذه مدينة اسسها ادريس بن صالح واتم بناءها ولده سعيد) وظلت هذه الدولة قائمة الاركان ثلاثة قرون ساهمت اثناءها فى نشر اللغة العربية لا فى الريف وحده بل فى باقى ربوع المغرب حيث رفعت لواء المذهب المالكي وقاومت تيار الخوارج فى صف الادارسة . وقد ورد فى كتاب (نصوص عربية فى تكرونة) (مقدمة الجزء الاول) ان لجبالة ببلاد الريف لهجات يرجع اصلها للغة المراكز الحضرية القديمة اى المراكز الدائمة لتعليم اللغة العربية . وقد تدفق على افريقيا علماء وفقهاء ودعاة الخوارج فى القرن الثانى ودعاة الشيعة الفاطميين فى القرن الثالث فكان ذلك عاملا قويا فى توطيد اللغة العربية وتوسيع نطاق الميادين الشاسعة التى سبق لها ان غزتها فى قلب الجبال الاطلسية .

وابرز الوسائل التى تذرع بها الغزاة لنشر لغة القرءان هى فتح كتاتيب لا سيما فى القرن الثانى ايام ولاية عمال الدولة العباسية فـى افريقيـا على أن تأسيـس الرباطات فى قـرى الساحل منذ اواخر المائة الثانية لم يكن اقل مفعولا فى نشر

القرءان والدعوات والاذكار بلغة الضاد فى اواسط البربر الذين كان فى صبغتهم الفطرية شغف بالروحانيات وقد حدثنا البكرى عن آثار تلك الرباطات وكتب فى شأنها جورج مارسى G· Marçais فابرز مهمتها التهذيبية زيادة على الدور العسكرى الذى قامت به ولا يخفى ما قام بهعبد الله بن ياسين فى رباطهبناحية نفيس وما قامت بهكذلك فى القرون الرابع والخامس والسادس رباطات اولاد امغار الصنهاجيين فى تيط ومولاى بوشعيب فى أزمور وأبى محمد صالح المصمودى فى اسفى واصحاب رباط شاكر ورباط تينمال دار الموحدين وزاوية ابى النور المشترائى شيخ ابى شعيب ايوب بن سعيد وزاوية بن حرزهم تلميذ ابى حامد الغزالى وأهل مدينة العباد (قرب تلمسان حيث مدفن ابى مدين الغوث) فى ميدان تثقيف الجماهير البربرية ونشر تعاليم الاسلام بلغة العرب فى مجاهل الاطلس .

وهنا يجب ان افتح قوسين لدحض ما ادعاه ميشو بيلير فى محاضراته (ص 102) حيث أكد ان التعليم الصوفى كان باللغة البربرية مستدلا على ذلك بما ورد فى كتاب «المنهاج الواضح» حيث أكد مؤلفه أحمد ابن ابراهيم بن احمد ابن ابى محمد صالح أنه سمع كرامات جده (بلسان الرطانة) فافرغها فى قالب عربى وقد ترجم ميشو (لغة الرطانة) باللغة البربرية وهو فى ذلك واهم لان لغة الرطانة معناها اللغة العامية التى تتكلم بها حتى المراكز الحضرية اليوم بالمغرب . ولم يكد يبزغ فجر القرن الرابع حتى صار البرابرة يزاحمون العرب فى دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان وتلمسان وفاس وقرطبة وتيهرت (عاصمة الرستميين) . وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب فى قواعد الاصول وتفاريع الفقه ومبادىء علم الكلام باحثين معهم اصول العربية وقد ذكر ابن بشكوال فى صلته (ص208) ان سعيد بن عثمان البربرى المعروف بابن القزاز كان لغويا له كتاب فى الرد على صاعد البغدادى فى مناكير كتابه فى النوادر والغريب المسمى بالفصوص ثم ذكر ان من طريقة هذا البربرى صححت اللغة العربية بالاندلس بعد أبى على البغدادى .

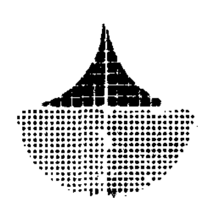
على ان هنالك عاملا آخر كان له اثر فى نشر العربية بين القبائل وهو دخول العرب الهلاليين والسلميين الى افريقيا وكانت اساليب العيش عند هؤلاء العرب البدو متجانسة مع الحياة البربرية فى السهول والجبال مما سهل امتزاج العنصرين حيث تكون جنس خليط واستعرب البربر وتوغلت اللغة العربية حتى بين البدو والبرابرة بعد أن كانت قليلة الانتشار بينهم الى ذلك العهد ويعقوب المنصور هو

الذى جلب القبائل الهلالية الى المغرب الاقصى بعد ان ظلت مدة غير يسيـرة فـى المغربين الاوسط والادنى كما جلب السعديون عرب معقل للاستعانة بهم على توطيد دعائم دولتهم الفتية فلعب العرب المهاجرون دورا سياسيا (عرب معقل استولوا على شرق الريف فى القرن السابع الهجرى) علاوة على الدور الاجتماعى والجنسى ومنذ ذلك الحين واللغة العربية تغـزو البـلاد سهولهـا وجبالهـا بفضـل انصهـار العنصرين فى بوتقة العروبة الخـالصة حتى قال الفريد بيل فى الكتاب الذى صنفه حول البربر وديانتهم (ص 204) ان رجال البربر اصبحوا اليوم كلهم يتقنون اللغة العربية فى الجبال الاطلسية لا سيما منها الناحية الشرقية .

وهكذا حمل الاسلام الى هذه الديار لغة كانت اذ ذاك من ابرز لغات المعارف والعلوم كما حمل اليها حضارة لولاها لتاخر عصر الانبعاث بعدة قرون كما اعترف بذلك كل من م . ليبرى وغوستاف لوبون

وقد اندثرت من المغرب بقايا الحضارة اللاتينية والوندالية التى ارادت أن تركز نفسها بالحديد والنار بينما غزا الاسلام قلوب البربر بالحكمة والموعظة وسمو الغايات

وقديما رمز بيسمارك الالمانى الى ما تبنيه القوة بقوله : « ان الحراب يمكن أن تستعمل لكل شيء الا كبساط للجلوس » .



الفصل السادس :

العربية لغة العلم والحضارة

في هذه الحقبة الحاسمة التي يلعب فيها التعريب دورا مهما في حياتنا الوطنية يلذ لنا ان نستعرض الادوار التي مرت على العربية كأداة لنقل العلوم وتسجيل مختلف مظاهر الحضارة وتتجلى لنا من خلال هذا العرض ثروة هذه اللغة ومقوماتها وامكانياتها الواسعة

لست فى حاجة الى بيان الدور الذى لعبته العربية فى العصر الجاهلى كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق العواطف اذ يكفى ان تراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذى عز نظيره فى معظم لغات العالم ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرج المعنى الواحد والفكرة الواحدة فى مآت المفردات من القوة الى الضعف من خلال شتى الاعتبارات وكذلك تدرج الاسماء لنفس المسميات فى مآت التعابير تبعا لادق مجالى الميز ولا تزال هذه الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوى على كنوز تكتشف المجامع اللغوية مع الايام مدى ارتباطها بالمعانى الجديدة واتساقها مع مولدات الفكر الحديث

على ان فى مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والادبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هى القوام الاساسى للتفاهم بين العلماء والتعبير عن أعمق النظريات الفنية يوم كانت الحضارة العربية فى عنفوان ازدهارها ويكفى ان تتصفح كتابا علميا او فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة . ففى العربية اذن « مقدرات » شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلاعتنا فى فقه اللغة

والكل يعلم انه منذ أواخر القرن الهجرى الاول انبثقت حركة فكرية واسعة اذكت جامعات الشرق « ولم تستفد من هذه الحركة كما يقول مؤلف « المعجزة العربية» السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفادت منها لغة شعب عاش خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن فى الظاهر ما يحدوه الى الاضطلاع بالدور الخطير الذى قام به مع ذلك فى تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربى »

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ اعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع فى نظر م . فنتجو مؤلف « المعجزة العربية » — الى الثمار المادية والروحية التى جنتها من الاسلام اكثر منها الى القرار الذى اتخذه الامويون بجعل العربية أجبارية فى الوثائق الرسمية

وخلال القرن الثانى الهجرى بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق الادنى « وتمخض هذا الانحلال عن « اكبر فوضى فى اللغات والاديان » فقد بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على اثر احتكاكها بالعرب « معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم »

ومنذ ذلك العهد ظهرت شعوب اخرى خلفت العرب فى النواحى التى احتلتها « ولكن نفوذ اتباع محمد ظل لازبا لم يتغير » كما يقول جورج ريفوار ففى جميع نواحى افريقيا وآسيا التى دخلوها من المغرب الى الهند تغلغل ذلك النفوذ فى الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استئصال دين العرب ولغتهم » وقد أكد م . فنتجو ان العربية امست فى فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء انفسهم أداة لصياغة القريض فى حين « ظلت اللهجة البهلوية » مستعملة فى الجبل وقد استمر نفوذ العربية فى القرون التالية بل صارت العنصر الجوهرى فى الاوردية التى هى لغة الثقافة عند الهندوس والتى نصف مفرداتها تقريبا من اصل عربى واذا كان شعراء مثل الفردوسى صاحب الشاهنامه الذى هو عند الفرس بمثابة هو ميروس عند الاغريق والذى كان متضلعا فى العربية « عادوا يقرضون الشعر منذ القرن العاشر الميلادى بالفارسية » فان معظم المصنفات العلمية ظلت تحرر بالعربية مثل موسوعة الرازى الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا .

وقد اوضح كوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » (الطبعة الفرنسية ص 473) **ان العربية اصبحت اللغة العالمية** فى جميع الاقطار التى دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ... ووقع نفس الحادث كذلك فى فارس مدة طويلة ورغم انبعاث الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين وقد اكد جوستاف ايضا (ص 174) بان الفرس يدرسون اليوم (أى أواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ فى مصنفات عربية »

هذا وقد عربت اهم المصنفات اليونانية فى عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الاجنبية بحماس « فاق الحماس الذى اظهرته اوربا فى عهد الانبعاث » وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الاصلاح الجديد فانتشرت فى مجموع انحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة (جورج ريفوار فى كتابه « وجوه الاسلام » وقد قضت العربية حتى على اللاتينية لا سيما فى شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والاندلس) حيث ندد الكاتب المسيحى الفارو وهو من رجال القرن التاسع الميلادى بجهل مواطنيه باللاتينية فقال « ان المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تفنيدها بل من أجل التمرن على الاسلوب الصحيح الانيق فى العربية وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والادب العربى فهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكاتب الضخمة مهما كلفهم

ذلك من ثمن ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا ان الادب العربي شيء بديع ... ما اعظم الالم ! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحدا بين الالف يحسن تحرير رسالة باللاتينية الى صديق له . أما باللغة العربية فانك تجد افواجا من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل الاناقة بل انهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الوجهة الفنية اشعار العرب انفسهم وقد نقل الأستاذ ليفي بروفنصال مقتطفات من كتاب الفارو في كتابه حول « حضارة العرب في اسبانيا »

وقد أكد المؤرخ دوزى فى كتابه « تاريخ مسلمى اسبانيا (ج ١ ص 317) أن اهل الذوق من الاسبان بهرتهم نصاعة الادب العربى واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين »

وقد نقل دوزى عن صاحب كتاب « لوس موزار ايبس دوطوليد » ان العربية ظلت اداة الثقافة والفكر فى اسبانيا الى عام 1570 ففى ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الاسبانية العربية كلغة لها الى اوائل القرن التاسع عشر وقد جمع احد أساتذة كلية مدريد 1151 **عقدا فـي موضوع البيوع محررا بالعربيـة** كنموذج للعقود التى كان الاسبان يستعملونها فى الاندلس »

ولم يفت المؤرخ « فياردو » الذى كتب منذ نحو القرن تاريخ العرب فى اسبانيا أن ينوه بثراء اللغة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى ان معظم سكان شلب ـ وهى اليوم جنة البرتغال ـ كانوا شعراء فى نظر القزوينى بل يؤكد دوزى أنهم كلهم كانوا شعراء

ان اللغة العربية التى بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت فى القرن الرابع الهجرى أى فى عنفوان العصر العباسى اوج كمالها وقد وصف زكى مبارك روعة النثر الفنى العربى فى هذا القرن ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية فى ذلك العصر بانها « اغنى وابسط واقوى وارق وامتن **واكثر اللهجات** الانسانية مرونة وروعة فهى كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير » واعجب ما فى الامر ـ وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى ان البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر « وجهابـذة النثـر العربى جبلة وطبعا » ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوى وعبقريتهم فى القريض

ان نفوذ اللغة العربية اصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية أيقن بان العربية هى « **الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب** » كما يقول جورج ريفوار الذى اوضح ايضا ان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجاميعهم القانونية لتسهيل قراءتها فى الكنائس الاسبانية وان « جان سيفيل » وجد نفسه مضطرا الى ان يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس

اما فى فرنسا فقد اكد جوستاف لوبون فى حضارة العرب (ص 174) أن للعربية اثارا مهمة في فرنسا نفسها وقد لاحظ المؤرخ «سديو» عن حق ان لهجة ناحيتي اوفيرني

وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية وان الاعلام تتسم فى كل مكان بالطابع العربى »

وكان من الطبيعى ان يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامن الميلادى ـ كلا من فرنسا وايطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية على انها تركت اثرها فى مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها »

وقد لوحظ نفس التأثير فى صقلية حيث كان الملك روجير النرمندى يتسربل بالازياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من طابعه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنرماندية وقد كان اميرال صقلية متضلعا فى العربية وبالجملة « فقد صارت العربية ـ كما يقول الاستاذ فنتجو ـ لغة دولية للتجارة والعلوم »

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكر بعض الباحثين ان المفردات العربية التى دخلت الى الاسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الاسبانى بينما دخلت الى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية وقد صنف الاب ساسا باتيستا الذى ولد فى دمشق من ابوين عربيين قاموسا عام 1789 جمع فيه الكلمات التى اقتبسها البرتغال من العربية وهذا القاموس يقع فى مائة وستين صحيفة كما ألف دوزى وانجلمان قاموسا للكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وتوجد فى مكتبة الاسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية اسبانية صنفها علماء مسلمون (حضارة العرب) ص 166 ـ 474) وقد كان للمغرب حظه فى هذا التأثير اللغوى على الاندلس الذى استمر حكمه لها نحوا من ثلاثة قرون أما البرتغاليون الذين عاشوا فى المغرب فقد ذكر شافرو بيير فى كتابه عن تاريخ المغرب (ص 273) ان الجالية التى كانت بالمغرب فى القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية (1)

وهناك لغات اخرى كالمالطية (2) اقتبست معظم مفرداتها من العربية وقد أمكن

---

(1) اما اليهود المغاربة فقد لاحظ كودار (تاريخ المغرب ج 2 ص 455) أنهم اتخذوا لغة العرب لغة لهم منذ القرن العاشر الميلادى واعتبروها لغة للعلم فى مجموع افريقيا الشمالية ويمكن اعتبار الحبر يهودا بن قريش من ابرز هؤلاء نظرا لمصنفه القيم فى فقه اللغة المقارن الذى أهداه الى بيعة فاس

وكان سلطان مصر يستخدم نصرانيا فى ديوانه للكتابة بالعربية لما عساه ان يطرأ يوم الجمعة حيث كانوا لا يحضرون فى هذا اليوم بالديوان (خطط المقريزى ج 2 ص 227)

(2)ذكر احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب فى كتابه « الواسطة فى معرفة احوال مالطة » جملة من الموازنات بين لغة المالطيين العربية ولغة المغرب فلاحظ بينهما تقاربا كثيرا من شتى الوجوه مما يرجع كون عرب مالطة ينتمون لاصل مغربى الا ان فى اللغة المالطية نتفا من لغة الشام ولكن الالفاظ المغربية اكثر

الاستماع فى السنوات الاخيرة لخطاب فاهت به شخصية مالطية رسمية لم يعسر فهمه على المستمعين لا سيما وان اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربى ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب فى العالم العربى وقد أكد جوستاف لوبون (ص 472) « ان العربية **من اكثر اللغات انسجاما** فهى وان كانت تحتوى على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير ان هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها الا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ ان سكان قرية فى شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة فى قرى الجنوب نرى سكان شمالى المغرب الاقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز » وقد قال الرحالة بوكارد بان كل من عرف احدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عناء »

وقد اكتشفت فى صقلية لوحة مسيحية محررة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجرى بعد انتهاء الاحتلال العربى بستين سنة

واللغة الاغريقية نفسها اقتبست الشىء الكثير من العربية غير ان المقتبسات اتخذت شكلية يعسر معها ارجاعها الى الاصل العربى .

ومعلوم ان الجامعات الاوربية كانت عاملا مهما فى ذيوع اللغة العربية التى اصبحت فى العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل اصبحت **لغة دولية للحضارة .**

ففى عام 1207 م . لوحظ وجود معهد فى جنوة لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع المسيحى العالمى بعد ذلك تعليمها فى اوربا وذلك باحداث كراسى فى كبريات الجامعات الغربية وفى القرن السابع عشر اهتمت اوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية ونشرها ففى سنة 1636 قررت حكومة السويد تعليم العربية فى بلادها ومنذ ذلك انصرفت السويد الى طبع ونشر المصنفات الاسلامية وبدأت روسيا تعتنى بالدراسات الشرقية والعربية على الخصوص فى عهد البطرس الاكبر الذى اوفد الى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفى عام 1769 قررت الملكة **كاترينا** اجبارية اللغة العربية وفى عام 1816 احدث قسم اللغات السامية فى جامعة بتروكراد .

وقد اتجه اقتباس اوربا من العربية نحو الميدان العلمى فدخلت الى اللغات الاوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الاسبان حسب ليفى بروفنصال ـ معظم اسماء الرياحين والازهار من العربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموع مصطلحات الرى تقريبا هى كذلك من أصل عربى كما تحمل الحلى فى اسبانيا اسماء عربية ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها امريكا اللاتينية من اللغة العربية الشىء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

وقد لا حظ عالم ايطالى كبير أن معظم التعابير العربية التى تغلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعمارى ولكن بفضل **اشعاع الاسلام الثقافى .**

بل ان الاصطلاح الخاص بالكنيسة تأثر الى حد بعيد بالطابع العربى فقد اعترف البارون كارادوفو مؤلف « مفكرو الاسلام » وهو مسيحى متحمس بأن الاسلام علم المسيحية منهاجا فى التفكير الفلسفى هو ثمرة عبقرية ابنائه الطبيعية وان مفكرى الاسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التى استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك اكمال عقيدتها جوهرا وتعبيرا وهذه ظاهرة لاسيما اذا اعتبرنا ـ مع مؤلف « وجوه الاسلام » ـ « مدى مساهمة الفلسفة الاسلامية فى تكوين علم الكلام خلال القرون الوسطى والدور الذى قام به فى ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على اشهر مفكرى المسيحية

واذا كان قد قدر للعرب ان يقوموا بدور ما فى عصر الجاهلية فانما كان ذلك عن طريق اللغة التى كانت انصع عنصر فى حياة العرب وقد دعا فولفنسن فى كتابه « تاريخ اللغات السامية » (المشارقة المتكلمين بلغة الضاد الى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمة اجدادهم وبالدور الذى قاموا به فى حضارة العالم القديم ثم أكد أن المستشرقين الذين نددوا بالعروبة وبالاشعاع العربى لم يهدفوا الا لغايات دينية واستعمارية)

وقد عبر الاستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا : **ان المنهاج العلمى قد انطلق اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الاوربية » .**

ثم قال : « ان العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية ان تضفى سربال الفتوة على التفكير الغربى كما انعشت « الف ليلة وليلة » فى القرن السابع عشر الميلادى ذهنية اوربا التى اتخمتها اساطير الاغريق والرومان »

ثم يواصل ما سينيون وصفه الرائع قائلا « **ان اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولى وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم فى المستقبل »**

الفصل السابـع .

النشاط العلمي (1)

كتب الاستاذ ماسينيون فى كتابه المغرب فى السنوات الاولى للقرن السادس عشر بحثا قيما عن الجغرافيين المغاربة وعن المحاولات التى قاموا بها لتحديد تخوم المغرب فى دوائر الاطوال والعروض ولا يخفى ان جغرافية البلاد المغربية قد اهتم بها أمثال على المراكشى وابن العذارى وابن أبى زرع وابن خلدون والتجانى واليفرانى والقيروانى والعبدرى والادريسى وابن غازى وابن بطوطة ومؤرخون جغرافيون آخرون شاهدوا المغرب وطافوا فى ربوعه كاليعقوبى وابن حوقل والبكرى والفزارى وابن اياس وسمعوا عنه كالفرغانى وابن خرددبه والاصطخرى والمسعودى والدمشقى وابى الفداء.

ولم تكن المعلومات الجغرافية تعدؤ فى القرن الرابع الهجرى مجموعة من البيانات عن طريق الحجيج وانساب القبائل فمعظم ما ورد فى مسالك البكرى لا يهم الا ناحية المغرب الشمالية الغربية ثم جاء الادريسى فاضاف معلومات جديـدة تمس الخريطـة المغربية أما المؤرخون الاقحاح فانهم لم يكونوا يعرجـون على الناحية الجغرافيـة الا عند ما يصفون المدن التى مروا بها ومنهم من يحدوه التطلع وروح التنقيب الى التبسط فى جغرافية ناحية بكاملها كما فعل ابن خلدون فيما يخص تامسنة ودرعة.

والخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس مثال ذلك الاصطخرى الذى لم يحقق الحدود المغربية ولم يثبت من اسماء المدن والنواحي الا اثنين وهذا بخلاف الادريسى الذى زاد على اطوال بطليموس تحديد مواقع الميناء والانهار والجبال ثم سجل ابن سعيد الغرناطى سلسلة من الاطـوال والعـروض لمختلف المدن المغربية التى حدد مواقعها تحديدا يقارب تحديد الادريسى ولكن العمل الجليل الذى كلل كل تلك الجهود هو الذى قام بـه ابـو الحســن على المـراكشى الذى قاس بنفسه اطوال وعروض سبع عشرة مدينة مغربية وبذلك جاءت خريطته اقرب الى الحقيقة من خريطة الادريسى وهذا شيء معقول لان بتجمع الملاحظات التى تتوافر مع الزمان تتضح كثير من النقط الغامضة فاتضاح خريطة المراكشى لا يقدح اذن فى ضلاعة الادريسى الذى وصفه كوتيى فى كتابه (عادات واعراف المسلمين)

(1) نعرض هنا للجغرافيين وحدهم وقد أفردت كتابا لتاريخ الطـب والاطبـاء وبحوثهم وتجاربهم كما خصصت كتابا ءاخر لدراسة نظريات ابن الخطيب الفلسفية وكتابا للفن والفنانين المغاربة باللغتين العربية والفرنسية .

الفصل الثامن :

الحركة الفكرية في العصور الحديثة

لعل من التعسف ان نقسم عصور المغرب الادبية تبعا لعصوره السياسية كما فعل الكثير من كتاب العصر بخصوصي الادب العربى لان هذا الاسلوب لا يخلو من الافتعال وارى ان اضمن وسيلة لدراسة عصر من العصور هى التمهيد له بنظرة عن الحالة الفكرية فى القرن الذى يسبقه ثم الاسترسال فى دراسة العصر الـذى هو موضوع البحث اذ ينتج عن ذلك اصطدام الباحث آليا بالفروق البارزة التى تميز بين العصرين فيسهل حينذاك رسم الحدود .

ان تاريـخ حركـة الفكر بالمغرب مهمة شاقة نظرا لقلة المصـادر وانتشـار الوثائق - على ندرتها - بين طيات كتب قد لا يخطر ببال مؤرخ الثقافة المغربية أنها مظان محتملة لما ينتجعه من معلومات فقد تجد مستندات ادبية فى كتـب الفقه والتصوف وقد تعثر على اروع القطع الشعرية فى كتب الفتاوى أو الحوليات السياسية وقد تظفر بدقائق تلقى ضوءا على خوافى التيارات الادبية بين ثنايا كتب التراجم التى تكاد تحتكر عالم التاليف فى جهازنا الثقافى .

وبالجملة فمصادر تاريخ الفكر فى عهد الشرفاء تذهب من الكتب الفقهية كالدر الثمين لمبارة والمعيار للونشريسى ، الى كتب التاريخ كمصنفات ابن القاضى والفشتالى والافرانى الى الرحلات كمحاضرات اليوسى ورحلة العياشى الى كتب التراجم كالدرر المرصعة ومرآة المحاسن ونشر المثانى الى اراجيز كالاقنوم الى كتب ادبية صرف كالانيس المطرب للشريف العلمى .

واستقراء هذه المصادر كلها قد يرسم فى ذهن الباحث صورة لانقول واضحة ولا تامة عن خصائص الحركة الثقافية ومميزات الناتج الفكـرى وعـن الـروابط أو الفروق التى يمتاز بها هذا العصر عن ذاك وهذه الطائفة عن تلك وهذا الفريق من المحدثين والفقهاء عن ذلك الرعيل من الشعراء والمتأدبين والمؤرخين ، والمعلومات التى تكتمل تحت ضوئها صورة الجهاز الفكرى بالمغرب هى عبارة عـن فسيفساء يستلزم التوفيق بين نوازعها ان لم نقل مناقضاتها شيئا غير قليل من الاصطبار والاناة اذ بقدر ما تختلف المصادر بقدر ما تتنافـى الالوان والنزعـات واساليـب الحكم والتقدير .

وقبل أن ندخل صلب الموضوع نود ان نحلل الخصائص الكبرى المشتركة بين العصرين السعدى والعلوى فى الميدان الفكرى : ففى كليهما كان لفاس مركز الصدارة

والاشعاع وفى كليهما اتحدت مناهج التدريس فى القرويين وغيرها من الجوامع كما اتحدت اساليب البحث وطرق التنصيف مع اختلاف طفيف فى الموضوع غير ان جامعة فاس ازدادت صدارة في عصر العلويين بعد ان انهارت المراكز العلمية التى كانت تزاحمها كزاوية الدلائيين او تقلصت كزاوية الناصريين.وقد كان كل منهما مقصد رواد المعرفة ومجمع العلماء والشعراء والمتادبين ، ولكن هذا الانقلاب لم يمس المجموع بل كان مجرد انتقال من جهة الى جهة لان العناصر الثقافية التى كانت تمد زيان وتمغروت ظلت عاملا قويا فى توطيد الحركة الفكرية فى المغرب ولكن بقدر ما تضاءل اسهام الدلائيين خلال العهد العلوى بقدر ما تضخمت مشاركة الناصريين فى نشر الثقافة بالروع السوسية خصوصا والجنوب عموما غير ان المدارس الفكرية ظلت هى اسلوبا وروحا وغاية .

ولعل أقرب الاساليب الى توضيح الفروق بين العصرين ـ ان كان هنالك كبير فروق ـ هى استعراض صور الشخصيات العلمية والادبية التى برزت فى كل من العصرين.

فاقطاب العلم فى الدولتين كانوا ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات وكان هؤلاء العلماء يشعرون بالرغبة فى الاتصال بعلماء الشرق كما كان المشارقة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب فى شخص افذاذه امثال ابن سليمان الرودانى والمقرى وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوى وغيرهم لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية كلها يتمم بعضها بعضا فى هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظه المقرى وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والمغرب فى الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق فى ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل فى البحث اللفظى مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار ، وبينما غلب على تآليف المشارقة الايجاز (عدا البعض كالغزالى والفخر الرازى) مع انحصار فى الموضوع سواء فى التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون فى الاستطراد . واذا كانت صناعة التاليف قد انتهت فى علماء المغرب على صناعة اهل المشرق فى شخص ابن البناء المراكشى فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه

من البداوة) غير ان الامر لم يبلغ الحد الذى زعمه ابن خلدون فى المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم (1) على طريق النظار لان التحقيق العلمى ظل طابع الكثير منعلماء عهد الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد فى المنهج وايغال فى استظهار النصوص حيث ادى الحال فى بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف فى الاستظهار تجاوز المتون الى معاجم اللغة ولكن هذا الاسلوب الذى كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسق بين واعيته وملكته التصورية قد ضخم على العكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة اعداد الادباء والشعرآء فى سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوى خاصة بارزة ولا يعزب عنا ان ابن القزاز البربرى هو الذى صحت عليه اللغة بالاندلس بعد ابى على البغدادى وان اهل شنقيط أقرب الى

---

(1) قال ابن خلدون : « لم نشاهد فى المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لاجل انقطاع ملكة التعليم عنهم ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة بل قصرت هممهم واقتصرت على طريق تحصيل القراءة ودروس التهذيب فقط نعم اخذوا شيئا من مبادىء العربية من اهل الأندلس مثل ابن ابى الربيع والشلوبين وغيرهما لوجود ملكة النحو فى قطر الاندلس بسبب رحلة علمائهم الى تلقيه من اربابه بالمشرق كما ارتحل اعلامهم الى بغداد فى تحصيل علم الفقه عن الابهرى وكذا يحى بن يحى عن مالك وغير واحد وكذلك علوم الحديث كرحلة الامام ابى بكر بن العربى (نشر المثانى ج 2 ص 97)

وهذا يناقض ما ذكره على بن ميمون الحسنى فى تاليف له استطرد فيه الكلام على فاس فقال : « ما رأيت مثلها ومثل علمائها فى حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وغزر الحفظ لنصوص امامهم الامام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب وعلم الوقت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وسائر العلوم العقلية كل ذلك لابد فيه عندهم من حفظ ذلك الفن ... ما رأيت مثلها ومثل علمائها »فى سائر مدن المغرب لا فى مدينة تلمسان ولا بجاية ولا تونس ولا اقليم الشام بأسره ولا بلاد الحجاز فانى رايت ذلك كله بالمشاهدة ولا بمصر على ما تفرر عندى من العلم اليقينى بمشاهدة اناس من أهلها » (سلوة الانفاس ج 1 ص 74)وقد تحدث عبد الواحد المراكشى فى المعجب (ص 221) عن فاس فقال : « هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا (أول القرن السابع الهجرى) وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة .. رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهى اليوم على غاية الحضارة وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم افصح اللغات فى ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب .... « الى ان قال : ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطنا ولا جعلوها دار مملكة لانها خير من مدينة فاس فى شىء من الأشياء ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة »

عناء حضور دروس العلماء فى القرويين كالشيخ اليوسى ويتحف رجال الادب بالهدايا بآلاف الدنانير وبالرغم عن حركة التحرير الواسعة التى قام بها المولى اسماعيل فان بناء المدارس ظل موصولا حتى بلغ منتهاه ايام حفيده المولى محمد بن عبد الله الذى نشر العلم واسس عشرات المعاهد فى «المداشر» والقرى وتعاطى صناعة التأليف وطور مناهج التدريس والتصنيف .

فنحن نرى اذن ان القرنين العاشر والحادى عشر موسومان بسمات مشتركة على وجه العموم الا ان بعض المميزات قد تضعف هنا بينما تقوى هنالك وسنأتى بأمثلة حية نستقيها من حياة الكتاب والشعراء وقد ادى انبساط الا من فى العهد الاسماعيلى الى استمرار الاتصال بين نقط المغرب المتنائية فامست العواصم العلمية الحضرية مهبط العلماء من اقصى الجنوب وقد عرفت هذه الحواضر سوسيين أفذاذا منهم التمنارتى الشاعر المؤرخ وأحمد البوسعيدى والمرغيثى الشاعر الفلكى الطبيب وغيرهم . وكانت العائلة الفاسية احد العناصر التى تتولى الزعامة فى العاصمة العلمية ولكنها اصبحت مزاحمة فى العصر العلوى من طرف الدلائيين (الذين نبغ منهم خلال القرن الحادى عشر اثنان هما محمد المسناوى ومحمد بن عبد الرحمن) والقادريين والسوديين وغيرهم وبينما كان الدلائيون والناصريون يتقاسمون آخر ايام السعديين النفوذ الثقافى فى بادية اقصى الجنوب وبعض نواحى الاطلس أصبح هذا المركز الاخير ميدانا يكاد يحتكره الشرقاويون الذين لم يكن نشاطهم ثقافيا اكثر منه صوفيا كما كان الحال بالنسبة للزاويتين الدلائية والتمغروتية .

وقد عرف العصر العلوى اطباء من بينهم المرغيثى المذكور وابن زاكور الذى ذيل ارجوزة ابن سينا فى الطب وعبد المجيد المنالى الشاعر الصوفى الطبيب وآل أدراق البرابرة الذين توارثوا مهنة الطب ابا عن جد وابرزهم عبد الوهاب وقد وصل هؤلاء الحلقة التى بدأها فى المغرب بنو زهر وبنو افلاطون الفاسيون فى العهدالموحدى.

وقد امتاز العصر العلوى بظواهر منها دخول عائلات اسرائيلية فى الاسلام ونبوغ علماء افذاذ منهم لا سيما فى فاس ووفرة التآليف لا سيما منها تراجم الصوفية والروح الفقهية والحواشى والذيول والاراجيز ، وظهور انماط جديدة من التاليف كمحاضرات اليوسى وقانونه واقنوم عبد الرحمن الفاسى ورحلة العياشى وكلها تعد دوائر معارف لما كان يروج فى ذلك العصر على أن الانيس المطرب للشريف العلمى يعد ايضا فتحا جديدا فى ذلك العصر لصبغته الادبية الصرف وتخصيصه تراجم ضافية لاثنى عشر من ابرز ادباء العهد العلوى كالحلبى وابن زاكور ومسعود المرينى والعربى الشرقى والمهدى الغزال وعمر الحراق والبوعصامى الموسيقار وغيرهم وسنتعرض لخصائصهم الادبية منظرين بينها وبين ما امتاز به بعض شعراء وكتاب الدول المغربية السالفة او الامصار العربية الاخرى .

ومن الظواهر التى امتاز بها العصر العلوى حرية النقد حتى ان محمدا الضعيف مؤرخ الرباط كتب صفحات نقدية شديدة اللهجة ضد العائلة العلوية كما كتب

الدراسية تختلف نوعا ماعنها فى المغرب وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التاليف تتسم بميزات من طراز جديد فنرى العياشي يحاول ان يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو يحدثنا عن شراب البن فى الشرق مشيرا الى انعدامه اذ ذاك بالمغرب كما يصف لنا يوم المحمل بمصر ثم لا يلبث ان ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم معرجا على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم البالغ ثمانية عشر الفا ثم يدرج فوائد طريفة كاستيناس المصريات المترفات بشراء ريال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوع هذا النوع من التاليف فى الوسط المغربى يحدث اثره السريع .

وقد اغرق العلماء فى التصنيف حتى بلغت تآليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز ميزات العهد العلوى يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف فى الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والاداب ولكن اذا كانت بعض المصنفات صورة صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسى فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تترك مجالا لانبثاق ذاتية المؤلف مما يفقدها الروح والمتعة فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير فى النفس حب التطلع وروح الانسياق مع المؤلف حتى ليخيل للقارىء أنه يعيش فى ذلك العصر وهل هنالك لوحة تاريخية ابلغ من تلك الصور المتتالية التى يرسمها اليوسى فيشخص فيها الادباء فى مساجلاتهم والصوفية فى حضراتهم والملبسين فى دعاويهم والعوام فى خرافاتهم وتشبه الرحلة اليوسية رحلة أحمد ابن ناصر من حيث الافاضة فى الحديث عن الشرق

ثم ينبثق القرن الثانى عشر فيتسع نطاق النشاط الفكرى ويتضخم التنوع فيظهر امثال الزيانى والوزير الغسانى والشريف العلمى .

فالزيانى مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو باسلوب البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه فيكشف عن الحياة فى جزء من القارة الاوربية وينطبع اسلوبه التاريخى بمنزع جديد لانه يحاول مزج وصف الاحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية أما رحلة الغسانى الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت ادباء المغرب اذ ذاك باساليب الحياة فى بلدان مسيحية ووصفت المجتمعات الاوربية وحياة البلاطات والطبقات الارستقراطية الاسبانية وتجد الشريف العلمى يفرد ادباء وشعراء بتاليف خاص فيتجه بالتصنيف اتجاها فنيا يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات اجراها المؤلف مع اثنى عشر من معاصريه كالحلبى وابن زاكور ومسعود المرينى والغزال والبوعصامى غير ان (الانيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذى كان يصطبغ به التصنيف فى القرن الثانى عشر رهو الانتشار وعدم التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية بقلائد العقيان أو المنتقى المقصور . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذى هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاى امنت البلاد واهلها ... فلله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلبى مطلعها :

يارب انى ضعيف هالنى الوجل ما حيلتى يوم هول العرض ما العمل

وأخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد الصياغة) صدرها بقوله :

اتـق اللـه مـا استطعـت فـان اللـه ربـى مـع الـذيـن اتقـوه

هذا مع ان للحلبى مقامات عارض بها الحريرى ولابن زاكور (عنوان النفاسة فى شرح الحماسة) (ثلاثة اسفار) و (ومقياس الفوائد فى شرح ما خفى من القلائد) والصنيع البديع وشرح المقصور والممدود وشرح لا مية العرب والمعرب المبين وغير ذلك

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء هذا العصر فالشاعر مسعود المرينى (واعظ المدينة المرتدى بالوقار والسكينة) الذى له تآليف فى التصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن الفارض يقول فى مطلع قصيدته :

يـارب انك موجـدى ومكونى ومدبـرى ومصورى ومشكـلى

وفى اخـــرى :

سهام المـوت راشقة النبـال ونحـن مـع البطالة لا نبـالى

ولكنه يقول ايضا :

طـيـف الـخيـال تعـرضـا اخــذ المقـام واعـرضـــا
واثـار وجـــدا كـــان فـــى طـــى الاضـالـــع اجهضـــا

ويقول فى رسالة التزم فيها السين محتديا ابن الخطيب :

ســلام كنسمـة مسـك سرت لانفاسكـــم بنسيـم سحـــر
لســاحتكـم ساقـه مستهـام سباه سنـا حسنكـم وسحـر

ومن شعراء العصر ايضا محمد ابن العربى الشرقى (شاعر الاوان الذى لم يشتمل على مثله ديوان) القائل فى حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر لا يطلق الا على من وقف فى حرم المعانى بكل المشاعر أما من سلك طريقة واحدة فـآراؤه فاسدة وبناؤه على غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر الذى كان شعراؤه يستوحون من خيالهم وعواطفهم المتاججة مثلما يستوحون من ارواحهم المضطلعة بأوار التقوى وفى ذلك الحوار الذى دار بين هؤلاء الشعراء وبين الشريف العلمى الوان شتى وضروب مختلفة للآداب والفنون التى كانت رائجة فى ذلك العصر .

وبعد ما يذكر العلمى شعراء معاصرين آخرين امثال أحمد عمور نراه يعرج على كتاب العصر كالمهدى الغزال القائل فى وصف راقصة :

قـامت بكـاس الراح راقصـة بين الغوانى رقصهـا يطـرب
كانها والكـأس فـى يدهـــا بـدر تبدى حولـه كـوكـب

وفى وصف بستان :

انظر الى الروض وقــد نشرت عليه اوراق مــن الياسميـــن
يحكى بساطا ناعما صيغ مـن زبرجـد يعلـوه در ثميـــن

ولكنه يقول ايضا متاثرا بنزعة العصر

الموت لا شك آت وكل آت قريب
فشب وثب قبل ان يعتريك منه وثوب

ومنهم الوزير الكاتب عمر الحراق القائل في ديوانه أنه يفاخر بمسقط رأسه شفشاون :

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما نيل بمصر وما العاصى لدا حلب
فى جنب شفشاون الغراء ان فخرت بتينها وبزيتون وبالعنب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التعاريض فى الضروب والاعاريض) الذى رثى وغزل وجد ما شاء وهزل) والاديب البوعصامى (بليغ مصره وامام الادباء فى مغربه وعصره رحل الى المشرق ، وطلع عليه كالبدر المشرق) القائل :

محى بدمع كالعقيق محاجرى شوقا لطيبة والعقيق وحاجرى

ولهذا الشاعر باع طويل فى ترتيب النغمات الثمان التى عليها مدار الغناء والالحان ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

اسقيانى كؤوس بنت الدوالى ان عرانى السقام فهى الدوالى

الى ان قال :

كم ليال قطعتها فى نعيم حفظ الله عهد تلك الليالى
بين راح وشمعة ومغن وظباء قنصتها باحتيال

والكنه ينفعل (لنزعة العصر) فيقول :

رب يسر لعبدك الفتح واشرح صدر من صدره من العلم خال

ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر مطبوع ... واديب همام) القائل :

عذيرى من هوى غصن رطيب اراني البدر من فوق القضيب
مليح فاتر الالحاظ طفل صبوت لحسنه بعد المشيب

ومنهم الحاج على مندوصة كلامه (يغار منه امرؤ القيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس القائل :

الى كم فدتك النفس ترمى فؤادنا بسهم نضى اللحظ اريا شه هدب

الى ان قال :

فدوتكم ربات قرط خريدة مفوفة هيفاء هام بها الحب
مبرقعة لمياء غضة بضة سوى انها عذراء ناهدة عرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك ان شعراء العصر العلوى الاول مراتب فهم بين فحل (يتصرف فى فنون الكلام كثير الاغراب لا يعلم له مراد ولا يفهم من ابياته الا الافراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمى فى انيسه امثال عبد الواحد البوعنانى مفتى فاس الذى هنأ المولى اسماعيل على تحرير العرائش بقوله :

الا أبشـر فهـذا الفتـح نـور　　　قد انتظمـت بعزكـم الامـور

وقد وصف اشرئباب اعناق المدن المختلفة الى التحرر على يد السلطان فقال :

ووهران تنـادى كـل يـوم　　　متـى يأتـى الامام متـى يزور

وقال قبله :

اذا مـا جـاء سبتة فى عشـى　　　تنـاديه اذا كـان البكـور

ومنهم عبد السلام بن حمدون جسوس القائل :

رفعـت منازل سبتة اقوالهـا　　　تشكوا اليكم بالذى قد هالها
مـع بـادس وبريجة فتعطفوا　　　وتنبهوا كى تسمعوا تسآلهـا
فلقد قضيتم للعرائش حـاجة　　　مع طنجة فاقضوا الذى آمالها
وارفع لهذا المغرب رأسـا انـه　　　فى الضعف ما دام العدا انزالها

وقال عبد السلام القادرى :

علا عرش دين الله كل العرائش　　　وهد بنصر الله قصر العرائش

تلـك الوان خـاصة من الشعر الوطنـى الـذى يحـاول فيه الشـاعر التعبير عن آلام الشعب وآماله .

وعند ما قام المشاغب ابو حفص الوقاش يدعى الملك قائلا :

انا عمرالموصوفبالبأسوالندى　　　انا عمر المذكور فى ورد الجفر

اجابه ابن بجة الريفى بقصيدة منها :

فى صفحةالدهر قد خطتلناعبر　　　منها ادعـاء الحمـار أنـه بشر

وهذا لعمرى ابدع فى فن الاقذاع .

وفى هذا العصر كانت زاوية شرقاوة فى ناحية تادلا محفلا للاداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء فشملت بعطفها كثيرا من الادباء الذين وجدوا فى ربعها المقام الرحب كالافرانى الذى بدأ حياته التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسى وهونموذج للنثر (الفنى) فى ذلك العصر اما الزاوية الناصرية فقد احتفظت باشعاعها فى الجنوب وفى (الدرر المرصعة) لمحمد المكى الدرعى صور ناصعة لآثار هذه الزاوية فى العلم والاداب والكتاب ينطوى على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منهـا مقطوعات كلهـا تفجع على اهل الدلاء كقول العربى الفاسى :

ادار بذات السدر فى الجانب الشرقى　　　سقاك الحيا مادام صوب الحيا يسقى

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

المم بدرعة واختر للنزول بها　　　زاوية الفضل مأوى المجدوالكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمى الشكلنطى الرباطى :

ياحاديا اسرع بذات الزمـــام ... وارع رعاك الله حق الذمـــام
فاننــــى امسيت ذا قلـــق ... من شدة الشوق وفرط الغرام

وقـــــال

ورشـــا مــن آل يـــــافث ... لحظـه بالسحـر نـــــافث
يخطـأ السيـــن الى ثـــــاء ... المثــــانـــى والمثالث
قلـت جدلى بوصــــال ... قـال دع عنك الوثـــاوث

وتذكرنى هذه الابيات بالبيتين الذين ساقهما الجاحظ فى البيان والتبيين :

والشـــغ رأيتــــه ... يفعـل مـا لا ينبغــــى
قلـت لـــه انـــت بـــرى ... قـــال بـلى انـــا بغـى

ويمكن القول بان تلك النهضة الادبية الرائعة التى عمت بلاد سوس فى العهد العلوى حتى تفتحت القرائح عن ابدع ما انتجه الفكر المغربى — انما يرجع فضلها للحركة الناصرية التى نشرت العلوم والفنون الى تخوم الصحراء .

وهذه العجالة تضيق عن استعراض النماذج المختلفة للحياة العقلية فى العصر العلوى ولعل فى كتاب (نشر المثـــانى لاهل القرن الحـــادى عشر والثـــانى) لمحمد القادرى مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف فى مجموعه عن سابقيه فقد امتدت الى اوائله حياة رجلين هما محمد التاودى ومحمد المنالى الزبادى اللذان مات كلاهمــا عام 1209 وكانا انموذجا جديدا لعلمــاء يحرصون على انتـــاج الشرق للتبحر فى علوم لم تكن منتشرة فى المغرب واذا اردنا أن نأخذ صورة عن هذه العلوم التـــى كـــانت اساس الدراسات فى الازهر فلنرجع الى سند الشيخ احمد بن عبد المنعم الدمنهورى المتوفى عام 1196 حيث ذكر انه تلقى فى الازهر (الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات واسباب الامراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الارتماطيقى وعلم المزاول وعلم الاعمـــال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم الترشيح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم) ويــلاحظ ان العلوم الريـــاضية والكيمـــاوية لم تكن تدرس وقد صرح شيخ الازهر لاحمد باشا كور عندما تولى حكم مصر عام 1161 ان الازهر لا يعرف الرياضيـــات وقد حارب الازهريون الجهود التى بذلها الافغـــانى عند دخوله الى مصر عام 1288 هـ لنشر العلوم الريـــاضية والطبيعية والفلسفة . ومع ذلك فقد كانت تروج فى الشرق علوم متداولة بالمغرب الا عند القليل من الخواص فلذلك اتجه التاودى والزبادى الى الشرق حيث طال مكث الاول ولقى الشيخ مرتضى وهنالك آخرون مثل عبد القادر الكوهن الذى مات بالمدينة بعد أن ترك لنا وصفــا لرحلته الاولى الى الشرق .

وممن نبغ فى هذا القرن من رجال الفكر ابن عجيبة الذى تحتوى فهرسته على معلومات حول الحالة الفكرية فى تطوان وسليمان الحوات الذى جمع فى البدور الضاوية اجازات الدلائيين ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون ابن الحاج الذى ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى سليمان الذى حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد بن ادريس الفاسى :

ليس الا ابا الربيع ربيع خلقه الجود والهدى والوفاء
بسليمان قد سلمنا وسرنا فالعلى منزل له والعلاء
كفه كفت وكفت الفساد كل عاد فمالكم اكفاء

وبلغ صدى المفاخر السليمانية تونس الشقيقة فتحركت شاعرية فحلها الهمام ابراهيم الرياحى الذى نظم فى ابى الربيع قصيدته الخريدة التى مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذى رد الخلافة غضة وسما به للمسلمين منار

وابرز ما امتازت به العقود الاخيرة لذلك القرن الماضى تقلص التصانيف الصوفية على اثر الحركة الوهابية التى اثارت ايام المولى سليمان موجة من التعاليق والمساجلات عقب وصول استفتاء من ابن سعود الى علماء فاس وقد تصدى المولى سليمان نفسه للتاليف فى الموضوع حيث اصدر رسالة فى بدع العوام من الطرقيين.

وكان من أهم وسائل نشر العرفان وتوطيد الحركة الفكرية بناء المدارس الوفيرة فى انأى النواحى ويكفى انالمولى محمد بن عبد الله شيد ست مدارس فىقصبة مراكش
انأى النواحى ويكفى ان المولى محمد بن عبد الله شيد ست مدارس فى قصبة مراكش
وحدها وقد كان للملوك العلويين تدخل مباشر فى توجيه الحركة الفكرية فهذا المولى محمد بن عبد الله الملك العالم يضع منهاجا جديدا للتدريس اساسه المطولات والموسعات من مصادر الفقه والاصول وعدم الخوض فى جدليات علم الكلام والاقتصار فى الاعتقادات على الكتاب والسنة . وهذا المولى سليمان يبذل الاموال الطائلة فى تشجيع الطلبة على استظهار المتون كمختصر خليل وقد عرف قبلهما محمد العالم نجل المولى اسماعيل كيف ينهض الحركة الادبية فى سوس حيث كان خليفة عن والده وكان هو نفسه ضليعا فى شتى الفنون .

وقد اتصل حبل الادب على الطريقة التقليدية فى النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات التصنيف فى نطاق محدود على غرار القرون السالفة مع ايغال فى الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية تجرد عالم التاليف من كل روح ولكن المغرب دخل منذ بضعة عقود عهد انبعاثه لا سيما فى العصر المحمدى الذى ظهرت فيه على النسق الشرقى فى الحديث انماط والوان جديدة يهدف بعضها الى الجمع بين طرافة الحديث ومتانة القديم .

الفصل العاشر :

رسل الفكر بين المغرب والشرق

لعل ابلغ الروابط واعمقها بين الشرق والمغرب العربى قد تحققت على يد رسل الفكر الذين كانوايتوجهون من المغرب بالالاف (I) كل عام على مختلف اقطار الشرق فيصلون اسانيد الغرب باسانيد الشرق ويتبادلون الوان العلوم والفنون ويجددون الاواصر المتينة التى ما فتئت تتجلى منذ أزيد من الف عام فى الوحدة الفكرية والروحية القائمة بين جناحى العروبة والاسلام

وكانت لوفود المغرب الى الشرق اهداف مختلفة : فريق عابر يتجه الى الحجاز عن طريق طرابلس ومصر للحج والزيارة وقد يستفيد من العلماء الذين تجعلهم الصدفة فى طريقه وفريق ثان يقصد علماء معلومين للاخذ عنهم وفريق ثالث يستوطن الشرق او يقيم طويلا فى رحلات شيقة عبر آسيا والشرق الادنى ثم يعود الى المغرب وكان ملوك المغرب يوفدون فى الغالب ركبا رسميا للحج لتجديد الروابط مع حكومات الدول الشقيقة

ويحمل هذا الركب هدايا لامراء طرابلس ومصر والشام والحجاز واليمن وجوائز سنية لرجال العلم والادب فى كبريات العواصم علاوة على الاموال الطائلة التى توزع على الطبقات المعوزة وكان الشعب المغربى يسهم بحظ وافر فى هذه الاكتتابات الدورية ويوقف الاوقاف الضخمة لتركيز هذه المبرة

وقد ضرب المنصور السعدى المثل الاعلى لتثبيت اللحمة الروحية بين الشرق والغرب فبعث الى علماء مصر يستجيزهم رغبة فى توثيق الاسانيد فاجازه محمد البكرى وبدر الدين القرافى

وكان المنصورهذا يكرم العلماءفلذلك كثر عليه الوافدون من الحرمين وبيت المقدس ومصر والشام والعراقين والهند فاجتمع لديه مرة مدنى ومكى وقدسى(الاعلام للمراكشى ج I ص 47) ومن حسن سيرته ترجاه اهل مصر وغيرهم ان يكون ملكهم (ص 50)

ومعلوم ان المهدى بن تومرت ملك المغرب اجتمع فى الشرق بالغزالى والطرطوشى

(I) ذكر كودار فى تاريخ المغرب المصنف عام 1860 ان ثلاثة ءالاف مغربى يسافرون كل سنة الى الخارج منهم اربعمائة او خمسمائة الى اوربا والباقى الى الشرق (ص 242)

ودرس هنالك علوم الشريعة والحديث والاصول وقد ذكر ابن ابى زرع ان المهدى لقى مشايخ واخذ عنهم ونبغ فى الاصول ولازم الغزالى ثلاث سنين (2)

ولما توحدت مصر والشام والقدس تحت راية الايوبيين عام 583 انقض عليها المسيحيون من كل جهة وتتابعت اساطيلهم لاعتراض الاسطول الايوبى الرابض بالاسكندرية فاستصرخ صلاح الدين بالمنصور الموحدى طالبا اعانته بالاساطيل المغربية بمنازلة عكا وصور وطرابلس والشام واوفد الى مراكش ابا الحرث عبد الرحمن ابن منقذ الشامى فامده السلطان فى بعض الروايات بمائة وثمانين قطعة من الاسطول المغربى

ولما استولى ابو الحسن المرينى على المغربين الاوسط والادنى وجه سفيره فارس بن ميمون الى الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر والشام والحجاز ليعلمه بارتفاع العوائق عن ركب الحاج فى سابلتهم وتيسر المواصلات بين البلدين فعاد برسالة تؤكد روابط المودة ثم ما لبث ملك المغرب ان اقتنى ضياعا بالمشرق واوقفها على القراء ووجه وفدا فيه بعض الادباء مع هدايا ثمينة جدا احتفاء باخيه ملك الكنانة وقد احتفل الشعب المصرى بمقدم الوفد المغربى فى يوم مشهود وصفه ابن خلدون وابن مرزوق والمقريزى مؤرخ مصر الذى ذكر ان الاسطول السلطانى هو الذى نقل الهدايا المغربية التى كانت عبارة عن ثلاثين قطارا من بغال النقل سوى الجمال قيمتها مائة الف دينار أى مليون ونصف فرنك بالصرف الذهبى لذلك العصر أو نحو 300 مليون فرنك حالى وقد بودلت الهدايا بمثلها من منتوج مصر

وكان للادب تفتق فى هذه المناسبات فعندما وجه ابو الحسن مصاحف منتسخة بخطه الى الحرمين والقدس كتب ملك مصر توقيعه من انشاء اديب مصر الشهير جمال الدين ابن نباتة فى الثناء على شقيقه ملك المغرب

وعندما توفى ابن قلاوون اوفد ابو الحسن عام 745 هـ بعثا الى ابنه اسماعيل مع رسالة تعزية طويلة بليغة لتجديد « عهود موثقة وموالاة محققة والود الثابت الاركان » واخبره بالجهود التى يبذلها لانجاد الاندلس ثم أكد ان البلاد المصرية والمغربية هى « باتحاد الود متحدة والقلوب والايدى منها منعقدة » فاجابه ملك مصر برسالة بديعة من انشاء خليل الصفوى شارح لامية العجم .

وعندما كان امير الركب المغربى فى القاهرة حمله ملك مصر الظاهر برقوق هدايا من منتوج الكنانة الى ملك المغرب ابى العباس بن ابى سالم بن أبى الحسن

ومما يدل على اهتمام ملوكنا بمصر خاصة والشرق العربى بوجه عام ان سيدى محمد بن عبد الله حبس على مصر القاهرة والاسكندرية نسخا من ابن خلدون وابن

---

(2) اكد ملاقاته مع الغزالى اصحاب الحلل الموشية ورقم الحلل واليوسى فى محاضراته وصاحب نشر المثانى وصاحب تاريخ الدولتين والشيخ مرتضى ولم يجزم ابن خلدون فى تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الاثير فى الكامل

خلكان وقلائد العقيان والاغاني ونفح الطيب وتآليف ابن الخطيب السلماني (اتحاف اعلام الناس لابن زيدان ج 3 ص 251)

وقد جلب السلطان سيدى محمد بن عبد الله من الشرق كتب الحديث المهمة مثل مسانيد الايمة احمد وابى حنيفة والشافعي وكثير من مهم المتون والشروح كما رتب لاهل الحجاز واليمن مائة الف مثقال فى كل عام وفك عام 1200 هـ 48 الف اسير حتى لم يبق اسير مسلم فى الشرق ولا فى الغرب (1)

وكان الجيش النظامى الذى اسسه المولى محمد بن عبد الرحمن يعمل تحت قيادة ضابط مصرى (كودار تاريخ المغرب ص 141)

على ان علماءنا وادباءنا كانوا يلقون نفس الحظوة عند ملوك الشرق فهذا ابو الخطاب ابن دحية الاندلسى تجول بالاندلس والمغرب واستقر بالقاهرة فى كنف الملك الكامل ثم زار اصبهان وبغداد ونيسابور وشيراز ودمشق والقدس وسبتة وقد أخذ بالقاهرة عن أبى اسحق ابن أحمد ابن الواعظ المراكشي وكان له عند الكامل بمصر جاه عظيم وحظوة علية بعد العهد بمثلها حتى ليذكر أنه هم بنصبه خليفة وبعثه رسولا الى الناصر لدين الله ببغداد فبعثه هذا بدوره سفيرا الى بعض ملوك العجم وتوفى بالقاهرة عام 633 هـ (الذيل والتكملة)

والخطيب ابن مرزوق الذى ولاه السلطان الاشرف الوظائف العلمية بالقاهرة حيث دفن بين ابن الاشهب وابن القاسم (النيل ص 274) وكان يقول « ليس اليوم يوجد من يسند احاديث الصحاح سماعا من باب الاسكندرية الى البرين الى الاندلس غيرى » (ص 275) وقد توجه مجتهد المغرب عبد الله الورياجلى القصرى لياخذ العلم عن ابن مرزوق فقال له ابن مرزوق «ليس احد اعلم منك فرجع» (دوحة الناشر لابن عسكر ص 26) وقد الف ابن مرزوق لامير مصر كتابا سماه أشرف الطرف للملك الاشرف » أكد فيه ان ممالك مصر افضل المعمورة

وقد دخل تاج الدين بن حمويه السرخسى المغرب(2)من الاسكندرية بحرا ووصل الى مراكش ايام الامير ابى يوسف يعقوب المنصور واتصل بخدمته

وابو البركات عمر بن مودودالفارسى جال فى همذان وبغداد ومرو والشام ومصر

---

(1) فى عام 1199 هـ وجه سيدى محمد بن عبد الله الى أشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن مالا قدره ثلاثمائة الف ريال وخمسون الف ريال علاوة على صلات اخرى لاشخاص معينين (الاستقصاج 4ص115)

(2) محمد بن سعيد القيسى قاضى المولى ادريس من قيس غيلان سمع مالكا وسفيان الثورى (جذوة الاقتباس ص 13)

وابو جيدة حامل مذهب مالك والشافعي بفاس توفى سنة ثلاثمائة وبضع وستين له تآليف فى الوثائق الشافعية (السلوة ج 3 ص 93)

ملك صقلية » (الاعلام لعباس بن ابراهيم ج 3 ص 34) وهو اول من اكتشف ان النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء في حين ان الاوربيين لم يكتشفوا ذلك الا منذ عهد قريب (حضارة العرب لكوستاف لوبون الطبعة الفرنسية ص 508)

والرحالة ابن جبير الذى باع املاكه بفاس ورجع للمرة الثالثة الى الشرق عام 567 ﻫ وكان يتردد بين الحرمين والقدس والاسكندرية حيث مات بها عام 614 ﻫ (الاعلام ج 3 ص 90)

وابن رشيد الذى أخذ بالقاهرة عام 684 عن اعلام مثل خليل المراغى (درة الحجال ص 138) وعن ذى النون ابن الاسعد المصرى (ص 144) والزيانب الثلاث (ص 150) دخل مصر والشام واخذ عن عبد العظيم المنذرى وبدمشق عن الحرانى وبالحرم عن ابن عساكر كما فى رحلته المسماة «ملء العيبة واحضار ما جمع بطول الغيبة» ثم تحول الى فاس ومراكش توفى بفاس عام 721 ﻫ (ص 201 – 203)

وابو القاسم محمد العبدى الحاحى الذى رحل الى الشرق عام 688 ﻫ وكتب رحلة وقف عليها شيوخه بمصر وغيرها واستحسنها شيخه زين الدين بن المنير الاسكندرى ومن اساتذته ابو الحسن القرافى الذى له رواية عالية متسقة ببغداد والعراق ومصر وشرف الدين الدمياطى وابن دقيق العيد قطب مصر وعلمها (الاعلام ج 3 ص 197)

والرحالة ابن بطوطة الطنجى الذى زار مصر وفارس والهند والصين وجزيرة العرب والساحل الشرقى لافريقيا ثم الاندلس والسودان وقد ولد عام 703 ودامت رحلته 28 عاما

ومن التلمسانيين الذين استقروا بفاس ودفنوا بها محمد بن ابراهيم العبدرى الابلى قيل انه أعلم العالم فى عصره بفنون العلم دخل اخر المائة السابعة مصر والشام والحجاز والعراق ولقى بالديار المصرية ابن دقيق العيد وصفى الدين الهندى والتبريزى وقرأ بفاس فنون التعاليم حتى عبر فيها ثم لحق بمراكش فتضلع عن ابن البنا فى المعقول والتعاليم والحكمة ونظمه السلطان ابو الحسن المرينى فى طبقات العلماء بمجلسه وهو استاذ ابن خلدون توفى عام 757 ﻫ (السلوة ج 3 ص 274)

وعبد الرحمن ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ الاجتماعى المتوفى عام 808 وقد تولى خططا سامية فى تونس وفاس وتلمسان والقاهرة ، وقضى شطرا من حياته فى المغرب وقد تحدث فى مقدمته عن قواعد النقد التاريخى ودرس أصول المجتمع وتأثير الطقس فى الانسان وتطوره الاجتماعى حتى شبه بالفيلسوف مونتسكيو .

والحسن بن محمد الوزان الفاسى الغرناطى رحل الى فارس وبلاد التتار ثم رجع الى الاستانة عن طريق مصر واختطفه القراصنة الطليان قرب جزيرة جربة ويقال انه تمسح وانه رجع الى تونس حيث مات وقد ألف بالعربية وترجم للايطالية كتابه فى وصف افريقيا

واحمد الكاملي الضرير الدرعي الذى زار المشرق وما ترك بلدة عن المعمور الا دخلها برا وبحرا وكتب عدة رحلات وكان يقيم اياما فى كل بلدة ثم يرحل عنها ومكث سنة فى دمشق وهو متضلع فى عدة فنون وهو محدث كان يحفظ صحيح البخاري ومسلم بأسانيدهما وكتب الاخبار والاداب ودواوين الشعراء القدماء والمولدين سريع الحفظ كان يسمع القصيدة المرة الثالثة فيسردها من حفظه تلاقى فى الهند مع داود الكلكتي الذى عمره 200 سنة وتوفى ودفن بمراكش عام 1315 هـ (الاعلام ج 2 ص 244)

ومن علماء المغرب وادبائه الذين استوطنوا الشرق او جالوا مدة طويلة فى مختلف أنحائه فكان له تأثير فى الاقطار العربية او الاسلامية مروان بن عبد الملك ابن سنجون المواتي الطنجي الذى أقام فى الشرق سبع عشرة سنة يقرر الحديث والذى كان يقول « لم ادخل الى الشرق حتى حفظت اربعة وثلاثين الف بيت من اشعار الجاهلية » وهو من كبار الفصحاء فى طنجة (معجم البلدان ج 6 ص 62)

وذكر ابن دحية فى « المطرب من اشعار اهل المغرب » ان عبد الملك بن زهر طبيب الموحدين رحل الى المشرق وبه مارس مهنة الطب زمانا طويلا وتولى رياسة الاطباء ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (الاعلام ج 3 ص 63)

ومحمد بن احمد بن جراح الجياني المعروف بالبغدادى لطول سكناه ببغداد روى عن على الطبرى وجلب من تواليفه احكام القرآن واصول الفقه والرد على أحمد ابن حنبل حفظ كتاب البرادعى قبل رحلته واستقر بفاس بعد خروجه من جيان اوائل الموحدين وتوفى بها عام 546 هـ (السلوة ج 3 ص 267)

ومحمد بن عامر الحمصى رحل الى المشرق واستقر بحلب والشام واقرأ هنالك مدة ثم نقل الى المغرب واستقر بفاس وبها توفى بعد 570 هـ (ج 3 ص 267)

وعلى بن حنين الذى استوطن فاسا عام 503 ودرس بها ستا وستين سنة وتتلمذ للغزالى فى الشرق (السلوة ج ص 349) وقد عاش عبد الواحد المراكشى صاحب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب بالشرق حيث ألف كتابه المذكور وأقام بمصر عام 619 هـ (المعجب 161) كما رحل الى بغداد العالم الكبير ابو عمران الفاسى المتوفى عام 430 هـ (التشوف للتادلى ص 35 مخطوط المكتبة الزبيدية بالرباط) والى الشام ابو محمد صالح بن حرزهم تلميذ الغزالى (التشوف ص 38) وابو موسى عيسى ابن سليمان الرفروفى من تادلا اخذ عن الشاشي وعن الطرطوشى بالاسكندرية (ص46)

وذكر ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة ابن جعفون الازدى المتوفى بفاس عام 580 هـ وعبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الذى اقام فى الشرق طويلا وجلب دواوين من فنون العلم وعلى المحاربى وابن حنين الفاسى صاحب الغزالى جال فى العراق والحجاز ومصر وعلى الشلطيشى الطبيب دفين مراكش وعلى بن عتيق الطبيب الذى ضمن شيوخه المشارقة برنامجه الذى خرج به عن حد الفهارس الى كتب الامالى المفيدة

وابو زكرياء يحيى الدكالى الحافظ قدم فاسا وسبتة صحب ابن دقيق العيد كثيرا (الدرة ص 489)

ومفضل العذرى الذى ولاه ابو يوسف بن عبد الحق قضاء الجماعة بفاس وجعل له النظر على صاحبى الشرطة والحسبة تتلمذ لعز الدين ابن عبد السلام وابن عساكر وابن خلكان وهو اول من سن بناء المدارس بفاس اذ على يديه أسست المدرسة القديمة بالحلفاويين بفاس (جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 220)

وابو عمر ميمون بن ياسين اللمتونى سمع على الطبرى صحيح مسلم ومروان بن عبد الملك الطنجى اللواتى الذى سمع بمصر من ابن نفيس وابن منير (الذيل والتكملة)

ومحمد بن عمر بن نصر الفزارى السلاوى قدم الاندلس ورحل الى الشرق وروى عن اعلامه سنة 630 هـ (الذيل والتكملة)

ومحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمى الفاسى اقام بالمشرق خمسة عشر عاما واخذ عن عشرات الاعلام بالقاهرة وبغداد والقرافة ودمشق والصعيد الاعلى والاسكندرية والقدس وطرابلس وافريقية كما تتلمذ بمصر للاختين ست الكل وست العلم ابنتى عبد الله بن رفاعة السعدى وفاطمة بنت سعد الخير الانصارية بالقاهرة وتقية بنت الخطيب غيث الارمنازى وقد ضمن مشايخه برنامجه الحافل الموسوم بالنجوم المشرقة وقد حدث بالمشرق والمغرب وهو صاحب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وتوفى عام 604 هـ (الذيل والتكملة)

واحمد الشريشى سلوى الاصل نشا بمراكش واستوطن الفيوم بمصر اخذ عن أبى الحسن الابيانى بالاسكندرية وهو تلميذ عمر السهروردى وتوفى بالفيوم عام 641 هـ (الاعلام ج 1 ص 351)

ومحمد بن احمد بن ابى شاكر ابو عبد الله بن الظهير المراكشى المحتد درس بدمشق وقدم مصر وحدث عن كريمة بنت عبد الوهاب وعلى السخاوى وسمع باربل وبغداد ولد باربل عام 602 هـ (الاعلام ج 3 ص 195 نقلا عن بغية الوعاة)

وجمال الدين محمد بن ابى بكر البغدادى اصله من قصر كتامة له شيوخ ببغداد ودمشق والاندلس ومصر وهو صاحب الوتريات فى المدح النبوى وقد ورد على مراكش صدر 655 هـ ثم عاد الى مراكش واقام بها مدة وكان شافعى المذهب نظارا فيه حسن المأخذ توفى بتونس لدى قفوله الى مراكش للمرة الثالثة عام 663 هـ ومن خمس وترياته محمد الفاطمى الصقلى وطبعت بفاس (الاعلام ج 3 ص 152 بعضها نقلا عن الذيل والتكملة)

وعمر بن الطوير السوسى المراكشى شهر بمصر والحجاز بابى الخطاب السوسى تفقه بمراكش اخذعن الفقيه عبد الوهاب البغدادى اصول الفقه وتعليقة محمد بن يحيى فى مسائل الخلاف وهو أول من ادخلها الى المغرب واخذ بالاسكندرية عن الابيارى

وكان يحفظ البرهان لامام الحرمين وكان مستبحرا فى العلوم توفى عام 622 هـ (الذيل والتكملة)

ومحمد ابن المنذر المراكشى المتوفى عام 628 هـ نزيل حلب قدم والده الى بغداد وولد هو بها ولقى مولاى عبد القادر الجيلالى وسافر الى الشام وقرأ على ابن عساكر تاريخه ودرس ببغداد الحديث والفقه وكان فقيها غزير العلم عالما بالادب (الاعلام ج 4 ص 383 نقلا عن الذيل والتكملة)

وابن الحداد محمد الصنهاجى الشاعر المحدث الصوفى المكناسى انتقل للمشرق لامر قام عليه فيه الطلبة بخطبة قال فيها بان الله خلق ءادم على صورته (درة الحجال ص 208)

ومحمد ابن الخضار الكتامى التلمسانى السبتى سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق عام 634 (درة الحجال ص 282)

وعلى بن ميمون الحسنى المغربى الذى ترك لنا موازنة رائعة بين اقطار العروبة فى الاصالة العلمية ومناهج التحقيق الفكرى حيث أكد انه ما رأى احفظ من اهل فاس لنصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وسائر العلوم العقلية وذكر أنه ما رأى مثلهم فى ذلك لا فى بجاية ولا فى تونس ولا فى الشام والحجاز ومصر (سلوة الانفاس ج 1 ص 74) وله كتاب فى متفقهة ومتفقرة مصر والشام توفى بالشام (دوحة الناشر لابن عسكر ص25)

وعلى الحرالى ولد بمراكش ونشأ بها وتوفى بالشام عام 637 هـ كان يلقى فى التعليم قوانين تتنزل فى التفسير منزلة اصول الفقه فى الاحكام وكان اعلم الناس بالمنطق والطبيعيات والالهيات كان ينقض النجاة لابن سينا عروة عروة (نيل الابتهاج للسودانى ص 187 - 188)

ومحمد بن عمران الشريف الكركى ولد بفاس وهو شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية فى وقته يقال انه اتقن ثلاثين فنا من العلوم بل قال الامام شهاب الدين القرافى « انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس فى علومهم صحب عز الدين بن عبد السلام واخذ عنه القرافى (الديباج المذهب لابن فرحون ص286)

ويونس بن طربية القصرى (قصر كتامة) الذى تولى قضاء طرابلس الغرب وولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 641 هـ (الذيل والتكملة)

ومن الاطباء المغاربة الذين توجهوا للشرق محمد بن عبد العزيز المعروف بالحاج عزوز المكناسى احد الحفاظ والاطباء اخذ عن اعلام المشرق ثم عاد الى مكناس (نيل الابتهاج ص 322) وقيل مات فى الشرق (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 593) وكذلك على ابن يقظان السبتى الطبيب الشاعر الاديب الذى رحل الى مصر عام 544 هـ ثم الى اليمن والعراق (القفطى ص 160) وكذلك يوسف بن يحيى بن اسحق السبتى ابو الحجاج نزيل حلب ويعرف فى سبتة بابن سمعون كان طبيبا من اهل فاس

« وقرأ ببلاده الحكمة فساد فيها » (القفطي ص 256)

ومحمد بن علي المراكشي الاوسي نشأ بسلا وغادرها عام 618 ه وجال في الشام والعراق ودخل بغداد وتكريت والموصل ومصر والاسكندرية وروى عن شيوخ عدة ببغداد وحماة ودمشق ثم عاد الى مراكش وشرق ثانيا ولد بمراكش عام 595 ه وتوفي عام 671 ه (الاعلام ج 3 ص 162 نقلا عن الذيل والتكملة)

ومحمد بن سليمان المراكشي الصنهاجي من شيوخ الاسكندرية ومن المحدثين والمسندين بمصر مات عام 717 ه (الاعلام ج 3 ص 248)

واحمد المعافري المعروف بالوقاد توفي عام 741 ه انتقل الى الاسكندرية ودرس بها العلم وجده محمد المعافري العالم الرحالة هو دفين الاسكندرية (السلوة ج 3 ص 86)

وتاج الدين المراكشي وهو محمد بن ابراهيم بن يوسف (701 – 752 ه) ترجمة في الشذرات اخرج من مصر لشراسته وولي تدريس المسرورية بدمشق وقد درس بها بعده تقي الدين السبكي (الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي (ج 1 ص 458) وقد اشار النعيمي في الدارس كذلك الى ابي الحسن المراكشي المالكي المتوفي عام 625 ه (ج 2 ص 6) والى سالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي الدمشقي المالكي ، شيخ المدرسة الشرابيشية المولود عام 777 ه (ج 2 ص 22) والى قاضي القضاة شهاب الدين التلمساني المتوفي عام 873 ه وقاضي القضاة شهاب الدين احمد بن المريني المغربي (ص 23) وشمس الدين السلاوي عامل خانقاه خاتون دفين الصالحية (ص 109)

واسماعيل السوسي الطبيب ذكر العبدري في رحلته أنه لما وصل الى قاعدة الديار المصرية ونزل بمدرسة الظاهرية مريضا بعث اليه شيخه شرف الدين الدمياطي بالحكيم ابي الظاهر اسماعيل لعلاجه وهو فتى حدث السن رصيف العقل نافذ الفهم ما رأيت احفظ منه للطب ولا أحسن منه تصرفا ولا اذكر لنصوص كتب ابقراط (ولكن لا ادري هل هو من سوس ام سوسة)

ومحمد بن ابراهيم بن يوسف بن حامد الشيخ تاج الدين المراكشي ذكر ابن السبكي في طبقاته أنه ولد بعد السبعمائة ونشا بالقاهرة ، وقرأ على علاء الدين القونوي أعاد في القاهرة بقبة الشافعي ثم دخل دمشق ودرس بالمروزية وسمع من الحافظ المزي ثم ترك التدريس وانقطع بدار الحديث الاشرفية الى أن توفي عام 752 ه (الاعلام ج 3 ص 265) وذكر الحافظ في الدرر ان اخراجه الى الشام كان بامر من الناصر بعد استطالته على القاضي جمال الدين القزويني ومن مشايخه ابو حيان (ص 269)

وأحمد بن عبد الله الازدي المراكشي نزيل القاهرة ذكره صاحب الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة

والحافظ يوسف بن موسى السبتي ثم الفاسي روى البخارى عن الزبيدى والحديث عن ابن الصلاح توفى اخر المائة السابعة (الدرة ص 496) .

وابن المواق احمد التجيبى استظهر بمصر الموطا فضرب شيوخ المالكية الطبول على رأسه اشادة وتنويها توفى بفاس عام 725 هـ (السلوة ج 3 ص 244)

والشيخ التاودى بن سودة الفاسى الذى قال عنه الشيخ مرتضى الزبيدى فى شرحه للقاموس (مادة سود) « شيخنا المحدث الفقيه المغربى ورد علينا حاجا وسمعنا منه وسمع منه ايضا بالمدينة المنورة ومصر خلق كثير » (السلوة ج 1 ص 114)

وابن زكرى الفاسى دخل لمصر وناقش فقهاءها فى مسألة شرب الدخان وعقد علماؤها مجلسا لمناظرته فى جامع الازهر (السلوة ج 1 ص 83)

وأثير الدين أبو حيان البربرى النفزى المتوفى بمصر عام 745 هـ (السلوة ج 3 ص 278)

ويحيى بن موسى الرهونى الحافظ الاديب المنطقى استوطن القاهرة وتولى التدريس فى المنصورية والخانقاه الشيخونية توفى عام 774 (الدرة ص 490)

ومحمد بن سعيد الرعينى الفاسى المسند رحل الى المشرق واخذ عن اعلام مشارقة توفى عام 787 هـ (السلوة ج 3 ص 278)

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشى الاصل ثم المكى وصل الى مصر فسمع من شيوخها ثم رحل الى الشام والقدس واليمن حيث ولى مدرسة الناصر واقام بها مات عام 823 (الاعلام ج 4ص 50 وذيول طبقات الحفاظ)

ومحمد تقى الدين الفاسى الذى قال عنه الحافظ ابن حجر « وافقنى فى السماع بمصر والشام واليمن وغيرها وكنت اوده واعظمه » توفى عام 842 هـ (نيل الابتهاج ص 318)

ومحمد بن ابراهيم ابن الخضرى الهنتاتى المراكشى الموحدى المصرى المولد والدار ذكر المقريزى فى كتابه أنه كان يحفظ العمدة والالمام لابن دقيق العيد والشاطبيتين والطوالع فى اصول الدين وابن الجلاب والرسالة فى الفقه والحاجبية والملحة وغالب ألفية ابن مالك والتلخيص وحدث وأفاد ودرس واعاد وقال الشعر الحسن وطارح الادباء واشتهر بالمجون الخليع مع المشاركة التامة حتى فى اللغة والطب والهيئة ولى تدريس الفقه بجامع الحاكم والقرانسقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والاعادة بالكاملية والمنصورية وكتب عنه ابن فهد مات عام 872 هـ (الاعلام ج 4 ص 125)

وقد تحدث ابو اليمن مجير الدين فى الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل عن زاوية المغاربة بالقدس الذى اوقفها عمر المغربى المصمودى عام 703 ثم تولاها بعده العلامة جمال الدين عبد الله المراكشى عام 795 هـ (ج 2 ص 505)

ومن المغاربة الذين استوطنوا بلد الخليل الشيخ زين الدين عبد الكريم بن على بن عبد الرحمن المقدسى المتوفى عام 895 هـ (الانس ج 2ص 549) وابن جبارة الشاعر

ومحمد فتحا الدقاق الدغمى السلاوى قام بتدريس الحديث فى المدينة اكثر من عشر سنين وكان معظما عند ملوك الشرق وخصوصا السلطان العثمانى الذى كان يوجه اليه جائزة سنية فى كل عام (الاعلام ج 5 ص 60 نقلا عن فهرسة الحافى)

ومحمد الورزازى الدرعى الحافظ الشهير بالصغير وبالقاضى اشتغل بالتدريس فى مصر وكانت له اليد الطولى فى الفقه والعلوم العقلية توفى بمصر عام 1138 (الاعلام ج 5 ص 38)

وأحمد بن محمد بناصر الدرعى قرا فى مصر على ابن الحسن الزعترى رسالة ابى الفتح فى العمل بنصف الدائرة ورسالة فى علم الاسطرلاب ورسالة فى علم كرة العالم توفى عام 1129 هـ (الاعلام ج 2 ص 161)

والعالم محمد المجيدرى اليعقوبى قيل انه احد اربعة لم يبلغ فى عصره (عصر سيدى محمد بن عبد الله) مبلغهم وقد رحل الى الشرق واكرمه امير مصر (الاعلام ج 5 ص 88) وقد خلف لنا كثير من هؤلاء العلماء ومن بينهم العياشى صاحب الرحلة مصنفات قيمة ضمنوها مشيختهم فى الشرق ومنهم من ترك وصفا رائعا للحركة الفكرية فى الشرق الاسلامى وللتبادل الثقافى مع المغرب وقد صنف حازم صاحب المقصورة وشيخ ابن رشيد السبتى « الدرة المضية فى تاريخ الاسكندرية فى مجلدات» والمستفاد من شيوخ بغداد (درة الحجال ص 137)

والفنان الكبير عبد الكريم الفاسى الملقب بالزريع قامت على اكتافه نهضة متواضعة فى صناعة الخزف بمصر ابان القرن الثانى عشر الهجرى(1)وقد صنع الواح القشانى لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نماذج من ذلك فى دار الآثار العربية بمصر كما أشار الى ذلك تيمور فى كتابه حول التصوير عند العرب ـ

ومدرسة الشيخونية هى اكبر مدرسة بمصر كان بها فضلاء مغاربة مصامدة (نيل الابتهاج لاحمد بابا السودانى ص 84 و 96)

والملحوظ هو ان معظم العلماء المغاربة الراحلين الى الشرق من مراكش أو فاس وهذا يدلنا على أن فاسا كانت حقا «حاضرة المغرب» اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة

---

(1) نشرت الوثائق المغربية (ج 11 عام 1907) بحثا ذكرت فيه ان ابن شقرون الفاسى كان وكيلا للمغاربة بالقاهرة عام 1898 وأنه كان يحفظ تركات الرعايا المغاربة القاطنين بعاصمة الكنانة وكان بمصر مابين 1.200 و 1.500 مغربى

حيث رحل من كلتيهما العلماء ، فنزل اكثرهم مدينة فاس (المعجب ص 220) وقد انتقد احمد القباب الفاسى علماء افريقية مثل ابن عرفة فرجع اليه (نيل الابتهاج ص 53) وابن عرفة هذا تلميذ لابن شارة الزمورى (ص 329)

ولا بدع فقد ذكروا ان عبد الرحمن بن عفان الجزولى المتوفى عام 741 كان يحضر مجلسه اكثر من الف فقيه معظمهم يستظهر المدونة (الجذوة لابن القاضى ص 258) وكان فى مجلس عبد المومن الجاناتى بفاس 400 من حفاظ المدونة (ص274)

ومن التآليف المغربية التى لها صيت كبير فى الشرق زيادة على مؤلفات ابن خلدون والمقرى كتاب ابى الحسن بن القطان الموسوم بالوهم والايهام الواقعين فى كتاب الاحكام الكبرى لعبد الحق الاشبيلى لم يؤلف فى بابه مثله حسب صاحب الذيل والتكملة لما فيه من براعة النقد فى الحديث وعلومه وعلله واطرافه

الفصل الحادى عشر :

نشأة الصحافة بالمغرب منذ 140 سنة

منذ منتصف القرن الماضى اتجه بعض كبار كتاب الغرب الى الكتابة عن المغرب وقضيته والتعريف به فى اوربا وقد قرأنا ابحاثا شتى فى هذا الموضوع يرجع تاليفها الى ازيد من قرن نذكر منها خاصة (قضية المغرب) لشارل لامارتينيير عام (1859م .) اى سنة وفاة المولى عبد الرحمن و (وصف تاريخ المغرب) بقلم ليون كودار فى مجلدين (1860) و (المغرب الحديث مملكة تنهار) بقلم لود فيك دوكامبو (1886) و (المغرب الحديث) لجول اركمان (1885) و (سفارة الى المغرب) لكابريال شارمس (1887) و (فاس جامعتها والتعليم الاسلامى العالى) بقلم دلفان (1889) وقد صنف السير لامبير بليفير والدكتور روبير براون بلندن عام 1892 فهرسة الكتب المصنفة حول المغرب وهى تحتوى على 2062 كتابا وخصص الكتبى الباريسى جونتير عام 1914 للمغرب فهرسة تضم 2235 كتابا كلها مفيدة للدراسات المغربية .

وقد كتبت مجلة هسبريس عدد (31 عام 1954) بحثا لاحول الصحف والصحافيين فى طنجة ومن جملة مصادرها فهرسة لا مبير المذكورة ففى فاتح مايه 1820 صدرت بسبتة اول جريدة عرفت بالمغرب (ليبيريال امريكا) (افريقيا الحرة) وكانت اسبوعية ولكن لم يصدر منها سوى ستة اعداد ثم انقطعت وخلفتها (ليكوكونستيتو سيونال) (الصدى الدستورى) التى كانت تطبع عام 1822 فى الجزيرة الخضراء وفى مارس عام 1860 بدأت تطبع فى تطوان جريدة (ايليكو دوتطوان) (صدى تطوان) اصدرها الجيش الاسبانى ثم خلفتها فى ابريل من نفس السنة (ايلنوتيسيريو) تطوان التى توقفت هى ايضا عن الصدور فى 13 يبراير 1861 فى عددها التاسع والثمانين ولا تحتوى هذه الصحف على كبير فائدة تاريخية عدا بعض الاخبار عن تطوان .

اما فى طنجة فقد صدرت اول جريدة فى يوليوز 1870 وكانت تظهر اسبوعيا تحت اشراف (جمعية الحلف الاسرائلى بباريس) التى زودتها بالمطبعة الضرورية للنشر وقد هاجمت الجريدة منذ عددها الاول الحكومة المغربية وكلا من فرنسا واسبانيا وتعتبر هذه اول محاولة للطباعة فى طنجة بعد اخفاق محاولة ناشر من وهران عام 1868 حيث سعى فى تاسيس مكتبة ومطبعة تصدر صحيفة اسبوعية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والاسبانية) تحلل احداث العالم وما جريات

الموانىء المغربية ويرجع فشل هذا المشروع لعدم اهتمام الفكر العالمى بقضية المغرب قبل مؤتمر مدريد الذى انعقد عام 1880 حيث اثار نشر مداولاته انتباه العالم الى الوجود المغربى .

وهكذا اسس احد سكان جبل طارق فى طنجة عام 1880 مطبعة ثم أصدر فى 28 يناير 1883 .... بالاسبانية صحيفة اسبوعية سماها (المغرب الاقصى) كانت تصدر كل يوم احد وفى عام 1893 امتزجت بجريدة تايمس ماروكو) فصارت تصدر باللغة الانجليزية كل يوم سبت وتغيرت بذلك وجهتها السياسية التى كانت محافظة .

وبعد مرور بضعة شهور على ظهور (المغرب الاقصى) صدرت الجريدة الطنجية الثانية وهى (ريفاى دوماروك) (انبعاث المغرب) فى 14 يوليوز 1883 وبالرغم عن صدورها بالفرنسية كانت فى ملك اسرائلى انجليزى هوليفى كوهن المولود فى طنجة عام 1844 واصل والديه من الصويرة ثم اعتنقا الجنسية الانجليزية وكان محاميا وتاجرا فى انجلترا وفرنسا وكان له مراسلون فى جميع انحاء المغرب وكانت خطتها واحدة مع (المغرب الاقصى) وتستمدان من نفس الرأسماليين وتصدران عن نفس المطبعة وكان رئيس تحريرها أيضا اعرائليا ولد فى طنجة عام 1860 وسبق له ان كان مراسل جريدة (الطان) حيث تتبع بهذه الصفة اعمال مؤتمر الجزيرة وفى 1888 مات كوهن مؤسس الجريدة فاشتراها الصيرفى بنشيمول الذى توارث آباؤه وظيف الترجمة فى المفوضية الفرنسية بطنجة وبذلك افلتت الجريدة من النفوذ البريطانى لتسقط فى حيز الاستغلال الفرنسى تحت اشراف مديرها الجديد كيرديك الذى كان له إتصال بحاشية السلطان مولاي الحسن وقد نشر عام 1888 (رائد المسافر الى المغرب ورائد السائح) وهو أول كتاب بالفرنسية طبع فى المغرب ثم اصدر عام 1895 كتابه (شارع الاسلام) (طبعة مدريد وطنجة) وهو حافل بالتفاصيل الدقيقة عن المخزن والمفوضيات الاوربية .

ثم فى 5يوليوز 1884 صدرت صحيفة انجليزية إسمها (تايمس دوموروكو) لادوارد ميكين الكاتب المشهور الذى صار يصدر صحيفته فى مطبعة أسسها لنفسه انتجاعا للاستقلال وقد اصدر هذا الصحافى ثلاث كتب حول المغرب احدها تاريخى وهو (ثومورس أمبير) الامبراطورية المغربية) نشر فى لندن عام 1899 والثانى فى وصف المغرب ثولانداوف ثومورس) (ارض المغرب) نشر عام 1901 والثالث (ثومورس) (المغاربة) وهو عبارة عن دراسة اجتماعية صدر عام 1902 وقد حاولت الجريدة التأثير على اوربا من الوجهة العاطفية مؤكدة ان الدبلوماسية الغربية يجب ان ترتكز على مبادىء الاخلاق الدولية وفى عام 1893 واجهت هذه الصحيفة مصاعب مالية فاندمجت فى جريدة (المغرب الاقصى)

وفى غضون ذلك ظهرت ثم اندرست دوريات اخرى وفى خريف عام 1885 ظهرت صحيفة (افريكانا) .. (الافريقية) وهى اسبوعية انتقادية اصدرها ادوارد

هانكلين من جبل طارق ثم توقفت بعد ان صدر منها 17 عددا وكانت لهجتها تنتجع الفكاهة ومن مظاهرها الهزلية ما كانت تكتبه في الصدر من انها تصدر (في جميع الايام عدا ايام الثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة والسبت والاحد)

ثم صدرت (ايليكوموريطانو) (صدى موريطانيا) ابتداء من يبراير 1886 في يومي الاربعاء والسبت من كل اسبوع وكان معظم محرريها الكثيرين اسرائليين ومع ذلك كانت كلها مشحونة بالاعلانات وكذلك (جريدة طنجة) (ايلدياريو دوطنجي) التي بدأت تصدر عام 1889 بايعاز من مفوضية فرنسا - على ما يلوح - تحت اشراف الانجليزي ادولفو ثم صار يديرها عام 1891 كيرديك مدير (انبعاث المغرب) المشار اليه فكانت اذن فرنسية رغم لغتها الاسبانية واهم مميزاتها انها كانت اول محاولة كجريدة يومية في طنجة وقد تعيشت بفضل منح المفوضية الفرنسية الى متم 1895 حيث توقفت وسبب اخفاقها ان المفوضية المذكورة حاولت ان تجعل منها جريدة كفاح سياسي وكانت تاسست في عام 1893 جريدة (لوماروك) (المغرب) الاسبوعية الفرنسية ولكنها ما لبثت ان توقفت بعد بضعة اشهر لتعود الى الصدور في دجنبر 1894 بفضل اعانة الاوساط المالية الفرنسية لمديرها وكان في طنجة اذ ذاك رغم قلة سكانها - ستة آلاف نسمة على ما يقال - خمس اوست صحف واستمرت في عملها البسيط الخامل - بعد فترة من التوقف - الى عام 1905

واهم منها جريدة (لاكرونيك) (الاخبار) التي صدرت عام 1893 للدفاع عن المصالح الدولية والمحلية لامبراطورية (المغرب) وكانت تصدر يومي الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع تحت اشراف احد الايطاليين والظاهر انها استمرت الى عام 1900 وهي ايضا يهودية .

وكانت هنالك جريدة نصف شهرية (لوكوميرس دوماروك) (تجارة المغرب) تطبع في وهران وتحرر في طنجة وهي مهمة لانها تبرز الخطورة التي اتسمت بها الصحافة في الحقل الدبلوماسي بالمغرب والغريب انها كانت فرنسية اللغة الا انها كانت المانية لان المشرف عليها هو اوليكسليفن الذي كان يستمد التوجيه من مفوضية طنجة وقد توقفت بعد ان صدر منها العدد السابع .

وصدرت مجلة شهرية حول التقدم المغربي (بروكريسوماروكي) ولكنها توقفت في العدد الثاني .

اما مجلة المغرب المصورة (روفيستا دوماروكوس) نصف الشهرية فقد استمرت سنتين (1890 و 1891) وقد سبق لمديرها سيرافيرا بافييرا ان صنف كتابا عام 1885 حول الجولة الجغرافية العسكرية في سواحل المغرب عام 1884)

وظهرت جريدة (لنتيرنا) (المنار) الاسبوعية النقدية من عام 1888 الى 1891 ولكن لهجتها كانت ساقلة .

وقد وقعت عام 1889 اول محاولة لاصدار جريدة عربية اسمها (المغرب) ولم تكن تصل الى المغرب آن ذاك سوى الاهرام التي كان المغاربة يقرأونها بتلهف

غير ان جريدة المغرب التى ظهرت فى ربيع هذه السنة لم تتجاوز فصل الخريف وكان محررها بادجيت ميكين الانجليزى الذى استعار اسم عيسى فرج وسر اخفاقها هو ان المفوضيات تضايقت من ذيوع مقالات بالعربية مترجمة عن الانجليزية كما ظهرت جريدة بالعبرانية اسمها (كول اسرائيل) اصدرها سلمون بن جيون الفرنسى ولكنها لم تجد القراء لان معظم اليهود كانوا يقرأون بالاسبانية

ولم تظهر الصحف العربية (الفجر) و (لسان المغرب) و (السعادة) وغيرها الا فى السنوات الاولى من القرن العشرين ومعلوم ان لسان المغرب هى التى نشرت مع جريدة الزهرة التونسية ـ نص مشروع الدستور الحفيظى عام 1908 .

ومنذ بداية هذا القرن صار لكل مفوضية جريدتها ولسان سياستها الشبيه بالرسمى وكانت كل جريدة تصدر باللغتين الاصلية والعربية .

وكانت معظم هذه الصحف وهى فى ملك اسرائيليين عدا التايمس تبيح لنفسها مهاجمة الحكومة المغربية التى كانت تصر فى نظرها على عدم ادخال الاصلاحات الضرورية وقد تاثرت الحكومة المغربية من هذه الحملة المغرضة التى لا تنتقدها فحسب بل تدعو الى ادخال موظفين اوربيين فى الادارة المغربية وبسط حماية شاملة على المغرب بل كانت الصحافة الطنجية تحمل حتى على المفوضيات التى تدافع عن كيان المغرب وحق الشعوب وفى 18 شوال 1313 (1886) طلب الحاج محمد الطريس مندوب السلطان فى طنجة من السلك الدبلوماسى (الغاء الصحف بحجة انعدام قوانين الصحافة فى المغرب كما هو الحال عند الدول الاجنبيه وحتى لو وجد هذا القانون يتعذر تطبيقه فى نظر الطريس لان الصحافيين رعايا اجانب وعلى كل فان المغرب لا يتحمل مسؤولية مهاجمة هذه الصحف للمفوضيات الاجنبية) وكان التزاحم الدبلوماسى بين فرنسا وانجلترا حول قضية المغرب ينعكس على الصحافة المحلية التى كان معظمها ضد فرنسا وكانت انجلترا تقف موقف المكافح عن كيان المغرب الى أن وقعت أزمة فى العلائق المغربية الانجليزية عام 1892 بعد انسحاب السير هايى وسبقها تغيير فى موقف فرنسا التى صارت منذ عام 1889 تدافع بواسطة جريدة (انبعاث المغرب) مع الاحتفاظ بالوضع السياسى القائم ورغم انجليزية الجرائد كانت تحقد على مفوض انجلترا السيد دوروموردو هايى الذى انقلب بانسحابه اتجاه الصحف الطنجية التى كانت لحد 1890 تنحاز لجانب المفوضية العاملة على انزال آخر ضربة باستقلال المغرب ومهما يكن فان الصحافة الاجنبية فى طنجة ساهمت فى التعريف بالمغرب فى الاوساط الدولية وان كان ذلك قد عجل بالاحتلال .

الفصل الحادي عشر :

روح المقاومة في الادب المغربي

الوطنية عاطفة تغلغلت فى احشاء الناس وفضيلة تركزت فى طباعهم وما من انسان فى شرق المعمور أو غربه الا ويحس نحو مرتع الصبا ومسقط الاباء والاجداد بشعور خاص يقوي ويضعف ولكنه شعور موجود لم يعوز احدا من افراد البشر .

ولن نثير فى هذا البحث الادبى جدالا حول ماهية هذه العاطفة كما اننا لن نثير ذلك النقاش الفلسفى الذي استعر امدا طويلا بين انصار الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة فى العصر الحديث اذ كل يعلم ان الاسلام هو أول من ضرب للبشرية مثالا كاملا عن الوطنية الحق فى اجلى مظاهرها الانسانية والترابية معا ولكن حديثنا لن يدور الا حول الوطنية فى الادب وبالاخص فى الادب المغربى ونحن لا نقصد بالوطنية هنا الا تلك العاطفة الساذجة التى تهز كيان الانسان وتذكى جوانحه وتفيض منه نبع الشعور فيطفح القلب باحساسات رقيقة تتردد نغماتها على اللسان بعد ان يضيق عن ايوائها الجنان وكم فاض نبع العاطفة الوطنية فى الشعوب فاوقد فى ادبائها وشعرائها بوتقة الالهام فتبلور الشعور نثرا وقريضا وملحونا .

ولكل شعب فى تراثه الادبى جانب يزخر بهذا النوع من الانتاج العاطفى الخالص ففى الادب الفرنسى اساطير وطنية كاسطورة رولان وفى الادب العربى نفحات قدسية من هذا الانتاج السامى لا تكاد تحصى ترقرقت جداولها من عصر الجاهلية الى العصر الحاضر وفى الادب المغربى والاندلسى شيء كثير .

والشعور الوطنى شعور مستديم الفيض ولكنه لا ينبثق ذكيا مدرارا الا عند الازمات .

وقد بدأ هذا الشعور يتبلور فى الانتاج الادبى بالمغرب اواخر القرن الثامن الهجرى عند ما طغى سيل النصرانية على الاندلس فنفى الاسبان وشردوا وتكون بذلك فى طول المغرب وعرضه ادب يحق لنا ان نسميه ادب مهجر من بعض نواحيه ولكنه ادب لا كاداب المهاجر العادية وانما هو عاطفة مشخصة تترقرق فى الحان القريض وتفيض بالشجن على الفردوس المفقود .

وكانت اسبانيا اذ ذاك منهوكة القوى تكتفى باعادة تنظيم شؤون الاندلس الذى

انتزعته من يد العرب ولكن جارتها البرتغال كانت تجول خلال البحار لاغراض استعمارية ما لبثت ان حققتها فاحتلت جزرا فى المحيط الهادىء وبعض سواحل السودان تم عرجت في اوائل القرن التاسع على ضفاف المغرب فاخذت تقتض منها ميناء اثر ميناء وامتد اقتطاع البرتغال الاستعمارى من المغرب من عام 818الى عام 920 أى فيما بين انقراض دولة بنى وطاس المهزولة وابتداء ظهور السعديين الذين على يد منصورهم تقوض صرح الدولة البرتغالية فلم ترفع رأسها بعد ذلك مدة طويلة

وقد احتلت البرتغال سبتة عام 818 بعد حصار دام ستة اعوام ثم قصر المجاز عام 862 وطنجة عام 869 واصيلا وانفا وبعض سواحل السوس عام 876 والجديدة عام 907 والعزائش عام 910 وكذلك اكادير وما اتصل بها من سواحل السوس الاقصى وفى عام 912 اسفى وعام 914 ازمور وانتهت سلسلة الاعتداءات البرتغالية على المغرب باحتلال المعموزة (المهدية) عام 920 فلم يبق اذ ذاك فى قبضة ملوك المغرب من المراسى سوى سلا والرباط وكانت الازمة قد بلغت اناذاك اشدها فى نفوس المغاربة الذين دفعت الغيرة الوطنية منهم العلماء والادباء والشعراء الى ترصيع الخطب ونظم القريض لحض الناس على الجهاد لطرد البرتغال من السواحل وكانت غريبة تلك النفحة التى هبت فوحدت بين كثير من العناصر المتنافرة فى سبيل الدفاع عن كيان البلاد فقد هرع الصوفية من ابراجهم العاجية وهب كبار العلماء والادباء والشعراء لاذكاء روح الوطنية فى النفوس فى ءاثار لا يزال بعضها يفيض الى الان عاطفة وحماسا ولكن معظمها عفى عليه الدهر كما عفى على الكثير من تراثنا الفكرى ولم يتخلف حتى العامة عن المساهمة فى هذه الحملة الوطنية فتضخم بذلك ديوان الملحون الذى كان المغرب حديث العهد به لان هذا الملحون لم يتطور الا بعد نكبة الاندلس على اثر انتقال جماهير سكانها المتشردين الى السواحل الافريقية وانطلاقهم فى الانتحاب على معاهدها الدارسة واطيافها الهاجسة .

وهكذا كانت المائة التاسعة فى المغرب من اخصب العهود فى التاليف والنظم ولكنه كان تاليفا ونظما من نوع خاص لا يعدو تحريك العواطف واستنفار الناس الى ساحة العراك بينما كان القرن الثانى عشر اخصب عصر فى التصنيف العلمى والتدوين التاريخى .

وقد كان الصوفية فى طليعة المنافحين عن كيان الوطن الذى هدده البرتغال وكانت منافحة بالسيف والقلم سبقوا بها ما لاحظناه فيما بعد من غيرة وطنية وتاجج حمية السنوسيين فى طرابلس التى افتداها المغاربة من يد الاجانب بأموال طائلة لما حال بعد الشقة دون هبوبهم لتحريرها فهذا جد الفاسيين سيدى يوسف ــ وهو العالم النحرير والصوفى الشهير ــ يشارك بنفسه فى المعركة الكبرى التى هزم فيها المغاربة البرتغال فى وادى المخازن وقد كتب ولده عنها فى «مرءاة المحاسن» صفحات خالدة رسم فيها صورة عن وطنية المغاربة ومدى استماتتهم فى المقاومة ،وهذا العياشى المجاهد قد اقض مضاجع الاجانب بالمغرب وكتب بسيفه سجلا يطفح

الى ان قال :

ولا تهنوا وسلوا كــل عضــب ... تهــاب مضاربا منــه النحــور
ومــوتــوا كلكــم فالمــوت اولى ... بكم من ان تجاروا او تجــوروا
اصبــر بعــد سبى وامتحــان ... يــلام عليهما القلــب الصبــور
كفى حزنا بــان الناس قالــوا ... الى أيــن التحــول والمسيــر ؟
انتــرك دورنــا ونفــر عنهــا ... وليس لنــا وراء البحــر دور ؟
رضــوا بــالرق يــا لله مــاذا ... رآه ومــا اشــار بــه مــشيــر

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ حيث اذكت نفوس الجماهير والهبت احساسهم واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابى عنان المرينى :

والنــاس طرا بــارض انــدلس ... لــو لاك ما وطنــوا ولا عمــروا
وجملــة الامــر انـــه وطـــن ... فــى غير علياك مــا لــه وطــر

وقد ءاوى ملوك المغرب لاجئى الاندلس ومهدوا لهم سبل الحيــاة الناعمــة حتى قال ابن زمرك متشكرا للسلطان أبى سالم المرينى :

كم من طريد نازح قذفــت بــه ... ايدى النوى فى الفقرهن سفار
بلغتــه مــا شاء مــن ءامالــه ... فسلا عــن الاوطــان بالاوطــار
صيرت بالاحســان دارك داره ... متعت بالحسنى وعقبى الــدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله ..

ودم والمنى تدنى اليك قطيفهــا ... مــيسر اوطــار ممهــد اوطــان

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتثار عقد الاندلس الذى ظل منتظما نحوا من ثمانية قرون حتى صاح بعضهم حيرة وتحرقا :

كيف السبيل الى احتلال معاهد ... شب الاعاجم دونها هيجاءها ؟

وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندى :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... ان كان فى القلب اسلام وايمان

وقال أبو المطرف بن عميرة المخزومى بعد سقوط بلنسية :

يحن وما يجــدى عليه حنينــه ... الى اربــع معــروفهــا متنكــر
ملاعب افراس الصبابة والصبا ... تــروح اليهــا تــارة وتبكــر

الى ان قـــال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا ... الى اللهــو لا تكبــو ولا تتعثــر
كذاك الى أن صاح بالقوم صائح ... وانذر بالبيــن المشتــت منذر
وفرقهم ايــدى سبــا واصابهم ... على غــرة منهــم قضــاء مقــدر

وقال الامام السهيلى عند ما خرب العدو مسقط رأسه سهيل :

يـادار ايــن الـبيض والآرام ... ام ايـن جيــران على كــرام
راب المحب من المنــازل انــه ... حيــا فلم يرجــع اليـه ســلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم الدائـب على حفـظ كيـان الوطن ولو اداهم ذلك الى تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكـر محمد بـن صاحب الصلاة عند ما قام خطيبا فى وفد الاندلس امام الامير عبد المومن الموحدى :

هم الالى وهبوا للحرب انفسهم ... وانهبوا ما حدت ايديهم الصفدا

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين بزرهون يمدح السلطان ابا الحسن المرينى بقصيدة ملحون منها :

عسكر فـاس المنيـرا اغـرا ... ويــن ســارت بوعــزايـم

وقال ءاخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقـد أحيـى معالمه ... وقـام منه بمفروض ومسنـون
وأقام مفروض الجهـاد بعزمـة ... تـركت بافئـدة العداة فلـولا
والله ما ادرى وقد حضر الوغى ... احسامـه او عزمـه مـصقـولا
حطت البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعـدك حاميـا لذمـار

وقـــال :

فما رؤوس الكفـر الا حصائـد ... بسيفكسيفالله تجنى وتقطف

وقـــال :

فاق الملـوك بسيفه وبسيبـه ... فبعـدلـــه وبفضلـه يـتمثـل

وقال القائد محمد بن يحى اجانا يخاطب مولاى محمد بن الشريف على لسان الشيخ بـن زيـدان :

يا ملكا سعــدت بـه اوطانـه ... فيما مضى وزها به المستقبـل
نادى بك النصر العزيز أمغرب ... ولكم على فاس الجديد الكلكـل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد محمد بن سودة الفاسى :

ما من مليـك ذاق لـذة راحـة ... الا تجـلى له الهـوان فيسفـل

الى ان قـــال :

وانفض غبار الذل وانفض ثوبه ... يزداد وجهـك بهجـة ويهلـل

وهى من الشعر الجرىء الذى يذكرنا ببعض حماسيات شوقى التى كتبها حيث كان منفيا فى باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وقال محمد بن يحى البهلولى يخاطب محمدا بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بالبرتغالى منتشيا بخمر العراك ضد البرتغاليين الذين اعتدوا على السواحل المغربية :

قـل للاميـر محمــد ... يـــا طلعـة الهــلال
لـويلـة فـى السـواحـل ... مـن افضـل الليـــال

تلك نماذج منوعة لشكل خاص من شعر (الوطنية المغربية) لا يقتصر على عصر واحد بل يمثل اصنافا ومظاهر شتى لذلك النوع من الادب المغربى المتفجر من ينبوع العاطفة ولن نذهب الى حد وصف هذا الادب بانه ادب (عاطفى) بالمعنى الجديد لهذه الكلمة لان فى شعر الوطنية مزيجا من عناصر قوية مختلفة يوجد كثير منها فى الادب الرومانطيكى (Romantisme) أي العاطفى او الابداعى (الذى يقابله الادب الكلاسيكى Classicism او الاتباعى) ولعل ابرز مجالى الوحدة فى الادبين هو طغيان الشعور وتدفق الاحساس وطفوح الخيال وغشيانه لمنافذ العقل بل هناك جامعة أخرى لا تقل عن ذلك اهمية وهى الارتكاز على الدين والاستمداد من الروح والعزوف عن كثافة المادة ومعلوم ان الرومنتيسم كان له فضل كبير فى احياء ما اندرس من ذكريات المسيحية وصورها الاولية المثلى ومن ابرز شعراء الرومانتيسم الوطنيين لامارتين وهوجو على ان هنالك نوابغ ءاخرين فى هذا الادب منهم فينيى وموسى وبلزاك وشومان الالمانى (الذى كان يمثل بالاخص الرومانتسم الموسيقى) وادب الوطنية كذلك يستمد من حرارة الايمان بالمثل العليا التى هى مثل الدين .

وقبل ان ناتى بنماذج منتقاة من شعر الحنين الى الوطن والتغنى بمرابعه والانتحاب على فراقه نبادر فنؤكد ان الشعر المغربى لم يخل من روائع تمثل تلك (الوطنية العالمية) التى طالما تغنى بها شعراء الغرب وقد انشد الزبيدى ايام كان بالاندلس :

الفقر فى اوطاننا غربة ... والمال فى الغربة اوطان
والارض شيء كلها واحد ... والناس اخوان وجيران

وهذا الفقيه ابراهيم بن مسعود الالبيرى يدافع عن طائفة غادرت وطنها طواعية بقوله :

لله أكياس جفوا أوطانهم ... فالارض اجمعها لهم أوطان

ولكن لعلنا نكون مقصرين اذا لم نلاحظ ان هنالك فرقا بين (عالمية) الوطنيتين لان (العالم) فى اصطلاح الكثير من الشعراء لا يعدو اقطار العروبة وبقاع الاسلام الممتدة فى اطراف المعمور وهذه الاقطار يعتبرها المسلمون اوطانا ثانية لهم لا يمكن ان يشعر الوارد عليها منهم بغربة او استيحاش غير ان تلك الاوطان تتفاوت مكانتها فى النفوس — رغم وحدة الشعور بالغيرة عليها والحب لها — تبعا لسيل الذكريات التى تنبثق فى نفس الشاعر عند استعراضها .

وقد كتب شاعر مغربى الى الملك الكامل بن العادل بن ايوب هذه الابيات :

لئن صدنى البحر عن موطنى ... وعينى باشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لى مكة ... بانوار كعبته الزاهرة
وزخرف لى بالنبى يثربا ... وبالملك الكامل القاهرة

ولتسمع الى هذه الابيات المؤثرة من شعر ابى فارس عبد العزيز الفشتالى

اذ يقول فى قصيدة يمدح بها المنصور :

لقد نفحت من شيخ يشرب نفحة فهاجت مع الاشجان شوقى واحزانى
وفتت منها الشرق فى الغرب مسكه سحبت بها فى ارض دارين اردانى
واذكرنى نجدا وطيب عراره نسيم الصبامن نحوطيبة حيانى
واهفو مع الاشواق للوطن الذى به صح لى انسى الهنى وسلوانى
احن الى تلك المعاهد انها معاهد راحاتى وروحى وريحانى
واصبو الى اعلام مكة شائقا اذا لاح برق من شمام وثهلان

ومع هذا فقد كان هناك شعراء يمثلون الوطنية الضيقة فى ابعد حدودها فهذا الفتح بن خاقان يصف ابن حزم بقوله (ما تكلم تقليدا ولا عدا اختراعا وتوليدا ما تمنت به الاندلس ان تكون كالعراق ولا حنت الانفس معه الى تلك الآفاق اقام بوطنه وما برح عن عطنه فلم يشرب ماء الفرات ... الخ)

غير انه رغم توفر عاطفة الوطنية العربية فى نفوس الشعراء فانهم يظلون متحرقين على الوطن الاصلى مسقط الرأس ومرتع الصبا والشباب وهاكم نماذج لهذا النوع من الادب الوطنى : قال الشيخ أبوالحسن على القلصادى الحيسوبى بعد ان رحل الى الشرق :

وقد ذابت اكبادى عناء وحسرة على بعد اوطانى وفقد احبتى

وقال نور الدين على بن احمد الحميرى المالقى :

يحن الى اوطانه كل مسلم فقدس منها منزل وجناب
فاسعد ايامى اذا قيل هذه منازل من وادى الحمى وقباب

وقال الرئيس ابو عبد الله بن زمرك فى النازحين عن الوطن لزيارة اطراف الوطن العربى :

اجابوا نداء البين طوع غرامهم وقد تبلغ الاوطار فرقة اوطان

وقال ابن الخطيب يتحرق على غرناطة :

بلادى التى فيها عقدت تمائمى وجم بها وفرى وجل بها شانى
تحدثنى عنها الشمال فتنثنى وقد عرفت منى شمائل نشوان
وءامل ان لا استفيق من الكرى اذا الحلم اوطانى بهاترب اوطانى

وقال ابن خميس ـ الذى كان السلطان ابو عنان المرينى شديد الاعتناء بشعره ـ يتحرق الى مشاهدة مسقط راسه تلمسان :

وانى لمشتاق اليها ومنبىء ببعض اشتياقى او تمكن أنباء
أحن لها ما أطت النيب حولها وما عاقها عن مورد الماء اظماء

وقال ابن زمرك يصف حالة نفسه :

فحنت الى أوطانهــا وتسابقـت　　تعاود مسراها بهــا وتواصــل

وقال ايضا يحن الى غرناطة :

اعنـدكـم انـى بفــاس　　اكابـد الشـوق والـحنيـن
اذكـر اهلـى بهــا ونـاسى　　فاليوم فــى الطـول كالسنيــن

وقال الشيخ الصوفى محمد بن احمد بن الصباغ الجدامى (وله جملة قصائد رفعها الى المرتضى صاحب مراكش) :

نـأت بــى الاوطــان عــن حضرة الاحســان
ولا مــعيــن

وقال محمد بن يوسف يحن الى تلمسان :

ياحيــا المزن حيهــا مــن بــلاد　　غرس الحب غرسها فى فؤادي
وتعاهــد معاهــد الانس منهــا　　وعهود الصبــا بصــوب المهاد

ونفح الطيب الذى صنفه المقرى التلمسانى فى الشرق مشحــون بنفحــات نثرية وشعرية تنبثق من الفاظها حرارة اللوعة وهو الذى يقول (شجون الحديث الذى جر اليها شوقتنى الى معاهدى المغربية التى اكثر البكاء عليها (النفح ج 3ص10).

وقد لاحظنا وجــود نفس النغمة فى الادب العاطفى بباقى اقطار الشمال الافريقى والشرق فهذا ابو الفتح محمد بن عبد الســلام المغربــى التونسى نزيــل دمشــق الشــام يقــول :

وتنفيس كرب عن كئيب متيــم　　يحن الى اهل ويصبو لاوطــان

الى أنقال يخاطب حضرة تونس:

فلا تحسبواانى تسليت بعدكم　　بشيء منالدنيا وزخرفها الفانى
ولو لمواسلالنفسبالقرب واللقا　　لادرج جسمى فى مقاطع اكفانى

وكان هنالك كثير من الشعراء ينزحون من الوطن الخاص الى الوطــن الثانــى مادام فى هذا ما يرضيهم فان ضاقت فى وجههم الحياة عادوا الى الاصل فقد قال الوزير ابو الحسن ابن الامام الغرناطى يخاطب حضرة مراكش :

ياحضرة الملك ما أشهاك لى وطنا　　لولا ضروب بلاء فيك مصبــوب

واريد ان اختم هذه العجالة بانموذج بسيط للشعر الوطنى الــذى تفجــرت ينابيعه على اثر احتلال الاجانب لسواحل المغرب اوائل القرن التاسع فقد قال محمد بن يحيى البهلولى يخاطب محمد البرتقالى الوطاسى :

ظهــر الرمــل مــرادى　　والسكــر يــا كــرام
نــفسى على الجهــــاد　　سلبــت والســلام

وله من قصيدة اخرى مطلعها :

قم للجهاد رعاك اللـه منتهجـا ... نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ما زال محتدما ... لو كان يمكنني بالليل احتـزم

وقال محمد بن احمد الكلاتي يمدح المجاهد سيدى محمد العياشي :

حديث العلا عنكم يسير به الركب ... وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كـل مسلـم ... تنال به الزلفى من الله والقرب

وقال فيه العلامة سيدى عبد الواحد ابن عاشر صاحب المرشد المعين :

يا حادى الاظعان فى الريـاشي ... ابلغ سلامى فخرنـا العيـاشي
طود الهدى عين الندى فرد الورى ... فريـد وقتـه الامـام الخـاشي
لله سيـف صـارم وقاصـم ... ظهـر العدا كبيرهـم النـاشي
يتركهم عند اللقا رهـن الشقا ... صرعى على الارض كما الكباشي

وهو شعر مهلهل ولكنه يفيض ايمانا وعاطفة ولعل الادب المغربى من أغنى الآداب العربية فى الانتاج (الوطنى) العاطفى نظرا لتتابع النكبات على الاندلـس التـى ظلت ملحقة بحضرتي مراكش وفاس نحوا من ثلاثة قرون ونظرا لاحتلال الاجانب للشـواطىء المغربية مدة طويلـة وما كـان لهـذا اللـون الحماسى مـن الادب ان تتفتق عنه قرائح شعراء الشرق العربى الذى لم تتح له وضعيته ان ينكب مثل المغرب باعداء خصوصيين يناوئونه فى دينه وينازعونه فى تراثه وقد يكون فيمـا كتب حول فلسطين خلال الحـروب الصليبية وبعـد الحـروب العالميـة الاولى وما نشر وقرض حول الاحتلال الفرنسى لمصر وغير مصر ما يقارب الانتاج المغربى من بعض الوجوه وكانت الصدمة ورد الفعل الوطنى قويين جدا لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام محتفظا بكيانه واستقلاله ولـم يخضع حتى لدار الخلافـة العثمانيـة التى بسطت نفوذها على جل اقطار الشرقين الادنى والاوسط وبقاع شاسعـة على طول الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينج مـن نفـوذ آل عثمـان حتـى المغربـان الاوسط والادنى فكان من الطبيعى ان تتمخض فى المغرب على اثر محاولات الاعتداء الاجنبية فى القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد منها تراثنا الفكرى كنزا ادبيا يكاد يكون فريدا فى بابه .

ولن نختم هذه العجالة دون ان ننوه بظاهرة مثلى تجلت لنا فى ابدع صورها وهى ذلك الشعور القوى الذى كان يخامر شعوب العالم الاسلامى بوحدة الاسلام ووحدة الوطن (العربى) فكنا نرى افرادا مغاربة واندلسيين ينزحون عن وطنهـم الخاص للالتحاق باوطانهم العربية الثانية كما كان المشارقة يزورون المغرب والاندلس بقصد التجول او الاستيطان فيجد هؤلاء واولئك من سهولة العيش ووفرة المقومات فى الوطن الجديد ما يحقق الآمال .

وكان من جملة من رحل الى الشرق (1) من الافارقة الشماليين ابن خلدون الذى تولى منصب القضاء بالقاهرة والقاضى ابو بكر بـن العربـى المعافـرى والحاتمـى والمقرى والرودانى المراكشى كما نزح من المشارقة الى المغرب علماء أفذاذ أمثال الحلبى الذى كانت له يد طولى فى الحركة العلمية بفاس .

وكانى بهذا الشعور لم يستسغه المؤرخون الاوربيون الذين استعصى فهم هذه الظاهرة الاسلامية على عقولهم ويكفينا ما زعمه المستشرق الاسبانى بونس بواك : (Pons Boigues) فى كتابه (حياة وآثـار مـؤرخي عـرب الاندلس وجغرافييهـم) (Ensayo bio Bibliografico sobre dosHis.y géo .ar. es.) حيث أكد (ص340) معلقا على نزوح ابن الخطيب من الاندلس الى حضرة فاس بأنه (سعى فى خراب وطنه) غير ان مستشرقا اخر من نفس الجنسية وهو دو الديكوا : de Aldecoa تصـدى للرد على بونس بواك فى بحث مطول كتبه عن ابن الخطيب فى نشرة (المستنـدات البربرية) التى يصدرها معهـد الدروس العليـا :Archives Berbères (ج 2 ص 44 – 87 عام 1917) حيث قال (وانما اريدها هنا ان انفى عن ابن الخطيب ماوصمه به بونس بواك من آنه سعى فى خراب وطنه) ثم ذكر ان (من الغلط استعمال لفظة وطن بالنسبة للمسلمين فى المدلول الجارى عند الاوربيين فديـار الاسـلام كلهـا للمسلمين وطن فلا يمكن والحالة هذه ان يعتبر المسلمون تنقل ابن الخطيـب مـن خدمة مملكة اسلامية الى خدمة مملكة اسلامية أخرى جناية على الوطن) .

وقد سبق لنا اثبات ابيات من نظم ابن الخطيب تدل على حرارة وطنية وتشهد بان الوطنية عاطفة ناب ابن الخطيب منها علاوة على القدر المشترك حظ الموتور الذى زحزح جبرا عن مسقط رأسه ومسرح صباه ومعهد انسه ومألوف منتداه وابعد قهرا عن (مرابع الاباء والاجداد ومنابت الخلان والانداد) (على حد تعبير ابن الخطيب نفسه).

وكيف يتهم رجل بنكران حق الوطن وشعره ونثره يفيضان بالحنين الصادق الى هذا الوطن اليس هو القائل ؟

(مزق شملى وفرق بينى وبين اهلى وتعدى على وصرفت وجـود المكايـد الى حتى اخرجت من وطنى وبلدى ومالى وولدى ومحل جهادى وحقى الذى صار لى طوعا عن اباءى واجدادى) .

والقائل حنينا الى غرناطة :

بلاد عهدنا فى قرارتها الصبـا   يقل لذاك العهد ان يالف العهدا

وقد قال أيضا :

---

(1) انظر بحثنا حول رسل الفكر بين الشرق والغرب .

وطن ثمّ قضينـا فيـه شبابـا ... لم تدنس منها البـرود مذمـة
بنت عنهوالنفس مزاجل من قد ... خلفتـه خـلالـه مغتمـة

وقد نظم فى توديع ولده لما انصرف عنه الى فاس :

بان يـوم الخميس قـرة عيـن ... حسبى الله اى موقـف بيـن
وطـن نـازح وشمـل شتيـت ... كيف يبقى معذب بيـن ذيـن ؟

ولعل اصل هذه التهمة هى الرسالة التى وجهها ابن خاتمة لابن الخطيب وهى مثبتة فى ازهار الرياض (ج 1 ص 265) انبه على هجرانـه الاندلس بقولـه متـى توازى الاندلس بالمغرب وتعوض عنها الا بمكة ويشرب ؟ ما تحت اديمها اشلاء اولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاقد الوية فى سبيل الله ومضارب اوتاد) .

ولكن اولئك المتهمين اغفلوا رد ابن الخطيب على هذه الرسالة فـى جـواب ورد فيه (وأما تفضيله هذا الوطن (أى الاندلس) على غيره ليمن وعموم خيره وبركة جهاده وعمران رباه ووهاده باشلاء عباده وزهاده حتى لا يفضله الا احد الحرمين فحق بريء من المين) .

وقد ظل ابن الخطيب يتحرق حنينا الى غرناطة طيلة مكثه بسلا وشالة وفاس واعترته ازمة قوية تجلى مفعولها النفسانى فى كل مـا كتبه ولم تنقطع غلته العـاطفية حتى عاد الى الاندلس الرطيـب .

الفصل الثاني عشر :

الفن المغربي

اذا استثنينا الفن الصينى فاننا لا نجد أى أسلوب فنى بلغ من السعة ما بلغه الفن الاسلامى الذى يشمل بلاد الهند والعراق وفارس وسوريا وفلسطين وتركيا ومصر وتونس والجزائر والمغرب وصقيلة والاندلس وقد انبثق الفن الاسلامى فى القرن الاول للهجرة وترعرع وازدهر ثم تبلور وتحجر فى منهجه العتيق الرائع فى القرن العاشر أو الحادى عشر حسب الاقطار وهنالك مظاهر شتى فى الفن الاسلامى تسوغ تقسيمه الى خمس مدارس :

1) مدرسة سوريا ومصر
2) مدرسة المغرب العربى والاندلس
3) المدرسة الفارسية
4) المدرسة العثمانية (تركيا والاناضول)
5) مدرسة الهند

ومن خواص الفن الاسلامى أنه مزيج من الفن الشرقى والفن الخاص بالاقطار التى اعتنقت الاسلام مثال ذلك أن التنميق الهندسى كان موجودا قبل الفتح الاسلامى فى الفنين القبطى والبربرى ومعلوم أن التصوير الهندسى قام فى كثير من الاجيال مقام صور الطبيعة وقد اقتبس الفن الاسلامى من الفرس القباب المزخرفة والاقواس الرخوة (المطلوقة) والمقربصة

فالفن المغربى هو اذن مزيج من الفن الشرقى والفن البربرى وسنستعرض المظاهر البارزة لهذا التطعيم المتبادل الذى يضفى على الفن المغربى الاندلسى طابعا خاصا .

الفن البربرى : هندسة الحصون

لا يكاد يوجد فى المغرب سوى الدور ذات السطوح وحتى فى باقى افريقيا الشمالية اللهم الا فى مدينتى تنس ومجاز الباب التى أسسها الاندلسيون وكذلك فى بعض نواحى الجزائر (القبائل)

ففى الاطلس نجد ما يسمى بتغرمت أى الدار المحصنة وهى دار مربعة تقوم فى أركانها الاربعة أبراج وفى سورها مدخل واحد يتصل بغرفة تحاذيها ثلاث غرف أخرى في باقي الواجهات الداخلية وفي زاوية من زوايا هذه

الغرف توجد درج تؤدى الى الطابق الاول الذى هو صورة طبق الاصل للطابق السفلى حيث الخدم والماشية أما الحصون الركنية فانها تستعمل كذلك كمخازن للمؤن وتؤدى اليها ممرات ضيقة ويحيط بالساحة سقف جانبى من الخشب ولا يحتوى الطابق الثانى على غرف وانما هو امتداد للسور مجهز بثقوب للحراسة ويوجد أيضا عند البربر ما يسمى بالمخازن المحصنة أى ايغرم وهى عبارة عن أجنحة منفصلة تنفتح فى ساحة داخلية وتقوم البناية كلها على شاهق فى نقطة استراتيجية لذلك تستخدم كمستودع للمؤن وكقلعة يلجأ اليها الناس عند الخطر .

وأكبر منها دار أو قصر كبار القواد فى الاطلسين الاكبر والاوسط وتقوم فى الغالب على ضفة نهر أو هوة أو على قمة جبل ويحتوى على سكنى القائد ودور الخدم ومستودعات التموين والاصطبلات الواسعة والساحات والحدائق والكل محاط بسور تعلوه حصون وقلاع تشرف على «المدشر» أو القرية الصغيرة المحاذية . وهناك نوع آخر من المستودعات يسمى (أجدير) وهو عبارة عن هرى عام يتخذ شكل دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدى الى ساحة مركزية تتفتح منها أربع أو خمس طبقات من الغرف الصغيرة التى يصعد اليها بسلاليم وطرق معلقة تربط بينهما وتوجد فى سكسيوة وكدميوة أجديرات أوسع هى أشبه بحصون مستطيلة تحتوى على ثلاث أو أربع طبقات من الغرف المعدة لخزن المؤن وتقوم فى أطرافها أبراج وتحتوى فى الغالب على مسجد وهرى عام وغرف للحراس ودار الندوة للاعيان وفى وسطها صهريج لحفظ الماء للحاجة .

ويبنى البربر بالطابية التى أشار ابن عذارى الى استعمالها فى بناء مدينة رقادة عام 294 هـ (البيان المغرب ج I ص 193) فى حين جدد محمد بن حمدون الاندلسى جامع القيروان عام 252 بالآجر والجبس والرخام (نفس المصدر ص 150) وتظهر فى جوانب البناية رسوم هندسية غريبة وقد يبنى البربر بالحجارة عند انعدام التراب .

وتدعم السطوح والسراديب بأعمدة وهى عبارة عن جذوع أشجار مجردة من قشرتها ويتسع أعلاها لتحمل ثقل الاخشاب العمودية وهى ثلاثة أنواع وتستعمل أعمدة خصوصية فى الاطلس الكبير وتصنع باب الدار البربرية من أخشاب مسمرة فى اطار فوق عوارض عمودية وقد تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

الفن الشرقى المغربى

والاغالبة هم أول من أدخل الفن الشرقى الى افريقية أيام الفاطميين وقد وضعوا أسس الفن الجديد فى القيروان حيث جددوا مسجد عقبة بن نافع وأفرغوه فى قالبه النهائى على نمط مساجد دمشق والقاهرة وقد استخدموا مواد رومانية وبيزنطية وجدوها فى افريقية ثم جاء الخوارج فاقاموا فى تاهرت وسجلماسة مآثر

عفى عليها الزمان ولم يبق منها ما يعطينا صورة عن خواصها ثم اتخذ الفن الاسلامى فى المغرب العربى مظاهر جديدة أيام بنى زيرى فى أشير وقلعة بنى حماد وبجاية حيث يتبلور التأثير الشرقى فى مزيج من الهندسة البربرية العربية وفى القرن الثانى الهجرى بنى المولى ادريس مدينة فاس التى يقول عنها كزيل بانها ءاية فى الاقتباس من الفن المشرقى

الفن البربرى الاندلسى

ولكن عندما جاء المرابطون لم يجدوا فى متناولهم سوى نتف من بقايا الفن البربرى ولم تكن لهم صلة مباشرة بالشرق وفنونه التى لم يلمسوها الا عن طريق الاندلس فاتسمت الهندسة المعمارية بميسم جديد ثم اتجه الموحدون فى هذا الاقتباس من الاسلوب الاسبانى المغربى وقد ظهرت هذه الميزات الاندلسية أول ما ظهرت فى المغرب الاقصى التى استبد بها نحوا من قرن قبل أن يتأتى شيوعها فى مجموع افريقيا الشمالية على يد بنى مرين وبنى زيان (فى تلمسان) والحفصيين (فى تونس) هنالك ازدهر الفن واتسم بروعة خاصة واعتدلت فخامة البناء وتناسقت النسب واكتمل الترخيم والتنميق ورقت الاذواق وأصبح للفن خواصه المغربية التى لم تزدها هجرة الاندلسيين الا تبلورا واكتمالا واحتفظ المغرب بطابعه الخاص فى الوقت الذى تسربت عناصر من الفن التركى الى تونس والجزائر وقد تطور الفن المغربى منذ ذلك بعيدا عن كل تأثير أجنبى اللهم الا فى مدن الشاطىء وفى شىء غير قليل من الاصالة فى الحواضر الداخلية وحتى فى عصر الاشراف السعديين والعلويين ظلت الهندسة المعمارية محتفظة بمظاهر روعتها بالرغم عن تحرر الاساليب وتعقم روح الابتكار .

ولعل أول بوتقة انصهرت فيها مع الايام مظاهر الفن المعمارى الشرقى المغربى هى مدينة فاس التى أقامها المولى ادريس عام 191هـ بالموضع المعروف بجراوة وقد أحاط عدوة الاندلس بسور فتح فى جوانبه عدة أبواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو جامع الاشياخ ثم بنيت عدوة القرويين عام 193 بدار القيطون بسورها ومسجدها (مسجد الشرفاء)

غير أن العامل الجوهرى الذى جعل المدينة تتسم فى عقودها الاولى بسمة خاصة هى مزيج من الفن الشرقى الممثل فى هندسة أفريقية ومن الفن المغربى والاندلسى هو أن ثمانية آلاف عائلة أندلسية هاجرت اليها بعد وقعة الربض وكذلك ثلاثمائة عائلة قيروانية وبها سميت العدوتان وتبلور هذا المزيج منذ أول القرن الثالث الهجرى فى فن موحد يعتبر المادة الاولى للفن المغربى الاندلسى . وقد تركز المزيج المغربى الاندلسى منذ عهد المرابطين واستمرت عملية الانصهار نحوا من ثلاثة قرون اتخذ هذا الفن بعدها اطاره النهائى .

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التى لم يعد يخلو منها ربض

ولا زقاق لا سيما فى فاس كما اهتموا ببناء الحصون والقلاع حيث تتجلى المظاهر الاستثنائية للهندسة العسكرية التى استمدت كثيرا من هندسة الحصون الاطلسية وقد برهن المرابطون من شتى الوجوه عندما بسطوا نفوذهم على العدوتين على أنهم صلة وصل فعالة بين الاندلس والعالم البربرى فازدهر التبادل بين شقى الامبراطورية فأوفد الملثمون المجاهدين لتوحيد الاندلس وبعثت هذه الى المغرب بصناعتها وأساليبها الفنية

وأول ما تجلى هذا الاقتباس في العهد المرابطى فى فاس أيضا حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة صناع زادوا فى مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها فوحدت العدوتان (زهرة الآس 32) كما استقدم على بن يوسف المهندسين الاندلسيين لبناء قنطرة تنسيفت قرب مراكش (الادريسى) وهكذا أمكن للمرابطين بفضل أريحيتهم الفياضة ومهارة الصناع المجلوبين من الاندلس أن يركزوا الفن الاموى الاسبانى الذى كانت نتف منه قد وصلت الى فاس وسبتة ومن المآثر الخالدة التى خلفها المرابطون المسجد الاعظم بتلمسان .

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامى فى تاريخ الفن الاسلامى لاسيما فى عهد يوسف الذى عاش فى اشبيلية وتشبع بالثقافة الاندلسية وجمع خزانة تضاهى مكتبة الحكم الثانى وقد ذكر ويليام مارسى أننا اذا راجعنا قائمة مؤسساتهملنا الى الاعتقاد بأن اشبيلية كانت أقرب الىقلبه منمراكش وقد زينهما باروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء فى تاريخ المغرب الفنى وقد تجلت هذه البدائع خاصة فى اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (الخرالدة وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما أشبهت مدينة فاس دمشق فى روائها الفنى وطبيعتها الخلابة وقد ظل للصناع – المجلوبين من الاندلس اليد الطولى فى عهد الموحدين الذين نشروا الفن الاندلسى فى جميع ربوع افريقية حيث تجدد الاتصال بين الفن المغربى والفنين المصرى والعراقى آلسائدين فى بجاية ومهدية وتونس الخضراء وهكذا أمكن للموحدين تحقيق وحدة الاسلام السياسية من قشتالة الى طرابلس وان يساهموا فى توحيد الفن الاسلامى فى المغرب (ويليام مارسى – الفن الاسلامى ولنضرب مثلا للتطور الفنى بما طرأ على القرويين من تغييرات فى مختلف العصور مع التنظير بالبدائع الاخرى :

لم يبق مما بناه الملثمون سوى جامعى تلمسان وعاصمة الجزائر المتشابهين لاندراس أعلام المساجد القديمة بمراكش وآلمساجد التاشفينية بفاس ولكن جامع القرويين اتخذ فى العهد المرابطى (أيام على بن يوسف) سعته وشكليته الذين مازال يحتفظ بهما الآن .

وقد وقع الشروع فى بناء القرويين عام 245 هـ على نفقة فاطمة الفهرية

على ما يقال ثم غير عبد المومن سياسته الاستراتيجية فبنى تازة وجدد حصون تينمل وأسس حصن جبل طارق عام 555 ثم جهز أبو يعقوب اشبيلية بقصبتين واتجه المنصور بعد ذلك نحو التحصين المنيع – فاقام الاسوار والقلاع فى مختلف المدن لا سيما الـربـــاط .

أما القناطر والسواقى فقد استخدم المرابطون رجال الصحـراء والمهندسيـن الاندلسيين معا (ماسى ج 1 ص 359) ويتجلى هذا المزيج الصحـراوى الاندلسى فـى القنوات التى نقلت الماء من الجبـل الى مراكش وهـذا النـوع هـو الخطـارات التى ما زالت تستعمل الى الآن أما فى عهد الموحدين فان أبرز ما صنع هو القنوات التى نقلت ماء غبولة أيام عبد المومن الى المعسكر الذى بنيت فيه بعد ذلك مدينة الرباط وتمر هذه القنوات قرب المسجد الاعظم ثم تتجه الى قصبة الاوداية ثـم جـدد أبـو يعقوب قنطرة تنسيفت ونقل المنصور الماء على قنطرة الى مراكش كما نقل الماء فـى عهد الموحدين من باب الحديد الى عدوة الاندلس بفاس وفى اشبيلية بنى أبو يعقوب قنطرة على الوادى الكبير والارصفة على الضفتين كما بنى قنطرة المـاء المنقول مـن قلعـة جابـر .

ولا مفهوم لهذه الامثلة فقد أسس الموحدون القلاع والمطافىء والملاجـىء فـى مختلف انحاء البلاد ومن الصعـب استقـراء الروائـع الفنيـة التـى ابدعهـا المرابطون والموحدون وكذلك من الصعـب الاحاطـة بالجوانـب الدقيقـة والخـواص التى تمتاز بها ولعل الاشكال والرسوم التى أدرجناها فى هذا البحث تعطينا صورة مكبرة عن المظاهر الفنية البارزة .

غير أن الطابع العام لم يتغير وكذلك الاتجاه الفنى الذى انصرف عنـه بنـو الاحمر الى زخرفة القصور فى حين تجلى عند المرينيين فى اقامـة المـدن المحصنـة والمساجد والمدارس وقد لوحظت مدة فراغ تناهز القرن بين الموحديـن والمرينييـن فترت فيها الحركة المعمارية (مارسى ج 2 ص 476)

وقد استعادت فاس دورها كعاصمة غير أن أبا يوسف المنصور أقام مدينة فاس الجديد أو المدينة البيضاء (الذخيرة السنية ص 99) بقصرها الملكى ومساكن الضباط ومعسكرات الجند والمرتزقة وأحيط فاس البالى بأسوار جديدة ويتجلى نشاط المرينيين المعمارى فى شعورهم بالحاجة الى اقامة المدن الجديدة كالتى بناها المنصـور خـارج الجزيرة الخضراء حيث يسكن مع حشمه اذا جاز الى الجهاد ليلا يضيق على أهل الجزيرة (الذخيرة ص 99) وكالمنصورة التى أقامها أبو الحسن ازاء تلمسان مدة الحصار وكذلك منصورة سبتة (مسند ابن مرزوق) على أن أبا يوسف صنع المار ستانـات وبنـى المدارس بفاس ومراكش والـزوايا فـى الفلـوات وأجـرى المرتبـات والوقـف الاوقاف (ص 100) ولم يفته فى كل ذلك الزخـرف الفنـى الرائـق الـذى يطبـع المؤسسات الجديدة .

وتطورت فى العصر المرينى الحركة الصوفية التى أقفل كتاب (التشوف) طورا من أطوارها مع انتهاء القرن السادس وعرف بنو مرين كيف يستغلون نفوذ الصوفية الذين كانوا يستصحبون معهم فى الجهاد بالاندلس (الذخيرة 174) كما كان العزفى أمير سبتة يستعين بهم لاستنفار الناس الى الجهاد (ص 113) والذى يهمنا من هذا التبجيل هو نتيجته الفنية التى ظهرت فى اقامة القباب مثل قباب شالة مدفن ملوك بني مرين وقبة أبى مدين الغوث فى العباد قرب تلمسان التى حفت بها عمارات ومساجد ومدارس وحمامات وخانات وقد لا حظ ابن مرزوق فى مسنده (أن انشاء المدارس كان فى المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس (مدرسة الصفارين عام 670) ثم أبو سعيد مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ثم مدرسة الصهريج ثم مدرسة الوادى ثم مدرسة مصباح . . ثم أنشأ أبو الحسن فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط مدرسة » فقامت عند ذلك مدارس لايواء الطلبه فى تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا وأزمور وأسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد (تلمسان) والجزائر » (نخب من الكتاب فى مجلة هسبريس المجلد الخامس عام 1925) . وقد أكد ابن مرزوق كذلك أن بنى مرين بنوا جامع تلمسان « الذى اتفق الرحالون وأجمع المتجولون على أنهم لم يروا له ثانيا » وجامع مدينة هنين بالمقربص وهو نحو من الزخرفة يضفى على الحنايا والاقواس حيوية وروعة وقد أقام بنومرين كذلك « من اسفى الى جزائر بني مزغانة وأول افريقية محارس ومناظر اذاظهرت النيران فى أعلاها تتصل المراسلات بينها فى الليلة الواحدة أو فى بعض ليلة (المسند) ولعل أروع مثال يبرز مدى البراعة التى بلغها المهندسون والصناع هو ذلك القصر الذى بناه أبو الحسن فى ظرف أسبوع وساهم فى اقامته البناءون والنجارون والجباسون والزليجيون والرخامون والفنيون والدهانون والحدادون والصفارون .

وقد اشتمل على أربع قباب مختلفة ودويرتين تتصلان بها منقوشتى الجدرات بالصناعات المختلفة بالجبس والزليج والنقش فى الارز المحكم النجارة والصناعات المشتركة (أى التوريق والتسطير) ونقش ساحة الدار وفرشها بالزليج والرخام أضف الى ذلك طيافير الرخام والسوارى ونقش السقوف ودهن القبب وتلبيس الابواب والخوخ بالنحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر وكان قدر ساحة هذا القصر قد وسم على كاغط وهو عبارة عن التصميم الذى يضعه المهندس وتلك صورة عن النشاط المعمارى الغامر فى عهد المرينيين .

ولكن ماهى ميزات الفن المرينى ؟ ان الجامع الكبير فى تازة وكذلك مسجد أبى يعقوب المرينى فى وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التى يتسم بها الفن الموحدى ولكنهما يضيفان رقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجيات ويلاحظ فى المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح فى

الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق .

وهذه المدرسة هى مدرسة ومسجد فى آن واحد مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة ومنجانة ذات ثلاث عشرة من الطسوس . شعار كل ساعة فيها أن تسقط صنجة فى طاس وتتفتح طاقات .

ومن خواص الفن المرينى استعمال الطابية والآجر والحجر غير المنحوت والنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج وتوجد فى المغرب وبالاخص فى فاس الى الآن بنايات خاصة يرجع عهدها الى أواخر العصر المرينى الذى عرف نشاطا معماريا استثنائيا حتى أكد كل من ابن خلدون وابن أبى زرع أن من عصر أبى الربيع تهافت الناس على اقامة القصور الفخمة بالحجارة والمرمر والزليج والنقوش والمضاربة بها وأصبح ثمن الدار بفاس ألف دينار ذهبية .

ومن مآثر المرينيين العسكرية دار الصناعة بسلا وباب المريسة وأسوار فاس الجديد وقلاع تلمسان وتونس وأسوار شالة وبابها وكثير منها مبني بالطابية التى لا تقل عن الطابية الموحدية متانة .

أما فى عهد السعديين الذى بدأ الفن المعمارى يتحجر فيه نسبيا فانه يمتاز (بقصر البديع) الذى وصفه الافرانى بأنه يفوق قصور بغداد روعة وجمالا ورغم هذا التحجر لا يمكن ان يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربى الاندلسى ؛ مع مميزات جديدة حيث أن المنصور الذهبى استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من أوربا وقد هدم المولى اسماعيل قصر البديع الذى انتشرت نتف من انقاضه فى مختلف المدن .

الفن السعدى العلوى

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة ؛ وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فجهز مولاى رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بنى مرين وأقام مدرسة الشراطين ولكن المولى اسماعيل الذى نشر أول الامر الحصون والقلاع الجديدة فى جميع أنحاء المغرب انصرف بكليته بعد ذلك الى بناء قصر الرياض بمكناس وتنميق حدائقه على نسق قصر فرساى حيث كان ينافس لويز الرابع عشر ملك فرنسا وقد استعان المولى اسماعيل بالخمسة والعشرين ألف أسير مسيحى على انجاز مشاريعه الضخمة التى وافاه الاجل دون اتمامها فأكمل المولى عبد الله أسوار القصبة وباب منصور العلج .

وقد أراد المولى اسماعيل أن تكون مدينة الرياض شبيهة بفرساى وبالبديع ولكن تمتاز بشوارعها الواسعة واحيائها المسورة ولا تعطينا الانقاض الباقية صورة دقيقة عن تصميم الرياض اللهم الاذا راجعنا ما كتبه عنها الزيانى فى الترجمان ونقله ألناصرى فى الاستقصا وما زالت الدار البيضاء التى أقامها سيدى محمد بن عبد الله بازاء الرياض موجودة الآن .

واستمرت اقامة القصور على النسق التقليدى كدار المخزن قرب انقاض قصر البديع بمراكش وكقصر الباهية وكالقصور الخاصة التى تنتشر هنا وهناك فى حواضر المغرب وكذلك الرياض الغناء والاكدالات المواسعة التى هى عبارة عن جنان فسيحة مجهز بعضها ببحيرات تجرى فيها المراكب .

أما الهندسة العسكرية فان الملابسات العصرية وتدخل الاسلحة النارية غيرت الهندام العام فى الحصون مثل باستيونات تازة وفاس وتطوان والرباط حيث تستخدم المدفعية الثقيلة وقد استعمل الاشراف نفس المواد التى كانت مستخدمة من قبل الا أن الحجر المنحوت قليل والاساطيل من المرمر الذى كان السعديون يستوردونه من ايطاليا ويقطعون بعضه من معادن الجنوب كما أن الجبس المزخرف ظل ساريا الى الآن وكذلك السقوف الخشبية المطعمة والاقواس والحنايا المنوعة والزليج الملون الذى قل فى المنارات خلاف ما كان فى العصر المرينى والتوريق الكثير والتسطيرات الهندسية.

واذا قارنا الفن المغربى فى مختلف العصور لاحظنا السمة السطحية التى بدا يتسم بها فى عهد الشرفاء حيث كان يتحجر الفن لضعف وازع الابتكار ولكنه فن لا يخلو من روعة ولا يبين عن وهن واعياء بل ان الاخصائيين فى الفن المعمارى المغربى لاحظوا وجود نوع من التطور خلال خمسة القرون الاخيرة تبعا للمقتضيات الجديدة . ويكفى أن نوازن بين النماذج لنلمس الفرق

الفصل الثالث عشر :

جامعة القرويين

احتفل المغرب فى بداية السنة الجامعية 1960 ـ 1961 بذكرى مرور أحد عشر قرنا على بناء جامعة القرويين التى اسستها فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهرى عام 245 هـ .

فى حين تأسس جامع الزيتونة عام 141 هـ (758م) كما ذكره الشيخ بيرم فى صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار (ج 1 ص 122) وبنى الازهر عام 359 أو 360 على يد جوهر الصقلى .

وكان في قرطبة جامعة واربع عشرة كلية زيادة على المدارس الاعدادية والابتدائية العديدة .

واول جامعة تأسست فى اوربا الغربية هى جامعة ساليرن عام 1050 جنوبى ايطاليا ثم أصبحت معروفة بمدرسة نابولى ثم جامعة بولونيا للحقوق ثم جامعة باريس التى اعترف بها لويس السابع عام 1180 وجامعة بادوا عام 1222 واكسنفورد عام 1249 وكمبردج عام 1284 وسالامانكا فى اسبانيا عام 1243وجامعة مونبيليي للطب.

وقد اغلق قياصرة الرومان جامعة اثينا عام 529 بعد الميلاد على اثر انتشار الدين المسيحى فى عهد جوستينيان لأنها كانت مركزا للمدنية اليونانية الوثنية ولعل دراسة غير منظمة قد بدأت فى القرويين منذ تأسيسه وكان جامع الاندلس الذى بنته مريم اخت ام البنين قى نفس الوقت ينافس القرويين حوالى القرن الرابع الهجرى وصار بعد ذلك اكبر فروعه وذكر دلفان فى كتابه حول فاس وجامعتها والتعليم العالى (مطبوع عام 1889) ان مدينة فاس هى دار العلم وان القرويين هى « اول مدرسة فى الدنيا » (ص12) كما اكد باديا لابليش المعروف بعلى باى العباسى (الذى مكث فى المغرب اربع سنوات (1803 — 1807) وكتب عنه رحلة فى ثلاثة مجلدات طبعت فى باريس عام 1884) ان مدينة فاس هى فى افريقيا اشبه باثينا (عاصمة الفكر) فى اوربا ؛ ويذكرون ان البلجيكى اكلينار اقام بفاس عام 1540 أيام ابى العباس الأعرج السعدى (948 هـ) وكتب رسائل باللاتينى يصف فيها القرويين ودروسه بها وعوائد الطلبة والمدرسين واسلوب التدريس وانواع العلوم المدروسة وكانت العلوم التى تدرس بالقرويين هى التفسير والحديث والاصول والفقه والنحو والبيان والمعانى والبديع والمنطق والعروض والحساب والتنجيم

والكلام والتصوف واللغة والتصريف والتوحيد والتاريخ والجغرافية والطب والقضاء والأحكام والادب .

أما الأجرة على التدريس فالغالب انها كانت معدومة او تكاد . فقد كان يشتغل بالعلم ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به واذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسل فيكون ذلك سببا لمهانته وضعفه (كشف الظنون ج I ص I5)

على أنه يحكى ان محمد بن على بن اسماعيل المعروف بمبرمان كان قيما بالنحو لا يقرىء سيبويه الا بمائة دينار (بغية الوعاة ص 74) كما كان شمس الدين السيوطى يقرىء كل بيت من الفية ابن مالك بدرهم (البغية ص 37)

وقد كان اساتذة الجامعة يتقاضون علاوات من لحم وحبوب وزيوت وسمن وصابون اى كل ما يحتاجون اليه طوال السنة بل كانوا يتمتعون بحق السكنى مجانا كما ورد فى بحث لأحد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس فى القرن الماضى وهو محمد الحرشاوى الذى ينقل عنه دلفان وكان الأساتذة ملزمين بالسكنى فى فاس .

والتعليم مجانى بالقرويين وكذلك فى جوامع الشرق وقد سبق لنظام الملك ان اعلن فى القرن الرابع ان التعليم بمدارسه حق للجميع بل عين مرتبا للطلاب المعوزين (طبقات ابن السبكى ج 3 ص I37) وفى نظامية بغداد كان 6000 طالب يتعلمون بالمجان (الاسلام والنصرانية محمد عبده ص 98) وقد انشأ يحيى ابن خالد الكتاتيب للأيتام بالمجان (الجهشيارى الوزراء والكتاب ص 2I2) وأسست كذلك محاضر مجانية فى سوريا أيام نور الدين ابن واصل (مفرج الكروب (I) وفى بغداد ايام شمس الملك بن نظام الملك (تاريخ آل سلجوق ص I36) وصلاح الدين (ابن جبير ص 52 و 272)

ولم يكن يجرى أى امتحان للطلبة بل كان الشيوخ يعطون الأجازة لتلاميذهم المبرزين والى جانب هذه الأجازة الخاصة كان ينتظم حفل يحضره الآساتذة والطلبة بالقرويين فيلقى كل استاذ على الطالب المنتهى اسئلة فى مختلف العلوم فاذا وفق فى اجوبته عينه القاضى فى الطبقة الرابعة للعلماء .

وتعطل الكلية يومى الخميس والجمعة وقد ذكر دلفان عن الحرشاوى وابن ثابت وهما عالمان جزائريان تخرجا من القرويين ان يوم الثلاثاء كان يوم عطلة فى هذه الجامعة وذكر النعيمى فى الدارس ان الدروس كانت تعطل يوم الجمعة والثلاثاء فى دمشق (ص I94)

(I) ينشره الآن صديقنا الاستاذ الكبير الدكتور جمال الدين الشيال وقد صدر منه لحد الآن ثلاثة مجلدات من ستة

ويقال بأن جيلبير وهو البابا سلفستر الثانى درس بألقرويين وادخل الارقام العربية الى أورباوالارقام الهنديةأطلع عليها العربوكونوا منها سلسلتين احداهماالارقام الهندية التى شاعت فى بغداد والجانب الشرقى من العالم الاسلامى والثانية وهى الغباريه فى الأندلس وافريقيا والمغرب الاقصى وهى المستعملة الآن فى اوربا ولم يستطع الاوربيون استعمالها الا بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد .

وقد درس بالقرويين طلبة موفورون تواردوا فى مختلف العصور من طرابلس وتونس والجزائر والسودان .

وكان عدد طلبة القرويين الافاقيين (من جزائريين ومغاربة) يبلغ سبعمائة بينما لم يكن عدد الأساتذة يتجاوز فى الغالب الاربعين واستمر هذا العدد الى عهد الاستقلال (عام 1956)

وكانت سوق العلم نافقة فى عهد المرابطين والموحدين والمرينيين وفى ايام ابى عنان المرينى كانوا اعز الناس واكثرهم عددا وأوسعهم رزقا (نيل الابتهاج للسودانى ص 260) .

وبدأ المغرب ينحل فكريا أيام الوطاسيين ثم عاد الى الانبعاث فى عهد الشرفاء فتطورت حركة البحث والتاليف وتخرج من القرويين علماء افذاذ لا تزال آثارهم الرائعة تشهد بقيمتهم العلمية الفذة وفى ايام المولى اسماعيل كانت اسواق العلم عامرة ونجوم افلاكه نيرة زاهرة (تاريخ الضعيف)

ويسكن الطلبة فى احدى المدارس الاربع عشرة (الشراطين والمصباحية وباب الجيسة والصفارين والعطارين) ويتقاضون خبزة فى اليوم وقد جرت العادة منذ اواخر القرن الماضى بان يشترى الطالب غرفته فى المدرسة وله أن يبيع المفتاح عند انتهاء مدة الدروس .

وقد لا حظ ابن مرزوق ان انشاء المدارس (اى مساكن الطلبة) كان فى المغرب غير معروف حتى انشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس (وهى مدرسة الصفارين المؤسسة عام 670 هـ) ثم ابو سعيد مدرسة العطارين ومدرسة البيضاء ثم مدرسة الصهريج ثم مدرسة الوادى ثم مدرسة مصباح ثم انشأ ابو الحسن .. فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط مدرسة (تازة ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وانفا وأزمور وأسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بتلمسان والجزائر (المسند الصحيح الحسن هسبريس 1925) ويقال بأن يوسف ابن تاشفين اسس مدرسة الصابرين وعرفت فى القرن الثانى عشر بمدرسة بومدين (الأخوان فى شرفاء وزان لعبد السلام القادرى)

اما عند الخصوص فمفضل العذرى صاحب الشرطة والحسبة بفاس هو اول من سن سنة بناء المدارس بفاس اذ على يديه بنيت المدرسة القديمة بالحلفاويين (الجذوة ص 220)

وقد قام ضد بناء المدارس محمد الابلى العبدرى شيخ ابن خلدون فلاحظ ان العلم قد اذهبه بناء المدارس وايده ابن بابا السودانى حيث ذكر ان ذلك أدى لذهاب العلم بهذه المدن كفاس حتى صار يتعاطى الاقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة فضلا عن غيرها بل من لم يفتح كتابا للقراءة قط حيث صارت بالتوارث والرياسات (نيل الابتهاج ص 246)

اما جامع الأزهر فقد نشأت صفته الجامعية ايام العزيز بالله الذى هو اول من اقام الدرس فيه بمعلوم اى قبل المدرسة النظامية التى بناها نظام الملك صديق عمر الخيام ووزير السلطان السجلوقى الب ارسلان عام 457 هـ وقد أدخل النظام للأزهر فى 23 ذى القعدة 1287 الموافق 3 يبراير 1872 م . وقد اقتصرت الجامعة فى البداية على العلوم الاحد عشر فى الامتحانات وصارت شهور العمل ثمانية بعد أن كانت أربعة ويوزع الأزهر ارغفة على الطلبة وقد رفعها الشيخ محمد عبده من خمسة آلاف رغيف يوميا الى خمسة عشر الفا . وتوجد بالأزهر مراحل ثلاثة وصدر قانون عام 1911 أسس بموجبه قسم التخصص ثم ادرجت علوم حديثة فى النظام مثل تاريخ التشريع والنظام الدستورى ومبادىء الاقتصاد ونظام التربية والاخلاق وعلم النفس واللغات الاجنبية والشرقية وتأسست فرق رياضية .

وكانت الى جانب جامعة الأزهر مساجد تقوم بنفس الدور مثل جامع عمرو الذى كانت تنعقد فيه قبل وباء 749 « بضع واربعو نحلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه » (المقريزى الخطط ج 2 ص 246 الى 256) وفيه زوايا ثمان لشتى العلوم منها زاوية الشافعى (ص 256)

وذكر الحافظ عماد الدين بن كثير ان علماء بغداد منعوا فى بعض السنين تعليم الأطفال فى المساجد (لطائف المنن ج 2 ص 50)

ولكراسى العلم بفاس وغيرها من المغرب اوقاف خاصة وقد اشار صاحب نشر المثانى الى الأحباس المخصصة لكراسى التفسير وصحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى (ج 1 ص 38)

ولعل اول مدرسة بنيت بالمغرب يرجع عهدها الى القرن الخامس حيث اسس واجاج بن زلو اللمطى تلميذ ابى عمران الفاسى دار المرابطين لطلبة العلم (الانيس المطرب ج 2 ص 10)

واول من نعلمه امر ببناء مدرسة مستقلة عن الجوامع فى بغداد هو احمد ابن طلحة الموفق الملقب بالمعتضد المتوفى عام 289 هـ .

ويقول ابن خلكان ان نظام الملك هو اول من انشأ المدارس فاقتدى به الناس (الوفيات ج 1 ص 202) ولكن ابن السبكى (الطبقات ج 3ص 137) والمقريزى (الخطط ج 3ص 363) يلاحظان أنه ليس اول من انشأ المدارس - فهناك المدرسة البيهقية بنيشابور والمدرسة السعيدية بها كذلك بناها الامير نصر بن سبكتكتين

اخو السلطان محمود ومدرسة ثالثة بنيشابور لابى اسحاق الاسفراييني ويقول ابن السبكى (ج 3 ص 137) ان نظام الملك كان اول من قدر المعاليم للطلبة مع ان العزيز بالله الفاطمى سبق نظام الملك بقرن تقريبا فى تقدير هذه المعاليم للطلاب (الخطط ج 2 ص 341)

وقد ذكر كلينار الذى زار مدينة فاس بعد الحسن الوزان بخمسة عشر عاما ان فاسا كانت تحتوى اذ ذاك على مائتى مدرسة (ولعله يدرج الكتاتيب القرآنية)

وذكر النعيمى فى كتابه الدارس من المدارس أنه كان فى دمشق عام 927 هـ 320 مدرسة فى المجموع من بينها اربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة انشأها نجم الدين اللبودى من اهل القرن السادس ولكل مدرسة خزانة كتبها وكانت الطبيعيات والرياضيات والفلك والادب تدرس فى فصولها .

وقد ذكر ابن جبير انه شاهد 20 مدرسة فى دمشق و 30 فى بغداد وروت كتب فرنجية ان غرناطة كان بها 17 مدرسة كبرى و 120 صغرى .

وذكر دوزى ان الأندلسيين كانوا يعرفون عموما القراءة والكتابة سوى القليل بينما كانت اوربا امية اذا استثنينا رجال الدين .

وقد عين الحكم الأموى المؤدبين لتعليم ابناء المعوزين حول المسجد الجامع وبكل ربض من ارباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون (ابن عذارى البيان المغرب ج 2 ص 358)

وقد بلغ عدد مدارس (كتاتيب) بالرم عاصمة صقلية ثلاثمائة وقد تكاثر عدد المعلمين فى هذه الجزيرة لانهم معفون من الجهاد (معجم البلدان ج 5 ص 377)

وكان بالمدرسة المستنصرية ايوان لكل مذهب من المذاهب الاربعة وفى كل ايوان مدرس و 75 طالبا (العبرى تاريخ مختصر الدول ص 425) وفى دمشق ومصر 20 طالبا (الدارس ج 1 ص 303) وفى المدرسة المجدية بمصر مدرس شافعي ومعيدان اثنان و 20 طالبا (المقريزى ج 2 ص 400) وكانت حلقة امام الحرمين بالمدرسة النظامية بنيشابور تضم 300 طالب (طبقات الشافعية ج 2 ص 252) .

وتأسست مدرسة للفنون ايام المولى عبد الرحمن بفاس الجديد تخرج منها فئة توجه بعضهم لاتمام دروسهم باوربا منهم محمد الجباص بانجلترا وعبد السلام العلمى بايطاليا وذلك فى حدود 1300 هـ . (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 367) والمدارس منتشرة بكثرة فى حواضر المغرب وبواديه وقد احصوا مائتى مدرسة فى دكالة ويلاحظ ذلك حتى فى شواهق الجبال ؛ ففى يقراماواس بالريف توجد مدرسة للحساب (موليبراس « المغرب المجهول » ص 113) .

واول مدرسة للصم فتحها القس ايبى عام 1755 واول مدرسة للعميان اسسها هوى عام 1783 وتوجد بواشنطن كلية للعميان تدعى كلية كالوديت .

وقد ذكر احمد زكى ان العرب سبقوا الفرنج الى اختراع كتابة للعميان .

أما من حيث الأسلوب فقد اوصى الغزالى بان يتعلم الطفل فى المكتب القرآن ثم القصص الأخلاقية ثم الاحكام الدينية فالشعر على ان يحفظ الطفل من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله (الأحياء ج 3 ص 57 .)

وقد اضاف ابن مسكويه الى هذا البرنامج مبادىء الحساب وقليلا من قواعد اللغة العربية (تهذيب الاخلاق ص 20) ويقول الجاحظ = (ولا تشغل قلب الصبى بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن) (رسالة المعلمين مخطوط) وقد اقترح ابو بكر بن العربى المعافرى البدء بالشعر حتى يتمكن الطفل من الاداة اللغوية وايده فى ذلك ابن خلدون وكان احيانا معلم القرآن فى الشرق هو غير معلم القراءة والكتابة (رحلة ابن جبير) بخلاف المغرب .

وقد شعر المغاربة بقيمة الأستاذ والشيخ فاولوه كامل الاعتناء والتبجيل وكان لمدرسى العلم الحظوة الكاملة عند الدولة والشعب وقد شعرت اوربا مؤخرا بقيمة المعلم الاجتماعية حيث لوحظ ان اعداد المعلم الاعداد الكامل كان هو السبب فى نهضة المانيا وانتصارها فى حرب السبعين حتى قال بسمارك (لقد انتصرنا على عدونا بمعلم المدرسة) .

والاضراب لم يكن معروفا بجامعة القرويين وقد ابتكره رجال الجامعات الغربية وكانوا يلجأون اليه اذا وقع المساس بحقوقهم واحيانا كانوا يعمدون الى الهجرة كما حدث عام 1229 عندما وصل قسم من اساتذة جامعة باريس وطلابها الى اكسفورد لتدخل السلطة فى شؤون الجامعة .

وقد قدر عدد محتويات مكتبة القرويين آخر القرن الماضى بنحو الثلاثين الف مجلد ؛ ولعل عدد المصنفات التى يقال ان المولى عبد الرحمن وزعها على علماء المغرب لا تعدو الالف .

واعتناء ملوك المغرب بجمع الكتب معروف وقد وصف المراكشى ولوع يوسف ابن عبد المومن بذلك فذكر أنه لم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة اهل النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب (المعجب ص 145)

وبلغت هذه الخزانة الموحدية اهمية جعلتها تعادل مكتبة الخليفة الأموى الحكم الثانى ؛ وذكر جوستاف لوبون فى حضارة العرب (ص 468) ان مكتبة الحكم الثانى احتوت على ستمائة الف مجلد فى حين ان شارل الحكيم لم يستطع أن يجمع بعد ذلك العصر باربعة قرون فى المكتبة الوطنية بفرنسا اكثر من تسعمائة سفر .

وغالب المخطوطات الموجودة فى مكتبة الاسكوريال اصلها من المغرب وذلك أن زيدان السعدى كلف قنصلا فرنسيا عام 1617 بنقل اربعة آلاف مخطوط عربى الى أكادير فحول شراع مركبه نحو فرنسا حاملا معه المخطوطات النفيسة فأسره

القرصان الاسبان ونقلوا الكتب الى الأسكوريال .

وذكر المؤرخ جيبون ان الافرنج نهبوا مكتبة طرابلس الشام اثناء الحروب الصليبية وكان فيها ثلاثة ملايين مجلد كما ذكر كندى ان الأسبان احرقوا ثمانين الف سفر عام 1499 م . (905 هـ .) بريسكوت – فرديناند وايزابـلا (ص451).

وقد اشترط ابو يوسف المرينى على ملك اشبيلية منحه جميع المخطوطات العربية التى انتزعت من المسلمين فحمل منها الى جامعة القرويين ثلاثة عشر حملا كما فى القرطاس . .

وكانت خزانة المولى اسماعيل بدويرة الكتب بمكناس وقد فرقها على جميع مساجد المغرب وكانت تزيد على 12.000 مجلد .

وفى الشرق احتوت مكتبة الفاطميين على اربعين خزانة كل واحدة تتسع لـ 18.000 مجلد (المقريزى ج 1 ص 408)

وروى ابو شامة (الروضتين ج 1 ص 200) ان هذه المكتبة كان بها مليونان اثنان من الكتب وذكر المقريزى عدة روايات يميل منها الى ان العدد كان 1.600.000 كتاب (ج 1 ص 409)

وقد اسست بفاس بامر من سيدى محمد بن عبد الرحمن المطبعة الحجرية التى نشرت عدة مخطوطات على نفقة الدولة فكانت اداة جوهرية فى نشر العلم بازاء جامعة القرويين العامرة .

وبعد الاستقلال (1956) ادخل نظام حديث على جامعة القرويين وعدلت البرامج فادرجت العلوم الحديثة وبعض اللغات الحية وحولت ثكنة الشراردة الى أقسام ثانوية مجهزة بداخلية عصرية واسست بدل النهائى الادبى والشرعى كلية للشريعة بفاس وستفتح فى اكتوبر 1962 كلية للغة العربية فى مراكش (جامعة ابن يوسف) وكلية لأصول الدين بتطوان وذلك ضمن جامعة القرويين .

الفصل الرابع عشر :

أصول التصوف المغربي

التصوف المغربى قطعة حية من التصوف الاسلامى العربى لما تركته نظريات الصوفية المغاربة من آثار عميقة فى الفكرة الصوفية الشرقية .

وقبل ان نحاول رسم صورة عن تاريخ الحركة الصوفية بالمغرب نلخص بعض النقط العامة التى تتصل باساس النظرية الصوفية فى مجموعها .

(التصوف) لفظة اختلف فى مصدرها فقيل من الصوف او الصفاء أو الصفة وكل هذه الاشتقاقات محتملة ولكن الغريب هو ما ذكره مسيو كينون فى مجلة Cahiers du Sud (ص 39) فى مقال تحت عنوان l'esotérisme islamique من ان كلمة (صوفية) ليست سوى مجموعة من أحرف جفرية معناها الحكمة الالهية والصوفى هو الحكيم الالهى ونقل ميشوبيلير فى (محاضراته) حول الطرقية بالمغرب (ص 5) ان بعض الناس يعتقدون ان كلمة صوفى منحدرة من لفظة يونانية وهى : sophos وزعم بعضهم انها مشتقة من (آيا صوفيا) .

ولعل قضية الاشتقاق تتصل فى ذهنية هؤلاء بالمحاولة الهادفة الى ربط الفكرة الصوفية الاسلامية بالتصوف الهندى او الافلاطونى أو المسيحى فقد حاول الدكتور طه حسين فى ذكرى ابى العلاء ان يرجع التصوف الاسلامى الى اصل هندى وكذلك (الاستاذ كولدزيهر فى كتابه) le Dogme et la loi de l'islam (العقيدة وقانون الاسلام) حيث اكد (ص 134) ان الافكار الصوفية اكتسبت تحت التاثير الهندى كثيرا من القوة لان فكرة وحدة الوجود تتجاوز فى الاسلام الشكل الذى اتسمت به فى الافلاطونية الجديدة ويغلب على ظنى ان طه حسين تأثر بما لاحظه الفريدفون كريمر من وجود عناصر هندوسية فى نظريات المعرى الدينية والاجتماعية بل حتى فى بعض نواحى سيرته وشعره الفلسفى غير اننا نرى مستشرقين امثال ما سينيون يرجعون التصوف الى اصل اسلامى صرف هو القرآن ولكن نيكولسن يقول:

(صواب ان بعض المتصوفة كانوا بين خواص دراسى القرآن ولكن لا يصح — فيما اظن — ان نعتبر التصوف مجرد نتيجة للدراسات القرآنية (ص 112) (Legacy of islam) ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم أمثال رونان الذى قرر فى كتابه (ابن رشد ومذهبه) Averroès et l'Averroïsme من ان (ما يسمونه فلسفة عربية ليس الا مجرد محاكاة أو تقليد لارسطو وضربا من التكرار لآراء وافكار اليونانيين كتب باللغة العربية (ص 7)

ولكنه تناقض مع نفسه فيما بعد (ص89) حيث اعترف (بان العرب مثل اللاتين – مع تظاهرهم بشرح ارسطو عرفوا كيف يخلقون لانفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة لما كان يدرس فى الليسيوم)ولم يخف هذا المتناقض على أحدمعاصرى رونان وهو دوكا الذى ذكر فى مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين) Histoire des philosophes et théologiciens musulmans انـه لا يمكـن لعقلية كعقلية ابن سينا الا ان تنتج جديدا .

وقد ضربت مثلا بالفلسفة (I) نظرا لما بينها وبين التصوف من وثيق الصلة حتى قيل ان التصوف قطعة من مذهب الفارابى الفلسفى لا ظاهرة عرضية فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الاسلام) وقد تأثر الفيلسوف المغربى ابن طفيل بالنزعة الصوفية فى (رسالة حى بن يقظان) حيث وصف بطل القصـة (ص II4) بانـه (لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود الا الواحد القيوم وشاهد ما شاهد عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التى هى شبيهة بالسكر خطر بباله أنه لاذات له يغاير بها ذات الحق وان حقيقة ذاته هى ذات الحـق ... بل ليس ثمة شيء الاذات الحق) وقد ذهب الناس مذاهب شتى فى تعريف التصوف حتى ساق ابن السبكى فى طبقاته (ج 3 ص 239) الف تعريف للتصوف سهر على التقاطها من مختلف المصادر ابو منصور عبد القاهر البغدادى ورتبها تبعا لاصحابها على حسب الحروف الهجائية .

ويلذ لى ان انقل لهؤلاء الذين يزعمون ان التصوف المغربى تأثر بالنزعة الصوفية المسيحية – لا سيما ما سينيون الذى زعم ان الشيخ ابن عربى الحاتمـى استمـد من نظريات الكنيسة ماقرره المستشرق الاسبانى اسين بلاسيوس مـن أن نزعـات دانتى Dante الايطالى واوصافه لعالم الغيب مستمدة من كتب محيى الدين الحاتمى دون كبير تصرف وكذلك اكهارت الالمانى اول الفلاسفة الصوفية الغربيين الذى نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الاندلسية فى الحكمة والعلـوم وقـد اقتبس ريمونـد مـن ابـن عربى خاصة فى كتابه (اسماء الله الحسنى) لانه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربى بقرن واحد وجعل اسماء الله الحسنى مائة وهى لم تعرف بهذا العـدد فى الديانة المسيحية قبل ذلك .

وسبينوزا اليهودى البرتغالى كان كلامه عن الذات والصفات نسخة من فلسفة

(I) احمد بن عبد الله بن محمد الدزوم المراكشى نزيل القاهرة جنح الى التصـوف الفلسفى ونسخ الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان أبو حيان لذلـك يرميـه بالزندقة وصار هو يصف ابا حيان بأنه ظاهرى حتى فى النحو .

احمد ابن ابراهيم بن احمد بن صفوان : مشارك فى الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الالاهية تلميـذ بن عبد الملـك المـؤرخ وشيـخ ابـن الخطيـب

المتصوفه المسلمين مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشوبيليير في محاضراته (ص 29) حيث ذكر أنه اذا استثنينا ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فانه لا يبقى شيء بالمرة .

واتحاد الشعوب في الاتجاه الصوفي لا يعد دليلا على اى اقتباس لان وقوع الحافر على الحافر شديد الاحتمال لا سيما اذا اعتبرنا وحدة الوجدان البشرى الذى هو في الحقيقة ينبوع الذوق الصوفي وقديما قال بعض صوفية الاسلام بان التصوف ليس علما يكتسب وانما هو نور ينقدح في سريرة المومن ويدل على وحدة الفكرة الصوفية عند الهنود والمسلمين التى هى وحدة طبيعية كما قلنا – ما ساقه الشهر ستاني في الملل والنحل (على هامش الفصل لابن حزم ج 4 ص 130 – 142) –

وقد قرر ريتشارد هارتمان وماكس دورتن (في مقالين كتباهما عام 1927) ان التصوف هندى الاصل وذكر نيكولسن ان التصوف مدين للفلسفة الهندية التى وصلت اليه عن طريق مثراوماني من جهة وللقبالة la cabale اليهودية والرهبنة المسيحية والغنوصية والافلاطونية من جهة اخرى ثم أكد ان الذى جمع هذه العناصر ومزجها هو الجنيد .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بأن أول من تسمى صوفيا هو ابو الهاشم الكوفي المعاصر لسفيان الثورى ويرى السراج في اللمع (ص 22) ان أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

واول من تكلم في بغداد في الحقائق الالهية والتوحيد سرى السقطى (تذكره الاولياء ج ١ ص 274) واول من حاضر الناس في التصوف يحيى ابن معاذ الرازى المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج ١ ص 299) .

ويزعم نيكولسن في دراساته الصوفية التى جمعها أبو العلاء عفيفي وعربها (ص 9) ان ذا النون المصرى كان له اكبر الاثر في تشكيل الفكرة الصوفية هذا بينما يؤكد هو تفليد في ترجمة«المثنوى » ان مؤسس التصوف هو أبو يزيد البسطامى

واول مؤلف عربى استعمل كلمة التصوف – على ما يظهر – هو الجاحظ البصرى في حديثه عن النساك (نيكولسن ص 68) وأكد الدكتور زكي مبارك (التصوف الاسلامى ج 2 ص 77) ان التوحيدى جارى في كتابه « الاشارات الالهية » سلفه الجاحظ الذى حرص على تعطير كتبه برواية أقوال النساك والزهاد .

وقد اصبح التصوف مذهبا منظما اثناء الجزء الاخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثنايا الرسالة القشيرية والتذكرة ونفحات الانس ان صوفية هذا القرن اتخذوا القرآن والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية

التى بدأت نقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصارى الهروى المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابى يزيد البسطامى مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتى بازاء العرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذى بنوا عليه قضية معراج ابى يزيد الذى يقصها فريد الدين العطار فى تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان فى الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر فى تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخى التصوف بأنه الاخذ بالحقائق والياس مما فى ايدى الخلائق (الرسالة القشيرية ص 149) ووصفه أبو حفص الحداد بأنه تمام الادب (التذكرة ج ۱ ص 331) وذكر ابو الحسين النورى ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربى ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 248) وقال أبو الحسن اليوشنجي:التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدأت تظهر قبل نهاية القرن الثانى الهجرى واول خانقاه اسس لمتصوفة المسلمين (على ما فى النفحات ص 34) كان بالرملة فى فلسطين وذكر المقريزى فى خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات — او الخانقاوات كما يسميها — وجدت فى الاسلام فى القرن الخامس الهجرى

والخانقاه اعمق فى التزمت والرهبنة مما عرف بعد بالزوايا لان هذه الخانقاهات كانت مبنية فى معظمها على نظام صارم من التبتل والرهبنة وقد ذكر القزوينى ان أبا سعيد ابن ابى الخير هو مؤسس نظام الرهبنة فى التصوف الاسلامى وأول واضع لقانونه .

وقد تأثر المغرب بفكرة الرباطات فى نفس العصر تقريبا فقد اشار صاحب الانيس المطرب (ج2 ص 13 طبعة سلا) الى دخول عبد الله بن ياسين الى جزيرة قرب الساحل مع سبعة نفر من كدالة ويحى بن ابراهيم امير صنهاجة حيث إبتنى رباطا وأقام به مع أصحابه يعبدون الله مدة من ثلاثة اشهر فتوارد عليهم الناس حتى بلغ تلاميذه الف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين ويقال بأن واكاك اللمطى هو الذى اسس دار المرابطين فى بلاد نفيس وهو الذى وجه تلميذه عبد الله ابن ياسين ثم توالى بناء الرباطات خلال القرنين الخامس والسادس كرباط اولاد امغار فى تيط ورباط مولاى بوشعيب قرب ازمور ورباط ابى محمد صالح فى آسفى ورباط شاكر ورباط تينمل دار الموحدين وقد اطلقت لفظة الزاوية على بعض هذه الرباطات لا سيما فى الاوساط الحضرية فبدأنا نسمع عن زاوية أبى النور المشترائى وزاوية تلميذه أبى شعيب ايوب ابن سعيد وزاوية صالح بن حرزهم تلميذ ابى حامد الغزالى .

وكان لقيام هذه الرباطات فى بعض الاوساط انفعال سيء فهبت لمعارضتها والظاهر ان الحركة الصوفية — سواء بالمغرب ام المشرق — بدأت تتسم بشيء من

الفوضى أدى الى انسلال عناصر مغرضة تهلهل تحت تاثيرها السيء جانب مهم من النظرية الصوفية البريئة حتى رأينا ابا سليمان الداراني يصف المتصوفة بأنهم (باعراض الدنيا موشحون عظمت الدنيا فى قلوبهم فلا يرون فوقها مطلبا وصغر الحق فى اعينهم فاعجلوا منه هربا حافظوا على السجادات والمرقعات والمشهرات والعكاكيز والسبحات المزينة كالعجائز طغام صبيان الاحلام لا علم عن الحرام يردهم ولا ورع عن الشبهات يصدهم ولا زهد عن الرغبة فى الدنيا يصرفهم اتخذوا ظاهر الدين شركا للحطام ولازموا الخوانق والرباطات رغبة فيما يوتى اليها من حلال وحرام وسعوا (كذا) اردانهم فى الخوانق والرباطات رغبة فيما يوتى اليها من حلال وحرام الخ .

وأنشد الجنيد

اهل التصوف قد مضوا	صار التصوف مخرقة
صار التصوف ركوة	وسجادة ومذلقة
صار التصوف سبحة	وتواجدا ومطبقة
كذبتك نفسك ليس ذا	سنن الطريق الملحقة

وقد ساق الشيخ زروق جملة من الصور عن هذا الانحلال سنعرج عليها لدى تحليل كتاب « عدة المريد » الذى قد يكون أحسن كتاب فى هذا الباب لا سيما وأنه من وضع رجل يلقب بمحتسب الصوفية

وبالجملة فقد اثار انبثاق الفكرة الصوفية منذ القديم موجات متعاكسة من الانكار والتاييد وكان فى كلا الموقفين نوع من الشذوذ اتسمت به كتابات الكثير ممن خاضوا فى هذا الموضوع وظلت الحركة تتارجح الى يومنا هذا بين طعنات الخصوم ودفاع الانصار .

والواقع أن الانسان – مهما بلغ به تقديسه للابرار من رجال التصوف – تأخذه الحيرة أحيانا عند ما يصطدم بعبارات يخيل اليه أنها تشذ عن ظاهر الشرع .

واذا كان البعض من المتصوفة قد انحرف فالتصوف فى أساس فكرته لا يزال سامى الغاية وقد رأينا الدكتور زكى مبارك الذى حمل حملة شعواء على التصوف يغالى عند ما ينفحه الوجدان بانعكاسة من نوره الباطنى فيقول :(التصوف ج 2 ص 6) « ان كان فى العالم قصيدة خالدة فهى التصوف ؛ هو وحده الانشودة الباقية يوم نبيد الاناشيد ؛ ولو فنيت الدنيا دفعة واحدة وبقى انسان واحد يفتش عما حق فيها من الكلمات لما وجد اصدق من كلمة الصوفية « ويقول (ص 24) : » اهل الباطن وجودهم ضرورى لانهم يعطرون الشريعة بعبير الروح ويسكبون عليها أسرار الخيال « ويقول (ص 205) : « الصوفية هم الناس ومن عداهم أشباح بلا ارواح».

الفصل الخامس عشر :

مصادر التصوف المغربي

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذى لا يشمل الجانب السياسى والاقتصادى والاجتماعى فحسب بل يتجاوزه الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربى كان له كبير اثر فى توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته فى مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التى قامت فى المغرب فى اوقت مبكر - مبعثرة فى كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ؛ بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة على المرشد ومعيار الونشريسى الذى تحوى أجزاؤه نتفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لا باس بها فى وصف التيارات المتعاكسة التى خلقها انبثاق الطرقية فى المغرب .

اما كتب التاريخ المغربى فيغلب على الظن أنها تحوى من الصوفيات أكثر مما تحويه مصنفات الشرق لان الدور الذى لعبه التصوف المغربى فى الميدان السياسى لا يكاد يضاهى ويكفى ان نعلم ان اسرا مالكة لم تتمكن من مسك زمام الحكم بالمغرب الا بفضل روابطها مع الصوفية الذين بلغت سلطتهم الروحية على الشعب مبلغا اصبحوا يوجهونه الوجهة التى يرتضونها بل ان هنالك حركات صوفية كالحركة الدلائية استغلت نفوذها الروحى فاحتفظت بمقاليد السلطة السياسية لنفسها

- وللمتتبع لحركة التأليف فى المغرب يلاحظ أن كتابة التاريخ توقفت او كادت بعد القرن الحادى عشر حيث ان أمهات المصنفات التى تعتبر اصولا للتاريخ المغربى قد صنف معظمها قبل ذلك العصر وعندما فترت كتابة التاريخ انبثق لون من التاريخ الخاص او تاريخ الاشخاص هو التراجم ويرى ليفى بروفنصال (فى كتابه مؤرخو الشرفاء) ان تكاثر كتب التراجم يرجع لاستفحال الطرقية فى القرن العاشر ولعل فى هذا الرأى جانبا من الحق الا ان تطور ادب التراجم فى الشرق ربما كان له أثره أيضا على أن كتب التراجم عرفت من قبل وعدم كثرتها راجع الى ضعف حركة التاليف بالمغرب قبل القرنين السابع والثامن

أما كتب الرحلات ففيها نوعان نوع يشمل رحلات ابن بطوطة وابن جبير وابن رشيد والتجيبى والعبدرى ومن اليهم لا يكاد يلم بالصوفيات الا عرضا وهنالك طائفة من الرحلات كرحلة اليوسى (المحاضرات) والعياشى والناصرى والقادرى والكوهن يعثر الباحث فى ثناياها على مستندات هامة فى تاريخ الفكرة الصوفية والحركة

الـــروحـــيـــة .

ولنضرب أمثله موجبة ليتبين مدى اسهام كل صنف من هذه المصادر فى حفظ التراث الصوفى المغربى .

فنوع المعلومات الصوفية التى نجدها فى كتب التاريخ تتصل اما بأشخاص يعدون من الصوفية كانت لهم صلات ودية او احتكاكات بملوك او معلومات تتعلق بالملوك والقادة السياسيين الذين كانوا يظهرون احيانا بمظهر التبتل والتقشف والزهد بحيث يجر الحديث عنهم الى الحديث عن متصوفة العصر وهنالك ضرب ثالث من المعلومات يتصل ببناء الاضرحة والزوايا والرباطات ومساهمة الملوك فى ذلك .

فكتاب « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » مثلا قد تعرض لاحمد بن قسى المتصوف الذى سيق الى عبد المومن وعفا عنه ولكن قتله بعد ذلك أصحابه الذين جاءوا معه من الاندلس (ص 126) وتحدث عن يعقوب المنصور فذكر أنه « أظهر بعد ذلك (اى عام 583) زهدا وتقشفا وخشونة ملبس ومأكل وانتشر فى ايامه للصالحين والمتبتلين واهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ويكتب يسأل المدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة (ص170) وذكر أيضا أن أبا يوسف كتب قبل خروجه (أى الى الغزوة الثانية بالاندلس عام 592) الى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين الى الخير وحملهم اليه قال فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه » (ص 175) .

ونرى صاحب « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » يتحدث عن عبد الحق المرينى فيصفه بأنه كانت له بركة معروفة ودعاء مستجاب وأنه كان يسرد الصوم وكان كثير الاوراد والاذكار (ص 29) واذا سمع بصالح او عالم قصده لزيارته (ص30) وكان ابو سعيد معظما للعلماء موقرا للصالحين يتواضع بين ايديهم (ص 37) .

واعطتنا الذخيرة ايضا صورة لهذه الحركة المهدوية التى لها كبير اتصال بالفكرة الصوفية والتى اتسمت فى المغرب بخطورة لم تعرفها فى الشرق فاشار مثلا (ص 38) الى قيام العبيدى بجبل ورغة من احواز فاس وادعائه انه الفاطمى المهدى واتباع كثير من قبائل المغرب له وذلك اول عام 600 حتى قبض عليه واحرق فى باب المحروق بفاس وكان العبيدى هذا « رجلا صالحا متخشعا كثير الورع والعبادة » وتهتم الذخيرة بلون آخر من التراث الصوفى هو الشعر فنراها تنقل مثلا (ص 47) قول مصعب الخشنى :

فلندع ذكر زينب وسعاد ان ذكر الاله أقرب رحما

وقول السجلماسى (ص 55) :

طيب بذكر الله فاك فانه لاجل ما فاهت به الافواه

الى ان قال :

ما للفتى لا يرعوى وصباحه ومساؤه يعظانه بسواه
تلقاه تياها على من دونه ولسوف يعطشه الذى ارواه

معظم الطرق الصوفية في العالم الاسلامي وقد لا حظ ابن عسكر ما اكدناه اول البحث من ان « الجبل » اكثر خصبا وانجابا للصوفية من غيره ويكفى أنه انجب الشاذلى وشيخه ابن مشيش !

وفى القرن العاشر أيضا الف ابن القاضي (المولود عام 960) كتاب «درة الحجال فى غرة أسماء الرجال » وجذوة الاقتباس وتحوى كل من الجذوة والدرة معلومات شتى عن صوفية المغرب وأحوالهم ومصنفاتهم وأسانيدهم فقد حدثنا عن أحمد المليانى الذى تزعم الانتساب اليه « الطائفة اليوسفية الملعونة (الدرة ج 1 ص 87) وتحدث عن رضوان الجنوى (ص 147) فوصفه بأنه آخر المحدثين الصالحين وقد ولد رضوان هذا من أب مسيحى ومن يهودية أسلما فكان يقول « خرجت من بين فرث ودم » ومع ذلك طبعت فاس الوادعة روحه الطاهرة بنزعة صوفية جعلته فى صف كبار العلماء الروحيين وقد افرده احمد المرابى بكتاب سماه « تحفة الاخوان ومواهب الامتنان فى مناقب سيدى رضوان » وهذا دليل على مدى تاثير البيئة الصوفية الفاضلة فى تكييف النفوس ! وحدثنا ابن القاضى ايضا عن الطائفة الاندلسية التى قتل مؤسسها المبتدع على يد السلطان سيدى محمد بن عبد الله المخلوع عام 985 وعن طائفة العكاكزة الذين يجب ان « يحذرهم المسلم ولا يغتر بخز عبلاتهم » (ص 167) ! ولعل أهم ما تفيدنا به الدرة والجذوة فى هذا الباب هو قيمة بعض الصوفية الذين كانت لهم قدم راسخة فى العلوم ومن بين هؤلاء محمد بن على الجزولى الذى تولى القضاء والخطابة بحضرة ابى سعيد المرينى وكان له التقدم فى اصول الفقه ومع ذلك لبس خرقة الصوفة (ص 267) .

وهنالك مصنف يضاهى الدرة فى نسق العنوان وهو « درر الحجال فى مناقب سبعة رجال » وقد طالعت نسخة منه بخط المؤلف الصغير الافرانى صاحب « صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادى عشر» الذى يعد كذلك مصدرا هاما فى الموضوع وذلك فى خزانة فضيلة قاضى مراكش العلامة السيد عباس بن ابراهيم وعلى ما فى هذه النسخة من بتر فانها تعطينا صورة عن المشاكل والاحتكاكات التى كان يثيرها فى المغرب وجود الطرقية واستفحالها ومعارضة الفقهاء لها وقد تحدث عن مشروعية ما يقرب للأضرحة من ذبائح والتبرك باتربتها وبناء المساجد على قبور الصالحين وهل يخرج من المزارات اللاجئون اليها من المجرمين وما الى ذلك مما كان يشغل الفكر العام اذ ذاك (اى فى القرن الثانى عشر) ! وقضية الطرقية والمشائخ والزوايا قد شغلت الرأى العام منذ القرن الثامن بصورة خاصة كما نبه على ذلك زروق فى قواعده وقد بلغت القضية مبلغا ادى بابن خلدون نفسه الى تصنيف كتاب فى التصوف سماه « شفاء

السائل لجملة مسائل » (وقد سبق لنا ان حللنا هذا الكتاب واثبتنا نسبته لابـن خلدون فى سلسلة أبحاث نشرتها « رسالة المغرب » منذ سنوات) .

وتوجد مجموعة من كتب التراجم والمناقب صنفها افراد العائلة الفاسية التى قامت بدور هام فى توجيه الفكرة الصوفية الجزولية ومن هذه الكتب « مرآة المحاسـن » لمحمد العربى الفاسى « والمنح الصافية فى الاسانيد اليوسفية » لاخيه احمد بن ابـى المحاسن اورد فيها لائحة شيوخ الصوفية الذين أخذ عنهم والده سيدى يوسف الفاسى ومنها المنح البادية لمحمد الصغير ابن عبد الرحمن الفاسى المتوفى عام1134ذكرفى قسمه الثالث الطرق المذكورة فى رسالة العجيمى وزاد عليه بعض الطرق المغربية والاندلسية والكتاب موجودفى نحو10كراسات من حجممتوسط وقدصنفابوزيد الفاسى كتباشتى فى التصوفمنها«ابتهاج القلوب باخبارالشيخابى المحاسن وشيخهالمجذوب» (والمجذوب هذا هو سيدى عبد الرحمن صاحبالملحون الذىجمعه دو كاستر عام1896فى كتابسماه Gromes de Sidi Abderrahmane El-Majdoub-Parisوبستان الازاهر وتاليف فى مناقب محمد بن عبد الله معن الأندلسى ووالد أبى زيد هذا هو عبد القادر بـن على الفاسى الذى كان رئيس الزاويـة الجزوليـة وشيـخ الطريقـة الشاذليـة فـى الشمال وكان يعقد دروسا فى التصوف ولمحمد المهدى الفاسى ايضا كتب شتى فى التصوف منها « ممتع الاسماع فى أخبار الجزولى والتباع وما لهما من الاتبـاع » « والالمـاع » « وتحفة أهل الصديقية » الخ .

وقامت العائلة القادرية كذلك بدور مهم فى تاريخ الحركة الصوفية فمن افرادها محمد العربى بن الطيب القادرى الذى ذيل تحفة اهل الصديقية واخوه عبد السـلام صاحب اغاثة اللهفان باسانيد اولى العرفأن « والمقصد الاحمد » فى التعريف بأحمـد بن عبد الله معن الاندلسى و « معتمد الراوى » فى مناقب سيدى احمد الشاوى ونزهة الفكر فى مناقب الشخصين سيدى محمد ووالده سيدى ابى بكر الدلائى ومنهم احمد القادرى صاحب نسمات الآس فى حجة سيدنا ابى العباس تزهد منذ صباه ورحـل الى مصر حيث أخذ أصول الطريقة القادرية على علمـاء الكنـانة ومحمد ابـن الطيب القادرى هو صاحب « الزهر الباسم » فى مناقب الخصاصى « ونشر المثانى فى أهـل القرن الحادى عشر والثانى » .

ومن العائلات التى كان لها تاثير عميق فى وجهة التصوف المغربـى العائـلات الدلائيه والناصرية والشرقاوية والوزانية سنتحدث عنها عند تطور الطرقيـة وموقـف ملوكنا منها ويكفى ان نشير الى مصادر مهمة تتصل بهـذه العائـلات (كالـروض اليانع الفائح) فى مناقب سيدى محمد الصالح للحسن بن رحال والمرقى لعبد الخالق العروسى ويتيمة العقود للعيدونى وبغية الرائى فى التعريف بالشيخ أبى عبد اللـه محمد المكى الدلائى لولده محمد والبدور الضاوية لسليمان الحوات والدرر المرصعة بأخبار اعيان درعة لمحمد المكى الدرعى الناصرى وهو كما يقول ليفى بـرو فنصـال

اقدم تاريخ للحركة الناصرية فى الجنوب وتحفة الاخوان فى مناقب شرفاء وزان لحمدون الطاهرى .

وتوجد علاوة على ما ذكرنا كتب تراجم شتى يضيق نطاق البحث عن ايراد جميعها ساق الكتانى معظمها فى آخر السلوة منها « الدر النفيس » فى مناقب الامام ادريس بن ادريس لاحمد الحلبى الذى استوطن فاسا وعاش بها وترجمة ابن مشيش لمحمد بن زاكور ومباحث الانوار فى اخبار الاخبار لاحمد الولالى ذكر فيه من لقيه من الصلحاء و « الانوار فى ذكر طريقة السادة الصوفية الاخيار » لاحمد بن عطية السلاوى والمقباس فى محاسن سيدنا ابى العباس للوزير الغسانى وسلوة المحبين لعبد الله بن يخلف وتحفة الزائر لابن عاشر الحافى وافادة المرتاد فى التعريف بابن عباد لابن السراج وطبقات الحضيكى (التى تختص بصوفية سوس) والارتجال فى مناقب مشاهير سبعة رجال ومناقب المختار الكنتى كلاهما لمحمد الامين الصحراوى وترجمة الدباغ والدرقاوى لابن القاضى الخ .

تلك فذلكة عن كتب التراجم والمناقب وهذه الكتب لا تحوى فى الغالب الا تراجم امتاز اصحابها بالطابع الصوفى بكل ما فى الكلمة من معنى . بحيث يسوغ لنا ان نستند اليها بكل اطمئنان لاستخلاص صورة عن التصوف المغربى من خلال رجاله وقد اعترف ليفى بروفنصال بان كتب التراجم المغربية لا تشتمل من ناحية عامة الا على تراجم صوفية كان اصحابها من علماء الاسلام (مؤرخو الشرفاء ص 49) ولاحظ هنرى باسى فى كتابه أدب البرابرة Essai sur la littèrature des Berberes Alger 1920 P 27 ان مصنفات التراجم قد أغفلت الاساطيل الشعبية المنسوبة للصوفية والاولياء ولكن هذه الترهات المدسوسة على الصوفية يحتفل بها أقوام يحرصون على جمعها من أفواه العامة كما فعل بعضهم بترجمة العالم الزاهد الشيخ زروق الذى قام بنقد وتمحيص الفكرة الصوفية على نسق شرعى (راجع legende populaire de Zarrouk Archives Berberes (Vol. L, Années 915 – 1916 p. 293

واذا كانت صورة هذه الشخصية المشهورة بآرائها الناصعة المبثوثة فى «القواعد» و « عدة المريد » قد احتفت بها هالة من الاساطير الشعبية فما بالك بغيرها ممن لهم تراجم غامضة فيجب ان لا نتقبل الا بكامل الاحتراس ماينسب لشخصيات صوفية من اقاويل تشذ عن الشرع .

تلك جملة كتب التراجم والمناقب التى يمكن ان نعتبرها مصدرا لتاريخ التصوف المغربى وهى كتب مغربية صوفية والا فهنالك كتب أخرى من هذا الطراز لمؤلفين مشارقة تحتوى على مستندات هامة فى الموضوع لان المغرب جزء من بلاد الشرق الاسلامى قد حظى رجاله باعتناء المؤرخين المشارقة وهنالك من الاندلسيين أيضا من زار المغرب بل عاش فيه وترجم لصوفيته كابن عربى الحاتمى وابى البركات البلفيقى وابن الخطيب .

ومنها كتب لادباء تلمسانيين كبستان ابن مريم والنجم الثاقب لمحمد ابن ابى الفضل صعد الانصارى الذى ترجم لابن عاشر والسبتى وغيرهما .

والنوع الثالث من المصادروهوالرحلات المغربية فهى تنقسم فى نظرنا الى قسمين: رحلات يهتم اصحابها اما بمظاهر العمران فى الامصار التى زاروها كرحلة ابن بطوطة وابن جبير والزيانى واما بالمظاهر الثقافية كرحلات ابن رشد والتجيبى والعبدرى ورحلات اهتم اصحابها كثيرا بالحركات الصوفية فى الاقطار التى زاروها وغالب هذا الطراز اما رحلات الى الحج كرحلتى العياشى والناصرى أو داخل المغرب كمحاضرات اليوسى وروضة الانفاس فيمن لقيته بالحضرتين مراكش وفاس للمقرى ولعل هنالك نوعا ثالثا من الرحلات التى تعد مصدرا للتصوف ولكنها اشبه بكتب مناقب كنسمة الآس فى حجة سيدنا أبى العباس (وهى رحلة سيدى احمد القادرى مع شيخه سيدى احمد بن عبد الله معن) وعدم اعتبارنا النوع الاول من الرحلات مصدرا لتاريخ التصوف المغربى انما هو على جهة العموم والا فاننا نجد معلومات تتصل بالتصوف والصوفية فى رحلة ابن بطوطة مثلا الذى ذكر أنه لازم الشيخ كمال الدين القارى خمسة اشهر ووهب ما عنده للقراء ثم انتقل الى الحجاز ونزل بزاوية تنسب الى الملك بشير ونرى ابن بطوطة يحدثنا فى رحلته ايضا عن نوع جديد من الطرقية اشبه باندية الفروسية والرياضة وهى جماعة الاخوان أو الفتيان الغرباء الذين وجدهم فى الاناضول «يتعاونون على البر واكرام الضيف والاشتراك فى الطعام والغناء والرقص واللهو البرىء ويتصل نظامهم بنظام الفتوه فى الاسلام غير أنك قلما تجد معلومات لها صلة مباشرة بالتصوف المغربى وكذلك رحلة الزيانى التى أكد لنا فيها ان « أحسن ما فى مغربنا من الزوايا الناصرية الموسومة بزاوية البركة وطائفتهم احسن الطوائف » ومن اغرب ما ذكره ابن بطوطة وذكره من المؤرخين المشارقة ابن خلكان ان يعقوب المنصور ترهبن وانخلع من الملك ولبس المرقعة وقصد بلاد المشرق زاهدا متبتلا وانه توفى هناك وقد فند صعد الانصارى هذه المقالة فى النجم الثاقب (مخطوط) وهذا الاغراق فى الخيال قد نتج على ما يظهر عما تحلى به يعقوب المنصور حقيقة من زهد حتى قيل أنه تنازل عن الملك لولده

وتوجد رحلات لمؤلفين زاروا المغرب او عاشوا فيه كابن الخطيب الذى تطفح رحلته « نفاضة الجراب » باخبار الادباء والصلحاء المغاربة وكأنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ المعروف بابن الخطيب القسمطينى الذى افاض فى وصف الجو الروحى الذى خلقه فى المغرب الصوفى الكبير سيدى احمد بن عاشر دفين سلا .

اما محاضرات اليوسى فهى وصف شائق للحياة الادبية والصوفية بالمغرب فى القرن الحادى عشر الفها خلال رحلته الى الجنوب عام 1095 (ص 37) ويرسم لنا هذا الكتاب الوانا شتى عن التصوف المغربى يعطينا مجموعها صورة لا باس بها عما بلغته الحركة الطرقية بالمغرب بعد القرن العاشر وسننقل للقارىء نماذج من هذه المعلومات القيمة عند ما نتحدث عن ادعياء التصوف ابان الانحلال وقد اشار لرحلة أبى عبد الله ابن ناصر الى الشرق وتلقينه الطريقة الشاذلية للمصريين (ص 59) وتحدث عن

الزاوية الدلائية وانهيار سلطانها السياسى عام 1079 وعرج على عادة الاطعام فى الزوايا فذكر انه شاع اطعام الطعام ولا سيما فى بلادنا المغربية وخصوصا فى البوادى (ص117)

والرحلة العياشية الموسومة بماء الموائد مشحونة كذلك بالمعلومات الطريفة عن التصوف الشرقى والغربى الا ان رحلة سيدى أحمد الناصرى اقصر منها نفسا فى الموضوع رغم تمحض شخصية الناصرى للجانب الصوفى وقد اغتنم الناصرى وجوده بافريقية والجزائر وطرابلس ومصر فاسس فروعا للطريقة الناصرية وقد قام الاستاذ بربروجير A. Berbrugger بترجمة فرنسيةمختصرة للرحلتين فى كتاب واحد سماه: Voyage dans le sud de l'Algérie et des Etats barbaresques de l'Ouest et de l'Est par El-Aïachi et Moulay Ahmed على ان العياشى ناصرى الطريقة ايضا اخذ أصولها عن الشيخ سيدى محمد ابن ناصر وقد افادنا بمعلومات طريفة عن شيوخ الطريقة الزروقية الفاسية فى طرابلس وبرقة حيث مدفن الشيخ زروق (ج اص96) وكذلك فى باقى اقطار المشرق كما أشار الى بعض خصائص الطرقية فى مصر لا سيما الجامية والنقشبندية «التى قلما توجد فى ارض المغرب بل لا يعرفها اهله حتى بالاسم لبعد بلاد مشايخها» (ص 213) ثم وازن بينهما وبين الشاذلية المغربية فلم يجد فرقا الافى الاصطلاح الراجع الى الاعمال الظاهرة ولعل هذا من أبرز الفروق بين الطرقيه الشرقية والطرقية المغربية اذ بينما نرى الاولى مطبوعة بشكليات صارمة وتراتيب ومستويات «برتكولية» مما سنرى بعد اذا بالثانية موسومة بطابع الفطرة ومن جملة المظاهر الشكلية لبس الخرقة الذى هو عنوان الاندراج فى الطريقة فى الشرق هذا بينما الطرقية المغربية تكتفى بتشابك الاصابع كناية عن التعاهد بالتزام الشروط (غير ان قاسم الحلفاوى ذكر فى مناقب عبد الكريم الفلاح (مخطوط) ان لابى الحسن الشاذلى طريقتين طريقة مشيشية فيها صحبة واقتداء من غير خرقة واخرى فيها لبس الخرقة وتلقين الذكر ومهما يكن فان الخرقة اندرست فى القرون الاخيرة) ومن الامور التى ابتليت بها الطرقية فى الاقطار الاسلامية ما اشار اليه العياشى من شيوع المنكرات فى المواسم (ج1ص256) وقد تحدث عن كتاب يعزى لابى حامد الغزالى وهو منهاج العابدين فنسبه (وقد سبقه الى ذلك الحاتمى) لصوفى مغربى سبتى هو على المسفر وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذى ينسب للغزالى ايضا ويسميه الناس المضنون به على غير اهله (ج ا ص 356) وتوجد غير هذا أشتات قيمة من المعلومات تلقى ضوءا على بعض الجوانب الغامضة فى التصوف المغربى او تؤكد لنا على الاقل ما ورد فى المصادر الاخيرة

اما الفهارس فقد كان من حقنا ان ندرجها فى قسم التراجم والمناقب لان الفهرسة عبارة عن سلسلة تراجم لشيوخ المؤلف تتخللها احيانا معلومات ثقافية او اجتماعية أو سياسية عن ذلك العصر .

ولعل اقدم فهرسة مغربية تتسم بطابع صوفى فهرسة القاضى عياض الا ان السمة العلمية غالبة عليها ومع ذلك فانها تعطينا صورة عن بعض من التقى المؤلف بهم من صوفية بفاس وسبتة وقد طالعتها فالفيتها لا تختلف فى وجهتها عن « المدارك» وأهم ما تفيدنا به هو أن معظم علماء ذلك العصر كان فيهم نزوع طبيعى نحو العبادة والتبتل وان الروح الصوفية كادت تكون غالبة على الجميع .

وقد فتر ما كنا نلحظه من تاليف الفهارس عند المغاربة وبالاخص السبتيين حتى استؤنفت فى القرن الثامن بفهرسة يحيى السراج واقرانه من كبار العلماء وامتد ذلك على وتيرة متوسطةالى ان جاءالقرن الحادى عشر فظهرتفيمابعده فهارس اشتملتعلى نتف مبعثرة من أخبار الصلحاء منها فهرسة سيدى عبد القادر الفاسى تحتوى على اسانيده الصوفية والمنح البادية لمحمد بن عبد الرحمن الفاسى الذى سبق الحديث عنها فى قسم التراجم ومرآة المحاسن نفسها تحتوى على فهرسة مؤلفها سيدى العربى الفاسى وبذل المناصحة فى فضل المصافحة لاحمد السوسى البوسعيدى .

وقبل ان نختم هذا البحث عن مصادر التصوف المغربى نأبى الا الاشارة الى مجموعة منوعة من المصنفات اهتمت بالموضوع منها المغربى ومنها الشرقى فمن ذلك طائفة من المصنفات فى نقد ادعياء التصوف منها « المزايا فيما احدث فى ام الزوايا » للمحدث بن عبد السلام الناصرى (حيث اشار الى ان الشيخ سيدى احمد الصقلى هو الذى ادخل الى المغرب الطريقة الخلوتية بعد رجوعه من مصر) « وكشف قناع الالتباس عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس » لمحمد بن احمد الصباغ « وعدة المريد الصادق » للشيخ زروق .(وسنحلل اهم فصول هذا الكتاب فى حديثنا عن الملبسين من المتصوفة).

وهنالك كتب أخرى تعتبر مصدرا هاما فى الموضوع منها رسائل ابن عباد والمباحث الاصلية لابن البنا التى شرحها ابن عجيبة والتى كان الشيخ التباع يربى بها اصحابه وهنالك خارج الدائرة المغربية كتب شتى ألفت فى الطريقة الشاذليه ككتب ابن عطاء الله واخرى بعدها ككتاب للسيوطى « فى تاييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية » وتحقيق الصفا فى الطريقة الشاذلية لحمد بن عبد العزيز بن فهد المكى .

وتتوافر الى جانب ما ذكرناه فسيفساء من الرسائل والاجوبة والردود والحواشي والشروح مختلفة المنازع متباينة المشارب غير انها صورة حية للتيارات المتعاكسة التى كانت تهز الحركة الصوفية فهنالك تآليف فى العشق مثلا كابن الفقيرة الذى الف كتابا فى مناقب ابى عمرو القسطلى المراكشى (شمس القلوب) وهناك خطبة للسلطان ابى الربيع مولانا سليمان العلوى فى المواسم والطوائف وقد كان مولانا سليمان هذا صوفى الروح كما يتبين ذلك من اجازته التى تتصل بالجزولى على طريق التباع عن طريق الشيخ محمد الشرادى ومما يدلنا على مدى ما كان يتمتع بـه المغاربـة اذ ذاك من حرية القول نقد ابى محمد المكى بن مريدة المراكشى دفين فاس الخطبة السليمانية في كتابه « الكواكب السيارة » وقد الف الشيخ محمد الطيب بن كيران بامر من مولانا

سليمان ردا على رسالتين وهابيتين تنسبان لسعود بن عبد العزيز (طبع عام 1327 بهامش اظهار العقوق لمحمد بن مصطفى المشرفى الذى نقد فتوى الشيخ محمد عبده) كما نقدها مفتى فاس سيدى المهدى الوزانى فى كتاب سماه النصح الخالص الخ ويوقفنا هذا على مدى اسهام فقهاء المغرب وصوفيته فى النشاط الفكرى المتولد عن مساجلات انصار التصوف وخصومه (او على الاقل خصوم الملبسين من المتصوفة والا فان عبده كان صوفى النزعة وكذلك الافغانى كما سنرى) ومما صنف ايضا فى هذا الباب مقام التجلى والتخلى من صحبة الشيخ ابى محلى لاحمد التواتى .

أما الشروح التى يمكن المرجوع اليها لتوضيح الفكرة الصوفية حول الاخلاق والمثالية فهى شروح الحكم العطائية التى يوجد منها المشىء المكثير منها لابن عباد وزروق والقلصادى ولاحمد جسوس الفاسى وللحراق ولابن عجيبة التطوانى ومحمد بن عبدالسلام بنانى والشيخ الطيب بن كيران الخ . ومن المر سائل جواب الشيخ الغزوانى عن أسئلة الناصر اللقانى المصرى وهى نموذج للتاويلات الصوفية المغربية للقرآن اما القصائد فكثيرة منها ارجوزة حدائق الازهار فى الزاوية لليازغى والمقباس للوزير الغسانى وديوان الحراق الذى نحا فيه منحى ابن الفارض وابن عربى وعبد الغنى النابلسى فى وحدة الوجود والتلبس بما يسمونه الحقيقة المحمدية ويعلو نفس الحراق احيانا فيكاد يطاول سلفه ابن الفارض فى رقة الاسلوب وسمو المعنى ومما يتصل بالتصوف العام قصيدة لاحمدالشريشى السلوى الشاعر الطبيب وقد شرحها كل من احمد الصومعى واحمد ابن ابى المحاسن الفاسى وهنالك كتاب يمكن ان يعتبر خلاصة للادعية النبوية التى جرت على السنة الصوفية بعد القرن التاسع وهو دلائل الخيرات الذى شرحه افراد من العائلة الفاسية وقد انتشر فى العالم الاسلامى هو وذخيرة المحتاج للشيخ المعطى الشرقى وقد نحا المغاربة منحى الصوفية المشارقة فى مدح الاشياخ بقصائد لا تخلو من معلومات تفيد المؤرخ من ذلك دالية اليوسى فى مدح سيدى محمد بن ناصر الدرعى وهى « مشهورة بين اهل الادب » عارض بها دالية البوصيرى فى ابى الحسن الشاذلى وابى العباس المرسى وقصيدة البوصيرى هذه تدل على ما كان للصوفية المغاربة من مكانة فى نفوس صوفية الشرق (وقد مدح البوصيرى كذلك ابا محمد صالح) (1)

---

(1) كان قطب الدين القسطلانى بمدرسة الحديث بالقاهرة كثير الاعتناء باصحاب ابى صالح الوافدين على مصر .

الفصل السادس عشر :

الزوايا والرباطات

ان من ابرز ما امتاز به الشعب المغربي منذ اعرق العصور الى جانب روحه الاستقلالية قابليته الفطرية للتأثر بكل غريب وسرعة انفعاله وقد ينقلب بعد حين اذا لم يكن ذلك العمل الذى اثر فيه قوى المفعول فى نفسه لذلك راينا المغاربة يرتدون نحوا من اثنتى عشرة مرة — على ما ذكر ابن خلدون عندما كان ايمانهم بالاسلام وامثلية مبادئه لا يزال سطحيا وكانت ذكرياتهم الوثنية لا تزال مسيطرة على تفكيرهم القصير ولا شك ان للصيغة البدائية التى كان يتسم بها المغرب اذ ذاك آثارا فى هذه القابلية السهلة ! ثم تغلغلت الروح الاسلامية فى نفوس المغاربة وتجاذبتهم تيارات جديدة داخل الاطار الاسلامى لم يستطيعوا مغالبتها فانساق البعض مع هذا التيار والبعض الآخر مع ذلك ولكن المذبذبين انفعلوا للنحلة البرغواطية التى كانت صورة مشوهة للاسلام ممزوجة بالتقاليد المحلية — بدافع هذا الاستعداد الروحى المكامن — حتى استطاع مؤسسها صالح ابن طريف ان يقيم دولة فى تامسنا واطرافها استمر وجودها اجيالا وعانى من لأوائها كل من الادارسة والمرابطين وفى نفس الوقت كانت المذاهب المختلفة تنحدر الى المغرب من الشرق الاسلامى الذى كان يعج بالفرق الدينية ذات الاهداف السياسية فشاهدنا فكرة الخوارج تغزو المغرب وتنتشر فيه من اوائل المائة الثانية الى آخرها كما تسرب اليه مذهب الروافض وقد قامت فى الجنوب دولة « خارجية » على يد فرقة الصفرية المدرارية التى اسست مدينة سجلماسة عام 140 ﻫ وكان بعض هؤلاء اباضيين كمحمد بن ميمون واستمرت دولتهم الى عام 466 عند اول حجابة المنصور ابن ابى عامر وكان للاسلام السنى فى شخص المولى ادريس مصادمات عنيفة مع هذه الافكار المتطرفة التى كانت تستغل هذه الفطرة الفتية والقلوب المتفتحة وكانت الحركة الصوفية قد بدأت منذ ذلك بافريقيا الشمالية فى شكل مزارات مقدسة لاجداث الصحابة والتابعين الذين رافقوا عقبة بن نافع فى فتوحاته وهم زهاء ثلاثمائة والذين استشهدوا فى الحرب ضد كسيلة واول مزارة من هذا النوع فى الشمال الافريقى قبور هؤلاء الشهداء التى جصصت واتخذ عليها مسجد عرف باسم عقبة اما فى المغرب فلعل اول رباط من هذا النوع وقع تاسيسه هو رباط شاكر الذى وصفه ابن الزيات فى التشوف بأنه « كان مجمعا للصالحين من قديم ولا سيما فى رمضان يفدون من كل أوب» وشاكر هذا من أصحاب عقبة بن نافع على ما ذكره ابن الزيات والذى بنى هذا الرباط هو يعلى بن

مصلين الرجراجي وكان يقاتل كفار برغواطة ! وهذا يدلنا على أن هذا الرباط كان ماوى للمجاهدين بقدر ما كان موئلا للزهاد . ولعل الفكرة الصوفية انبثقت لاول مرة فى بلاد رجراجة حيث ورد سبعة من الصحابة حسب ما يقول كثير من المؤرخين ويظهر ان ناحية الشمال كانت لا تزال فيها فى المائة الثانية بقايا رهبنة مسيحية اذا صدقنا ماحكاه صاحب القرطاس (ج ا ص 49) عن ذلك الراهب الذى وجده المولى ادريس فى صومعة قريبة من المكان الذى اسس فيه مدينة فاس وقد حكى له الراهب عن راهب كان قبلهفى تلك الجهة قبل مائة عام مما يدل - ان صح - على ان حلقات الرهبنة كانت موصولة .

ولكن بعد ما وصل الى المغرب صدى نكبة الاشراف العلويين فى الشرق اثر قيام الدولة العباسية عقب مذبحة الفخ اشتد عطف المغاربة على سلالة مؤسس هذا الدين الاسلامى الذى يدينون به وقد تجلى هذا العطف فى الاستقبال الحماسى الذى حظى به المولى ادريس فى شمال المغرب وسليمان بن عبد الله الكامل فى تلمسان وقد دخل أكثر ولد هذا الاخير الى بلاد لمطة والسوس الاقصى (الممتع ص 3) ولا يمكن ان نعلل تلك السرعة الخارقة التى قامت بها دولة الادارسة فى بلاد كانت تستعصى حتى على زعمائها المحليين الا بذلك النفوذ الروحى الذى يحظى به الاشراف والذى سيلعب دورا مهما فى تمهيد السبيل لكثير من الشيوخ الذين سيتزعمون الطرقية فى العصور التالية .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط واجاج بن زلو اللمطى السوسى الذى كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلبة العلم وقراء القرآن حسبما ورد فى التشوف (ص 36) الذى نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « المعلمين » المنقطعين لتعليم كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى التعبد بالقرآن تعبدات بالأدعية والاذكار .

وكان هنالك نوعان من الرباطات : رباط من الطراز الذى اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بكاملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يرابط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب أبى رقراق كان يرابط فيها نحو من مائة الف من الغزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة النحلة البرغواطية.

وبين هذه وتلك الرابطة التى ابتناها عبد الله ابن ياسين فى جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة فى مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم أمير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفا من أشرف صنهاجة كانوا النواة التى قامت بتاسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هى الدولة الثالثة التى قامت فى المغرب على أساس فكرة مذهبية بعد الدولة المدرارية فى سجلماسة والدولة الادريسية فى الشمال وقد فسح استعداد المغاربة الروحى المجال لدعاة المهدوية مثل محمد ابن تومرت الذى اسس دولة الموحدين والعبيدى الذى قام بعده فى جبل ورغة من احواز

فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 ه حتى قبض عليه واحرق في باب محروق بفاس (الذخيرة السنية ص 38) وكان العبيدى هذا « رجلا صالحا متخشعا كثير الورع والعبادة ثم ادعى المهدوية بعد ذلك اقوام منهم ابن ابى محلى الذى توجه الى بلاد القبلة بعد ما كان صديقا لمحمد بن ابى بكر الدلائى ودعا لنفسه زاعما أنه المهدى المنتظر فاستخف قلوب العوام - كما يقول اليوسى في المحاضرات (ص 91) وتبعوه فدخل بلد سجلماسة وهزم والى الملوك السعدية واستولى عليهم ثم اخرجهم من درعة وتبعهم الى حضرة مراكش وفيها زيدان ابن أحمد المنصور فهزمه وأخرجه منها وذهب فاستغاث بأهل السوس الاقصى فخرجوا الى ابن محلى فقتلوه وهزموا عسكره شذر مذر » (ص 91)

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك فى الاندلس أيام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان أحمد بن قسى ابتنى مسجدا فى بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالاباطيل وتبعه كثير من الاعيان وكاتب أهل المرية يدعوهم الى خلع الملثمين وقد تمكن منه عبد المومن فعفا عنه بعد ما سجنه وقد ادعى النبوة كذلك فى الاندلس كما ورد فى الاحاطة والدرر الكامنة ابراهيم الفزارى الساحر فقام بالرد عليه ابو جعفر أحمد بن الزبير صاحب صلة الصلة حتى قتل على يديه فى غرناطة.

وقد قاوم المرابطون هذه الانتحالات الا ان مقاومتهم كانت احيانا تشمل حتى العناصر الطيبة فقد ذكر ابن بشكوال فى تاريخه ان ابا العباس بن العريف بعد صيته فى العبادة والزهادة وكثر اتباعه على الطريقة الصوفية حتى بلغ ذلك الى امير الملثمين على بن يوسف ابن تاشفين ويقال ان فقهاء بلده اتفقوا على انكار مذاهبه فسعوا به الى السلطان فامر باشخاصه من غرناطة كما استقدم أبا الحكم بن برجان من اشبيلية وكانا نمطا واحدا فى الانتحال والصلاح حتى كان ابو الحكم يلقب بغزالى المغرب ! .
ولكن الملوك المرابطين كانوا معذورين فى هذه الحملة ذلك أن الرتق بدا يتسع نظرا لكون المقالات الصوفية كانت معقدة مستعصية على العقول التى تفهمها على غير وجهها ولان أدعياء التصوف أصبحوا كذلك يبثون دعاويهم المسمومة فى الناس والمرابطون وان كانو مشبعين بروح صوفية - لا سيما ابن تاشفين الذى كان متورعا متقشفا (القرطاس ج 2 ص 36) الا انها كانت سنية سلفية عليها مسحة من طابع صدر الاسلام وقد ادى الحال بعلى ابن يوسف كما سنرى الى احراق كتب الغزالى التى كان بعضهم يسيىء فهمها ومع ذلك فقد بدأت حركة الرباطات والزوايا تنتشر فى طول المغرب وعرضه واصبح الناس يتكتلون بصورة غريبة حول دعاة المشيخة وقد ادرج صاحب التشوف في ثنايا كتابه جملة من اسماء الرباطات التى كانت بالمغرب قبل القرن

السادس الهجرى ومعظمها بربرية الاسماء مما يزيدنا يقينا ان هذه الحركـة الطرقيـة انبثقت لاول مرة من الجنوب فمنها ربـاط تامسطت مـن اعمال مـراكش (التشوف مخطوط رباطى ص 75) وذكر فيه أيضا باسم [illegible] وتاسمـاط ص 112 ولعل هذا الاخير ارجح) ورباط تانوما طهير (كذا) من دكالة (ص 107) واوجدام من ركونة (ص 108) ورابطة الغار خارج باب اغمات (ص 154 و 171) يميسين بأزمور (ص 216) ورباط عين الفطر بساحل أزمور ويقال له رباط تيط (الممتع ص113) وهو رباط اولاد امغار الصنهاجيين ورباط تنمل دار الموحدين ورباط ماسة من قبائل المصامدة (الممتع ص 30) ولم تتخلف عن هذه الاسماء البربرية الا رابطة زرهون التى اقيمت حول الضريح الادريسى ثم تتابع بناء الزوايا والرباطات فأسس ربـاط حـول ضريح ابى محمد صالح وازدهرت حول هذا الضريـح مدينـة آسفـى وهـذا هوما وقع قبل ذلك لزاوية ابى النور المشترائى وتلميذه أبى شعيب ايوب ابن سعيد بازمور ولعل من اول زوايا المدن زاوية صالح ابن حرزهم بفاس وهو تلميذ الغزالى .

وما دمنـا نتحـدث عن مخاريق ادعياء التصوف الذين زيفوا الفكرة الصوفية منذ العصور الاولى فلا باس ان نتعرض لترهاتهم حتى نكون على بينة من أمرهم وحتى لا نخلط بينهم وبين الصوفية الحقيقيين

فقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التى كانت تعصف اذ ذاك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشى الذى صنف كتابا فى البدع والمحادثات فى رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بأن اهل المغرب هم المشار اليهم فى الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق» « لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث فى الدين» !

ونحن لا نكاد نجد أثارة بدعة جافية فى ربوع المغرب قبـل القـرن السادس ولا يمكن ان نعثر فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوى نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذاك مطبوعا بالبساطة ولم يكن الصوفية يختلفون عن بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثـور من الادعية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة من القرآن من ذلك بعض الاحزاب لا سيما احزاب الشاذلى التى تتالف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقة والمرقعة صفة لا زمة للصوفى المغربى الا اذا جاء ذلك عفوا عن طريق الزهادة فى متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرآن والجهاد فاذا طالعت تشوف ابن الزيات وجدت أن كثيرا من رجـاله كـانوا « معلمين » أو مدررين يعلمون القرآن للصبيان ! .

وكان الامر على خلاف ذلك فى الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والايغال فى لبس المرقعات واندساس الادعياءفى صفوف النزهـاء حتـى كـان القشيـرى ينشـد اذا جلس اليه الصوفية وعليهم الهيآت والمرقعات ابياتا منها :

امـا الخيام فـانهـا كخيامهـم وأرى نسـاء الحى غير نسائهـا

ثم يقول أما الهيئات والمرقعات فمعروفة وأمـا القلـوب فمنكرة

وكـان الجنيد ينشـد :

اهـل التصـوف قـد مضـوا صـار التصـوف مـخرقـة
صـار التصـوف ركـوة وسـجـادة ومـذلقـة

ووصف ابن سليمان الدارانى الصوفية بانهم موشحون باعراض الدنيا يحافظون على السبحات المزينة والسجادات والمرقعات بينما هم موغلون فى الشبهات والمحرمات متخذون ظاهر الدين شركا للحطام وقد سئل مالك عن جماعة يأكلون كثيرا ويرقصون كثيرا وذكرت له احوالهم فضحك ثم قال : امجانين هم ؟ ! .

والواقع ان ملوك المغرب فى تلك العصور كانوا مشبعين بالـروح الصوفيـة الناصعة يترصدون ـ معززين من طرف رجال الدين – لكل من تحدثه نفسه بالابتداع والظهور بالمخاريق والشطحـات على ان اكثر الذيـن ناهضهـم ملـوك بنـي تاشفيـن

او الموحدين هم من الاندلس واشدهم غواية ابن قسى صاحب خلـع النعليـن وبعض المتمهـديـن .

غير ان الفكرة الصوفية ما لبثت ان تشعبت فتسرب اليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن الهجرى على اثر انتشار الطرقية واندساس الادعياء فى الزوايا والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصوفى لاعراض لاتمت الى الروح بصلة واصبح المتصـوف عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل الى أعراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام والدهماء فتجردت الطرقية مـن شتى مظاهر المـرواء والسمـو والجاذبية والجمـال .

وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ القرن الثامن محاطـة بهالـة مـن الشكليات المستحدثة وما زال التراث الصوفى يتضخم ويتسع الى اواخر القرن الثانى عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت الرسوم والحدود بفضل ذلك النبـع الفياض من التآليف التى ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم .

والحقيقة ان التصوف بدأ يتدهور منذ اصبح فى متناول العوام تلوكه السنتهم فى غير هدى ولا اتزان ولن اصرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة ابى محمد صالح دفين اسفى وتلميذ ابى مدين الغوث فقد كان اماما ذائع الصيت يرد عليه الصوفية حتى من مصر للاخذ عنه وانتشرت طريقته خلال القرن السابع فكثر تلاميذه فى الشام وبلاد الكنانة حتى مدحه البوصيرى بقصيدة طويلة مطلعها :

قفابى على الجرعاء من جانـب الغـرب ففيها حبيب لى يهيم بـه قلبـى .

غير ان طريقته هذه التى كانت سنية المعالم ما لبثت ان انحرفت بمادسه فيها الدخلاء والادعياء واصحاب الاغراض من الدجاجلة والملبسين وقد صنف احمد الماجرى « المنهاج الواضح » لا لشىء سوى صون طريقة جده ابى محمد صالح عـن « تاويـل الجهلة من متعسفى العصر » وقد اكد فى هذا الكتاب ان طريق التصوف افلت فـى معظم بـلاد المغرب (ص 14) وان سوقها بار وانصاره قد ولت الادبار فظهر من الفتن التى ابدعت فى مواسم الخير ومواضع العبادة والبدع التى أحدثـت بالجهـل مـن أهل الشر ومدعى الارادة كلهم توسموا بزى الفقر ولكنهم حجبوا عنـه فـى الحقيقـة بالغشاوة والوقر » (ص 18 – 19) وقد انطوى بين الناس بساط الورع .. فالتبس الطريق على سالكيه (ص 389) وثارت ثائرة طلبة العصر وفقهاء المصر على المتصوفـة الذين يلبسون المرقعات ويتطوقون السبحات (ص 159) .

وفى القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه « شفاء السائل » فرد الطرقيـة الى اصولها وحلل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الادعياء

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية الامام النقاد الشيخ زروق بكتابه «عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت» وقد علل انتشار المبتدعة والادعياء بانتقاص الايمان والجهل بأصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادىء الزندقة) وحب الرياسة مع الضعف عن اسبابها ثم اكد ان الصوفية الحقيقيين انفسهم عرضة للخطأ وان مقالاتهم يجب ان تعرض على الكتاب والسنة وان الفقه والاصول شرطان في المتصوف فلا تصوف الا بفقه.
ثم تعرض الى قوم أخذوا بكلام أمثال ابن سبعين وابن الفارض والحاتمي مع عدم تحققهم به وقوم خاضوا في امر ليسوا منه على حقيقة بل فهموا كلام الايمة فادعوه حالا لانفسهم . . وقوم فرحوا بما عندهم من الظاهر وجمدوا عليه او شطحوا بما فهموا من علم الباطن ودعوا اليه وهنالك طائفة تعلقت بالاحوال تدعي أنها ترى رجال الغيب كالخضر وتخبر في ذلك بامور اما كذبا صراحا واما تلبس عليها الامر بخيال شيطاني وطائفة ادعت الغناء والتصرف بغير اختيار فتبسطت في المحرمات وطائفة ظهرت بالجذب وقوم غلب عليهم الكسل فعدلوا الى رخص المذهب من السماع والاجتماع وايثار التزيي بالمرقعات المزينة والمسبحات المزخرفة والسجادات المزوقة والعكاكيز الملففة وقوم آثروا المصالح العامة وتتبعوا الفضائل فجنحوا لاطعام الطعام وقوم اضطرهم البحث عن الكنوز والكيمياء واسرار الحروف الى تضييع الواجبات ففتحوا باب المحنة على انفسهم وعلى المسلمين بالخروج على الامراء وقوم تجردوا للعبادة فوقعوا في مهاوي البدع من طريق التشديد ومتابعة الهوى بترك السماح والسهولة وأعظمهم طائفة ادعت المشيخة والتربية وان ما هي عليه هو الموصل للحق وربما اسندوه لبعض أهل الصدق وأخذوه بالعموم بينما كان يعمل هو به في الخصوص .

ثم اكد الشيخ زروق قائلا : «ولقد تتبعت الطرق الموجودة بايدي الناس في هذه الازمنة فلم اجد لاهلها فتحا ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز بالاختصاص ..» وهنا تعرض الى الاسس العملية التي بنى عليها الطرقيون مددعم فذكر (1) انهم قرروا مخالفة النفس بكل وجه وغلطوا في هذا الاطلاق لان المقصود موافقة الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد بقول عمر بن عبد العزيز «اذا وافق الحق الهوى فذلك المشهد بالمزبد» .
2) انهم تجردوا عن المعتادات بدلا من الانس بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية وادخلوا على انفسهم المشاق والاجر على الاتباع لاعلى قدر المشقة وقد تعرض الشيخ زروق في «عدة المريد» الى الفتنة التي وقعت في الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ حتى تضارب الناس بالنعال وكتبوا الى البلدان الاسلامية يستفتون فكان من جملة الاجوبة «جواب لبعض قضاة مصر» ولعل الشيخ زروق انما يعني ابن خلدون الذي تولى القضاء في القاهرة حيث صنف — على مارجحناه في بحث سبق ان نشرته رسالة المغرب على حدة — كتابه «شفاء السائل في جملة مسائل» الذي تعرض له زروق في عدته وقواعده دون ان يصرح باسم

المؤلف ولا شك ان شبوب تلك الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن الجادة وتدخل العوام فى رقائقه وقد كان الشيخ زروق يحذر من كتب الصوفية الرقيقة ومن كلامهم الرقيق كما كان ابو المحاسن الفاسى ينهى عن ذلك مؤكدا ان كتب الحاتمى وابن الفارض « تسد عن الناس باب الفتح » حسب تعبيره ويدعو الى الادمان على حكم ابن عطاء الله . والشعرانى(1) نفسه كان ينهى مريديه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربى وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء فى مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربى فانه احترس هناك — كما يقول زكى مبارك — حين اقنع المريد بان ماجاء فى كتب ابن عربى مخالفا للشرع انما هو من وضع الدساسين وقد حذر الشيخ زروق (فى قاعدة 207) من تلبيس ابن الجوزى وفتوحات الحاتمى بل كل كتبه او جلها كابن سبعين وابن الفارض والعفيف التلمسانى والاسود الاقطع والتجيبى والششترى) ومواضع من الاحياء للغزالى ومواضع من قوت القلوب لابى طالب المكى وكان اليوسى من المعجبين بنظم الحلبى فكان يقضى له ضرورياته مدة اقامته بفاس من ماله الخاص حتى نظم قصيدة تكلم فيها على لسان الحق فنقم عليه اليوسى ونهاه سدا للذريعة وحماية لجانب الشريعة فاصر الحلبى فلم يتردد صاحبه عن هجرانه وكان الحلبى هذا من كبار العلماء ولكنه كان يرى أنه على بصيرة من ربه فيما ينظم بلسان الوجد والحال .

وقد حمل اليوسى فى محاضراته حملة شعواء على ادعياء الطرقية ورسم لنا صورة عما انتهى اليه التصوف المغربى بسبب من اندس فى حظيرته من مغرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الاغمار . . وقد يشايعه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص39) ومن اغرب ما حكاه اليوسى (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودى وكانت بسجلماسة ايضا شجرة يقال لها

(1) ذكر الشعرانى فى تنبيه المغترين (ص 7) ان بعض الناس دس فى كتابه البحر المورود فى المواثق والعهود وفى مقدمة كتابه كشف الغمة عن جميع الأمة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة وأثار ذلك فتنة فى الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصليتين المجازتين من بعض مشائخ الاسلام الى العلماء الازهريين للاطلاع عليهما وقد أشار الشعرانى فى كتبه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وفقراء عصره مما يخالف السنة حتى أصبحت أصول التصوف غريبة عند منتحلى الطريقة .

الشجرة الخضراء لدوام اخضرارها فجعل النساء يزرنها استغرابا منهن لحالها ويعلقن عليها الخيوط ويطرحن الدراهم فى اسفل جذعها بل كان العوام من الرجال ينسبون اليها ترهات الاراجيف (ص 36) فبعث الاستاذ ابو زيد عبد الرحمن الشريف جماعة من طلبته استاصلوا شافتها وقطعوا جذورها وهكذا كان علماء الصوفية يترصدون للبدع والمبتدعة .

وقد افاض اليوسى فى وصف حيل الملبسين من ذلك قوله . « فما شئت ان تلقى جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة فضلا عن ان يعمل به فضلا عن ان يخلص الى الباطن فضلا عن ان يكون صاحب حال فضلا عن ان يكون صاحب مقام الا وجدته يصول ويقول وينابذ المعقول والمنقول واكثر ذلك فى ابناء الفقراء يريد الواحد منهم ان يتحلى بحلية ابيه ويستتبع اتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيا فيقول خدام ابى وزريبة ابى ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ... ثم يخترق لهم من الخرافات ما يدعيه سيرة ودينا يستهويهم به (ص 107) ووصف دعاة الاطلاع على الغيب والمتظاهرين بالوجد والسكر وصفا رائعا فقال : « وأما ما نحن فيه من ادعاء الاطلاع على الغيب والتظاهر بالكشف والتصرف بالوجود فهو الكثير فى زماننا فى المنتسبين دعوى منهم وتشبعا بما لم يعطوا » الى أن قال : « فمنهم من يستند الى مجرد خيالات منامية ويتاولها لنفسه ومنهم من يحكم ظنا وحرصا .. ومنهم من يتظاهر بالوجد والسكر ويقول ما يقول فى ذلك فاذا كذب وليم يقول والله ماأدرى حين تكلمت ما أقول ومالى اختيار وظن أنه يتخلص بهذا من الملامة « (ص 110) :. وقال : « وقد انحصرت دعاويهم فى الحدثان والكوائن وم‍آرب الناس ولم يرتقوا الى ما فوق ذلك لجهلهم فاشتغلوا بما يطلبه العوام « (ص 111) .

وما حدثنا به اليوسى فى اواخر القرن الحادى عشر (المحاضرات بدأ تصنيفها عام 1095) لا يختلف كثيرا عما حدثنا به زروق فى القرن التاسع اللهم الا منحيث الاستفحال والتلون فى الشر فاستمع الى اليوسى يصف بعض الحيل فيقول : « ومنهم من يستندالى التنجيم وعلم الاقترانات أو الى خط الرمل أو نيروجات أخرى تشبهه ومنهم من يحتال احتيالا فاذا قدم الوفود دس من يسالهم عن سفرهم وما وقع لهم فيخبره بذلك فاذا خرج جعل يشير الى تلك الامور فيقولون قد اطلع الشيخ على احوالنا واكثر ما يحكى من هذا النوع فى هذا الزمان انما هو من اخذ هذه المداخل احتيال من المتبوع أو جهل من التابع والعوام يستنطقون من لا ينطق ويفسرون ما لا يفسر فهم الشياطين فى زى المومنين » (ص 112) ثم تحدث عن ظاهرة اخرى فقال : « .. نجد الفقير يثقل عليه ان يتصدق بدرهم لمسكين محتاج او يتيم وارملة ويخف عليه ان يحمل الدينار والدينارين الى دار شيخه » (ص 118) .

وكانت البادية المغربية اكثر ايغالا فى الابتداع واشد انحرافا عن الروح الصوفية لغلبة السذاجة على اهلها الذين كانوا يبلغون فى التبرك بآثار الصالحين حد المشذوذ

وقد خص اليوسى بالذكر المصامدة (لا سيما رجراجة) موطن الاضرحة والمزارات مؤكدا ان من جملة المواضع التى اشتهرت بآثار الصالحين ووقع التغالى فيها شالة وميسرة (فى بلاد ملوية) ورباط شاكر (ص 38) .

ومازال الجهلة يتغالون فى مراسيم الطرقية وشكلياتها حتى قال محمد المهدى الفاسى فى تحفة اهل الصديقية « ادركت من الجهلة من يقول : ما نتوب حتى نجد شيخا نتوب على يديه » .

وقد اورد صاحب الدرر المرصعة رسالة « لبعض الاعلام المحققين » سماها «صفع القفا لمن لم يتبع سنة المصطفى » (صلى الله عليه وسلم) انتقد فيها اهل البدع وذكر مخازى ادعياء التصوف فى ارجوزة مهلهلة النسيج جاء فيها :

لا تصحبن شيخا من المشائخ	الا الذى فى كل علم راسخ
وجنبن صحبة الجهال	الخائضين لجة الضلال
كذاك من يلقن الاسماء	لكل جاهل اليه جاء
فانهم فى الخلق شر طائفة	اذ جاءوا للدنيا بزى الاخرة
قد ملكوا القلوب بالزخارف	واستعبدوا الانام بالخرائف
وما ترى من فقراء الوقت	فانه مقت واى مقت
انتشروا فى جملة البلاد	ليتد جلوا على العباد
وتلك حيلة على الاموال	غزوا بها النسا مع الرجال

وفى القرون الاخيرة اختلت المقاييس وتشعبت الدعاوى واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاى عبد السلام بن مشيش رضى اللهعنه كل سنة للوقوف به يوم عرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم باهل الخواطر يتجمعون باحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتاويلها وقد ادرك صاحب مرآة المحاسن هذه الطائفة التى كان لها اتصال بعلى ابن ميمون الغمارى الذى كان رحل الى الشرق وصنف كتابا فى متفقرة مصر والشام ولكن هذه الطائفة انقرضت فى أيام المؤلف (المرآة ص 236) .

وقد نال المغرب خلال العصور حظه الوافر من جميع انواع الانتحالات التى عرفت بالشرق فظهر بتلمسان ـ حسبما ذكره ابو اسحاق بن فضيلة فى كتابه « عين الخبر فيما بدأ وظهر من الطوائف الصوفية — على مذهب الحلاج او قريب منه ابو عبد الله الشوذى المرسى (1) ولكن صاحب المرآة ذكر أنه لم يعلم ان الشوذى هذا ابتدع

(1) ورد فى الموارد الصافية من شرح النصيحة الكافية مختصر شرح ابن زكرى لتلميذه أبى مدين الفاسى : « وقد وقع كثير من هذا النوع (اى الذى يوهم الاتحاد والحلول) لابن الفارض وابن العربى والششترى (المتوفى عام 668هـ) وابن سبعين المتوفى عام 667هـ) مع امامتهم فى العلم وظهورهم فى الديانة فليتق المومن ذلك كله مشفقا على دينه فارا من موارد الغلط راجعا لأصول الاعتقاد »

المذهب الذى تعتنقه الطائفة المدعوة بالشوذية وان الغالب على الظن انه كان على غير ما نسبـوا اليـه

وبالجملة فان ادعياء التصوف لم يخل منهم عصر وقد علل زروق تكاثر الادعياء وانطلاق العلماء فى انتقاد المتصوفة بقوله : وكثر المدعون فى هذه الطريـق لغربتـه بعدت الافهام عنه لدقته وكثر الانكار على اهله لنظافته وحذر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه وصنف الايمة فى الرد على اهله لما احدث اهل الضلال فيه وما نسبوا منه اليه حتى قال زروق « احذر هذا الطريق فان اكثر الخـارج منـه » (القاعـدة 201) وقد صنف محمد ابن عبد الكريم المغيلى كتابافى التنديد بهم سماه«تنبيه الغافلين بدعوى مقامات العارفين » كما الف محمد بن احمد المعروف بالصباغ كتابـا سمـاه «كشف قناع الالتباس عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس» وطفح معيار الونشريسى بفتاوى العلماء ضد المسلمين ومن الفتاوى فتاوى عبد الله العبدوسى الذى كان على حد تعبير زروق — « شيخ الجماعة والفقهاء والصوفية » والذى امات كثيرا من بدع الغرب وقد اضطر كبار الشيوخ الصوفية امام هذا السيل الجارف من الدعاوى والمخاريق الى تحذير المتصدرين للمشيخة فاكد مثلا محمد بن محمد بن عبد الله معن الاندلسى تلميذ أبى المحاسن الفاسى ان زمانه ليس زمان مشيخة واذا قيل هذا فى القرن الحادى عشر فما بالك بعصرنا هذا الذى كثر فيه الناعقون واصحاب الاغراض من الدجاجلة والملبسين الذين كانوا آلة يسخرها الاستعمار لاغراضـه الخسيسة ولا شـك ان انتشار الامية فى البادية على عن سياسة التجهيل الاستعمارية كان من شأنه أن يسهل مهمة المتمشيخين والادعياء ! علاوة على أنواع التشجيع التـى كانوا يلاقونه من عمـد الاستعمـار .

الفصل الثامن عشر :

العلماء والمتصوفة

تبين لنا من الفصل السابق ان علماء المغرب كانوا يترصدون لاهل البدع من الادعياء والملبسين وقد سقنا نماذج من انتقاداتهم المرة واذا علمت ان معظم من تطرق الى الكشف عن مخاريق المبتدعة كزروق والعياشي واليوسي متشبعون بروح صوفية بليغة عرفت ان علماء الصوفية كانوا حريصين على فضح الدجاجلة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاعراض الدنيا وحطامها على ان دعاة السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن الجوزي من المشارقة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتاخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش اثر بتربيته الصوفية في الاستاذ ويعلل هذا التأثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تلطيف السر بانواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار « انه لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج (اى الاستاذ) عن حسه ويزج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما « قرة عين الاستاذ » على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير ان جمال الدين الافغاني « خلع محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانقطاع الى التحنث والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بأنه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامح ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : « الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الادباء واشرف سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين اما نحن فسنذهب الى النار في ركاب امرىء القيس الذي انذره الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعده (القاعدة رقم 59)

حيث قال : « لكل فريق طريق فللعامى تصوف حوته كتب المحاسن ومن نحا نحوه وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج فى مدخله وللمحدث تصوف حام حوله ابن المعربى فى سراجه وللعابد تصوف دار عليه الغزالى فى منهاجه وللمتريض تصوف نبه عليه القشيرى فى رسالتهوللناسك تصوف حواه القوت والاحياء وللحكيم تصوف ادخله الحاتمى فى كتبه وللمنطقى تصوف نحا اليه ابن سبعين فى تآلفيه وللطبائعى تصوف جاء به البونى فى اسراره وللاصولى تصوف قام الشاذلى(I) بتحقيقه» ولكن زروقا اغفل تصوف الاديب الذى يريد ان ينظر الى الكون بقلبه ليستجلى منه مظاهر الفنون والجمال ولعل أبرز شخصية مغربية بل فى طليعة رجال الفكر العالميين تحتكر هذا الجانب هى ابن الخطيب الذى يقول فى كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » (مخطوط) : « الفطن يشعر بالشىء وان جهل أسبابه والصوفى يسمع من الكون جوابه » واستمع اليه أيضا يحلل الحب تحليل صوفى شاعر فيقول : « والحب الحقيقى حب يصعدك ويرقيك ويخلدك ويبقيك ويطعمك ويسقيك ويخلصك الى فئة السعادة ممن يشقيك » وقد شعر مالك بضرورة التصوف للعالم فقال : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق »

غير ان زروقا قال : « كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها » وهو الذى يقول ايضا : لزم الرجوع من التصوف الى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه اليه » (قاعدة 26) .

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان اقطاب التصوف كانوا فى نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم وقد ذكر صاحب نشر المثانى انه لولا ثلاثة لا نقطع العلم من المغرب فى القرن الحادى عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابى بكر المجاطى رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسى الذى تبلورت فى عهده الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا - كما قيل - تلاميذه وقد قيل فى العربى ابن ابى المحاسن الفاسى ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وعمه ابو زيد الذى افاض ابو العباس المقرى فى وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه بالجنيد كما شبهه غيره بالسيوطى لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقين الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقرى تكلم فى طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون فى التصوف «اقامة المريد» و « رحلة المتبتل » و « كتاب الحقائق والرقائق » الذى شرحه زروق وجده الخامس هو عبد الرحمن صاحب ابى مدين الغوث وابن القيم استقضاه ابو عنان المرينى على فاس له قصيدة نحا فيها منحى ابن الفارض فى الحب سماها « لمحة العارض

(I) أبوالحسن الشاذلى ادريسى من ولد ادريس بن ادريس من طريق ولده عمر خلافا لما فى لطائف المنن لابن عطاء الله والدالية للبوصيرى وشرح الزرقانى على المواهب(سلوة الانفاس ج I ص 84)وقد ذكر ابن عطاء الله ان منشأه من المغرب الاقصى ونقله عنه السيوطى فى حسن المحاضرة (ج ا ص 247)

لتكملة الفية ابن الفارض » ومن قضاة فاس الصوفيين كذلك ايام بنى مرين (ابى سعيد) الاصولى الكبير محمد بن على الجزولى الذى لبس الخرقة .

ومن العلماء الصوفيين كذلك ابن البنا المراكشى صاحب « مواسم الطريقة فى علم الحقيقة » و « عوارف المعارف فى حقيقة النظر للعارف » ومحمد المرغيثى خاتمة المحدثين وامام اهل عصره فى الادب والطب وعبد الله بن يعقوب السملالى خاتمة علماء جزولة وعبد الله بن أبى بكر بن يحيى المغربى الجزولى نزيل الاسكندرية الذى انتهى اليه علم الفرائض فى عصره ومحمد الحلفاوى الذى كان يعين أبا عنان المرينى بالضرب على أيدى المعتدين (أخذ التصوف عن يعقوب الزيات الفاسى) .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة فى ربوع المغرب لا سيما البادية ولا يخفى ما أسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من أياد بيضاء فى هذا الباب وقد كان فى زاوية محمد بن وسعدن السوسى تسعمائة طالب يكسيهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه أربعين سنة ولا مفهوم لهذه الامثلة فغيرها كثير فبقدر ما سمم أدعياء التصوف الروح الاسلامية بقدر ما سعى الصوفية فى محو الامية ونشر الفضيلة بين الناس وهذا ما جعل الادباء والشعراء والنقاد والمفكرين ينحاشون فى تلك العصور الى الزوايا التى كانت محافل علم وأدب أكثر منها مجمع رياضة وتزمت فحتى ابن الخطيب لم يفلت من هذه التأثيرات الروحية عند ما لجأ الى المغرب وقد كتب يقول بعد عودته الى الاندلس التى كانت اذ ذاك طافحة باسباب اللهو ودواعى الاستهتار بعيدة عما كان قد توطد فيها قبل من زهادة صوفية ورقة باطنية « وصلت من المغرب ولى ورد من الليل ووظيفة من الذكر وحظ من الخير ضايقنى فضول القول والعمل فهجرت السبحة وطلقت الورد وما طلت الفرض لوقته وعمرت الزمان بما لا يغنى من الله شيئا . » وقد الف ابن الخطيب فى الرد على الملبسين كتبا منها « الغيرة على أهل الحيرة » و «حمل الجمهور على السنن المشهور» و «الرد على أهل الاباحة » و « سد الذريعة فى تفضيل الشريعة » و « تقريب الشبه وتحرير المشبه »

وقد نبغت فى تلك العصور طائفة غير قليلة ممن يحق لنا أن نسميهم اليوم بالاميين المثقفين فقد تخرج من هذه الحلقات الصوفية التى كانت تنبثق منها العلوم للناس مثل عبد السلام التواتى الذى كان يتفجر علما رغم اميته (هو تلميذ مولاى التهامى الوزانى) وسيدى عبد العزيز الدباغ (الذى تلمذ له عالم جليل هو ابن المبارك) ومحمد بن مبارك الزعرى الذى كان اعجوبة فى دقائق التصوف ومولاى المهدى بن السعيد العلوى الذى الف رغم اميته كتابا سماه « نزهة الارواح النورانية فى الصلاة على الذات المحمدية » وكانت له جولات فى التوحيد الخاص وقد توفى على رأس القرن الحالى .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو المحاسن الفاسى يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفى آخر حياته نفض يده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف وابو المحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق أو كادت لخروج الناس لمقابلته وقد قرأ صاحب مرآة المحاسن على والده ابى يوسف هذا رسالة

القشيرى وعوارف المعارف للسهر وردى ومنازل السائرين للهروى وعيوب النفس لابى عبد الرحمن السلمى ومذاهب الصوفية لضياء الدين السهرودى وشرح ابن عباد على الحكم العطائية . وكان يوقن كما يوقن جميع الناس على اختلاف العصور ان فى القرآن والحديث الغنية والكفاية ولكنه كان يقول كما رواه عنه ولده فى المرآة : « لو كان الناس على القدم الاولى وما كان عليه السلف الصالح من سلامة الدين والرسوخ فى اليقين لم تر للقوم اورادا موظفة واحزابا مكلفة وهو الذى كان فى الاصل فلما قصرت المقاصد وذهبت المشارب والموارد جعل الايمة رضوان الله عنهم تلك الوظائف للمبتدئين ومنارا للطالبين » الى ان قال : وأما من قوى يقينه وانشرح صدره فهو فى غنى عن ذلك كله » (ص 94) .

والزقاق الفقيه انقطع هو ايضا لقراءة الحديث والفقه والتصوف ولكن من الصوفية من كان يفضل كتب السير على كتب التصوف منهم عبد الله السوسى لان فى الاولى سيرة الصحابة وفى الثانية اخبار الصوفية وشتان ما بين الاثنين .

وقد اندمج العلم فى التصوف اندماجا جعل كثيرا من اصحاب التراجم يحلون كبار العلماء بلقب القطب الذى يعتبر فى سلم التراتيب الصوفية من اعلى المقامات تشهد بذلك رسالة لاحمد البوسعيدى كتبها له ميارة عندما اتاه بشرحه على المرشد المعين ليقرظه له فعاب عليه كونه اذا عرف فيه بأحد من اشياخه وصفه بالقطب او العارف بالله او نحو ذلك .

وبالجملة فقد بلغ اقطاب العلم واساتذة الفنون بالمغرب درجة فى الزهادة جعلت جماعة منهم ينقطعون فى جامع الاندلس للعبادة بعد تحصيل العلم فكان الناس يقصدونهم للاستفتاء وطلب العلم والادب والتماس الدعاء .

وكنا نرى اقطاب العلماء يشدون الرحلة لزيارة بعض الاضرحة المشهورة بالمغرب كمزارات سيدى عبد السلام ابن مشيس الذى زاره التاودى بن سودة سبعين مرة وسيدى بوسلهام وسيدى ابى يعزى وقد ذكر صاحب الصفوة ان احمد بابا السودانى زار ابا العباس السبتى ازيد من خمسمائة مرة .

تلك نبذة مختصرة عن موقف علماء المغرب من التصوف واهله وقد رأينا كيف انهم كانوا حربا على المشعوذة بقدر ما كانوا دعاة للروح الصوفية .

الفصل التاسع عشر :

ملوك المغرب والطرقية

لقد قاوم ملوك المغرب ادعياء التصوف وترصد بعض السلاطين حتى للصوفية من غير الدجاجلة والملبسين وذلك لسببين اثنين اولهما صعوبة التمييز بين المخلص النزيه والمدلس الدعى ؛ وثانيهما تضخم نفوذ الصوفية والتفاف جماهير الشعب الغريرة حولهم وخوف بعض الملوك من مناورات تؤدى الى قلب الحكم والذى يستعرض الظروف التى اعتلت عائلة السعديين مثلا بفضلها اريكة العرش يعلم مدى نفوذ المصوفية فى تلك العصور الخوالى .

وقد سبقت الاشارة الى موقف امير الملثمين على بن يوسف بن تاشفين(1) من بعض الصوفية أمثال أبى العباس ابن العريف وأبى الحكم بن برجان فقد ذكر ابن بشكوال فى تاريخه ان فقهاء المرية انكروا مذهب ابن العريف الذى كان صيته قد بعد عبادة وزهادة وكثر اتباعه على طريقة الصوفية فامر الامير المرابطى باشخاصه اليه مع محمد بن الحسين الميورقى من غرناطة وابن برجان من اشبيلية وكانوا نمطا واحدا فى الانتحال فسيروا جميعا الى مراكش ليراقبوا عن كثب وما لبث ابن العريف ان توفى عام 536 فتجمهر الناس للاحتفال بنعشه وكانت فى جملة دواعى الايقاع بالصوفية تضايق العمال المحليين من نفوذهم وايغار صدر الخليفة عليهم مع اقامة المواجب تارة صدقا وتارة زورا بزندقهم وهذا هو نفس ما وقع بين على بن يوسف وابن العريف الذى كتب به الى الخليفة ابن الاسود قاضى المرية تضايقا من سعة نفوذه وعندما ورد ابن العريف على حاضرة الملك وتحقق الامير صدقه بعد امتحانه دس له ابن الاسود من يسممه فمات وهذا هو الذى دفع السلطان الى تغريب ابن الاسود الى السوس الاقصى حيث مات مسموما بايعاز منه اقتصاصا من جرمه الشنيع .

ومن جملة من سجنه على بن يوسف محمد بن خلف اللخمى بعد ان غربه من

---

(1) أقام فقهاء الاندلس ضجة ضد الغزالى وأحرق المرابطون أحياءه بدعوى خروجه عن المعتقد السائد فى التفويض وعدم أعمال التاويل وترك الجدل وقد أخذ المهدى بن تومرت عن الغزالى مذهبه وكذلك عن أبى بكر الطرطوشى بالاسكندرية الا أن القاضى عياضا ثار ضد الموحدين فى الوقت الذى قام محمد بن هود بالاندلس بانيا ثورته هذه على المعتقدات مثل الموحدين .

الاندلس وقد كتب اللخمى هذا فى سجنه بمراكش مجموعا فى التصوف فرغ منه آخر رمضان عام 529 ـ وعلى اللمتونى هو الذى امر باحراق كتب الغزالى بافتاء من فقهاء المغرب وكان الناس يحلفون بالايمان المغلظة ان الاحياء ليس عندهم .

وقد ذكر صاحب لسان الميزان (جاص 247) أنه بعد مجيء ابن العريف وابن برجان الى مراكش ظهر احمد ابن قسى فابتنى مسجدا ببعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالاباطيل وتبعه كثير من الاعيان وكاتب اهل المرية يدعوهم الى خلع الملثمين ثم استظهر بجماعة من الفرنج ليقاتل بهم المسلمين وذكر عبد الواحد المراكشى انه احضر الى عبد المومن فقال له بلغنى انك ادعيت المهدوية فاجابه : « اليس الفجر فجرين صادقا وكاذبا ؟ » قال بلى : « فانا كنت الفجر الكاذب » فعفا عنه ولكن قتله بعض اصحابه الذين كانوا معه فى الاندلس .

وقد استقدم يعقوب المنصور الشيخ ابا مدين الغوث من بجاية لامتحانه لما بلغه عن سعة نفوذه ولكنه مرض بعد وصوله الى حوز تلمسان فمات ودفن فى محل يسمى رابطة العباد عام 594 .

ويتبين من هذا العرض ان الملوك المرابطين والموحدين انما قاموا بامتحان بعض أهل التصوف خشية ان يكون هؤلاء من الادعياء المغرضين واقتصار هذه الامتحانات على الصوفية الخارجيين عن حدود المغرب الاقصى يدلنا على حسن نية الامراء الذين لم يكونوا يمتحنون الا من لم يكونوا على بينة من حاله على ان التصوف المغربى كان لا يزال اذ ذاك سنيا وكان اهله بعيدين عن روح التفلسف والانتحال التى كانت الميسم البارز لكثير من صوفية الاندلس .

وقد هدأت نوعا ما حركة الامتحان فى عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التى بلغت فى ذلك العصر ذورتها ولكنهم يرون مع ذلك ان ابا عبد الله بن محمد الشيخ المرينى وهو محمد الملقب بالبرتغالى سجن عبد الله الغزوانى بفاس بتحريش الفقيه ابن عبد الكبير البادسى ثم اطلق سراحه واعتذر اليه ورجا منه السكنى بفاس فبنى زاويته داخل باب الفتوح لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بنى وطاس من ميع وانحلال فصوفى سوس عبد الله بن عمر المدغرى (وهو من اصحاب زروق) وكذلك عبد العزيز القسمطيني هما اللذان مهدا لدولة محمد الشيخ السعدي وذكر صاحب زهرة

الشماريخ ان محمد بن المبارك هو الذى أمر قبائل السوس بالانقياد الى السلطانين(1) ثم انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس فعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين (2) وأغرب ما فى الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية مالبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الزوايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للعامة فى اصحاب الطوائف من اعتقاد ومن جملة من امتحنه عبد الله الكوش فاخلى زاويته بمراكش وامر بترحيله الى فاس وقد اتخذ السلطان ذريعة للايقاع بارباب الزوايا اتهامهم بحفظ ودائع بنى مرين وكانت الزوايا واهلها معفاة من الضرائب ففرض محمد الشيخ عليها ضريبة النائبة .

وقد سجن المنصور الذهبى صالح سوس على بن احمد بن موسى الذى ظل سجينا فى تردانت الى ان توفى عام 1006 .

وفى ايام زيدان تضعضع نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشى الصوفى بالامر فى كثير من النواحى وكانت شوكة الصوفية اذ ذاك قوية وجانبهم منيعا وقد بلغت الزاوية الدلائية حينذاك عنفوانها فتحفظ زيدان فى اثارة ارباب الزوايا من ذلك أن القاضى ابا الحسن على بن عمران السلاسى سعى بابى زيد عبد الرحمن الفاسى عام 1018 واصما اياه بالابتعاد وتلقين آراء الفرق الضالة للناس ولكن بعد مثوله بين يديه تحقق للسلطان الامر فقبض على ابن عمران وزج به فى غياهب السجن حيث بقى الى ان مات .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء المتمهدين وهو احمد بن ابى محلى الذى توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام وهزم والى السعديين بسجلماسة ثم احتل درعة وطارد السعديين الى مراكش حاضرة الملك فاخرج منها زيدان ولكن هذا الاخير استنجد باهل سوس فقاموا ضد ابن ابى محلى وقتلوه (محاضرات اليوسى

---

1) كان الصوفية يولون هجماتهم على المدن التى يحتلها الأسبان والبرتغال فى سواحل المغرب من ذلك ماذكره دوكاستر (الوثائق عام 1909 . ج 2ص 30) من أن القبائل الريفية هاجمت بدعوة من أحد الصوفية - مدينة مليلية مرتين فى شهرى ابريل ويونيه 1564 م

وأكد دوكاستر أنه بمجرد جلاء البرتغال عن أزمور دخلها الشيخان ابو عبد الله محمد بن ساسى وابو محمد عبد الله الكوش مع جماعة من الابطال المسلمين لحراستها ريثما يتمكن المسلمون من جمع الجنود » (الوثائق ج 1 ص 146 عن نزهة الاخوان وكتاب دييكوا دوطوريس ومارمول)

(2) لما قام السلطان أحمد الاعرج وأخوه ضد بنى مرين وجه هؤلاء الى السلطانين سيدى عمر الخطاب وسيدى ابا الروابن للصلح مع جماعة أعيان الوقت

ص 91) وقد قتل السلطان محمد الشيخ المامون بن احمد المنصور الذهبي الشيخ ابا الحسن على الحاج الغصاوى البقال عندما تخوف منه ان يدعى الملك ولانه أغلظ له في القول عند تحقق تنازله عن العرش للنصارى وقد فر من فاس تخلصا من استفتاء السلطان في تلك القضية العربي الفاسي واخوه احمد وكذلك العالم محمد الغساني وابن عاشر وعلى البطوئي بينما تجرأ الغصاوى المذكور على مناقشة السلطان الحساب فكان مصيره القتل .

ولما استقل الملوك العلويون بالنفوذ في المغرب قضى مولاى رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها في بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد بن محمد بن ناصر وجهز محلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل وهذه مكرمة للرشيد حيث كانت قومته لله وتقاعسه لله عند استبانة الحق وقد سخط المولى اسماعيل كذلك على اهل الزوايا وشدد عليهم واستقدم في جملة من استقدم الى حضرته لامتحانه مولاى التهامي الوزاني ولكنه ما لبث ان اذن له في العودة الى وزان وتختلف الروايات في تاويل تراجع السلطان وسجن المولى اسماعيل بفاس احمد بن عبد القادر بن محمد ابن مبارك التستاوتي (الذي نظم رجال الحلية ورجال التشوف) وذلك عام 1104 ولكن ما لبث ان اطلق سراحه وقد الف ابو الربيع مولانا سليمان خطبة ضد المواسم والطوائف متاثرا فيها بروح والده السنية وكان تحريره لهذه الرسالة سدا للذريعة وحماية للشريعة رغم تشبعه هو ووالده بالروح الصوفية السلفية كما يتبين ذلك من اجازته المتصلة بالسند الجزولي عن طريق التباع بواسطة شيخه محمد الشرادي ومن طرق اخرى منها طريق الشيخ التاودي بن سودة .

ويشهد التاريخ الحديث كذلك بغيرة ملوكنا على الحنفية السمحة وخوفهم من تسرب البدع الى الدين عن طريق اهل الدعاوى من المغرضين .

وحتى في الشرق كان موقف الملوك شديدا من ادعياء الطرقية غير أن التيار كان يجرف حتى بالصالحين فقد ذكر ابو سالم العياشي في رحلته وكذلك الشعراني ان بني عثمان لما دخلوا مصر امر السلطان سليم بقتل من فيها من ارباب الطوائف لان الغوري لما خرج لقتاله اخرج معه العلماء والصلحاء يستنصر بهم فلما دخلها قتل كثيرا منهم حتى المجاذيب .

ولكن ليس معنى هذا ان ملوك المغرب كانوا حربا على التصوف وانما قاوموا الادعياء والدجالين او غلاة المتصوفة الذين شذت دعاويهم عن ظاهر الشريعة ولا يخفى ان التصوف السلفي هو من صميم الدين كما تبين من اقوال صاحب المنار وشيخه محمد عبده واذا حققنا معنى التصوف قبل ان يطرأ عليه الانحراف وجدنا ان رجال صدر الاسلام وتابعيهم كانوا كلهم صوفية وقد كان يوسف بن تاشفين زاهدا متورعا متقشفا لم يلبس غير الصوف (الانيس المطرب ج 2 ص 36) وفي دولة الموحدين اظهر

يعقوب المنصور زهدا وتقشفا وخشونة ملبس ومأكل وانتشر فى ايامه – حسب تعبير صاحب المعجب (ص 170) – للصالحين والمتبتلين واهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق ولم يزل يستدعى الصالحين من سائر البلاد وقد كتب قبل خروجه الى غزوة الاندلس عام 592 يبحث عن الصالحين فى جميع البلاد فاجتمعت له منهم طائفة كبيرة كانوا يسيرون بين يديه فى الحروب (المعجب ص 175) وقد اشتهرت نزعة المنصور الصوفية فى الشرق حتى زعم ابن بطوطة وابن خلكان انه ترهبن وانخلع من الملك ولبس المرقعة وقصد بلاد الشرق زاهدا متبتلا فتوفى هناك ؛ وكان ابو العباس السبتى يعيش فى جبل جليز فاهبطه المنصور الى المدينة وحبس عليه مدرسة للعلم ودارا للسكنى . ولوحظت نفس الحركة فى الشرق ففى ايام المنصور انشأ صلاح الدين الايوبى بمصر خانقاه سعيد السعداء وسماه دويرة الصوفية وولى عليها اعظم رجال الدولة كاولاد حمويه وذى الرياستين تاج الدين ابن بنت الاعز (خطط المقريزى ج 4ص 273) ثم توحدت رياسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع فجعلت فى دار محمد البكرى ولا تزال فى البكريين الى الآن (تاريخ التمدن الاسلامى ج ا ص 202) والسلطان عبد الله بن المنصور هو الذى ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح ابى العباس السبتى وشحن خزانته بنفائس الدفاتر وقد وصف صاحب الذخيرة السنية (ص 9) ملوك بنى مرين بالادب والدين واكرام العلماء وتوقير الصالحين وذكر عن الامير ابى محمد عبد الحق انه كثير الذكر والاوراد يسردالصوم وتتبرك به احياء زناتة واذا سمع بصالح او عالم خف لزيارته (ص 29) وكان أبو سعيد أيضا معظما للعلماء موقرا للصالحين يتواضع بين أيديهم (ص37) وقد أجاز الامير ابو يوسف الى الاندلس ومعه جماعة من صلحاء المغرب (ص 167) وبنى الزوايا فى الفلوات واوقف لها الاوقاف لاطعام عابرى سبيل وذوى الحاجات ووصفه ابن الخطيب فى اللمحة البدرية بأنه كان اشبه بالشيوخ منه بالملوك – (ص 42 طبعة 1347) وكان اول الذين استنفرهم ابو القاسم العزفى لتحرير الاندلس هم الصالحين والعلماء ـ وبنى ابو الحسن المرينى زاويتين بمكناس أعدهما للوارد من الغرباء اما فى الدولة السعدية فان احمد المنصور لبس خرقة التصوف من يد شيخه العلامة الاديب احمد المنجور حسب ما ذكره صاحب المنتقى المقصور وقبله اخذ السلطان عبد الله الغالب طريقة التصوف عن أحمد ابن موسى الجزولى .

وفى أيام العلويين جدد المولى اسماعيل ضريح ابى القناديل سيدى يوسف وضريح احمد الشبلى وعبد الله القصرى واسس الضريح الادريسى عام 1110 فقامت حوله مدينة

زرهون واسس السلطان سيدى محمد بن عبد الله(I)ضريح سيدى محمد بن عيسى بمكناس وبنى قبة سيدى سعيد ابن عثمان وجدد بناء الضريح الادريسى مع أنه تزعم الحركة السنية السلفية بنشر كتب الحديث والتقليل من مصنفات الفروع وقـد جـدد مولاى الحسن ضريح سيدى احمد بن يحيى فى باب الجيسة عام 1307 وبنى قبته وزاد فى مسجد ضريح عبد القادر العلمى لما كثر اتباعه .

غير ان هذه الاضرحة لم تكن فى ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آى القرآن والاذكار والدعوات فلم ير الملوك ما يدعو الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار افسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التى كانـت تسرى فى هذه البيوت الطاهرة .

(I) أصدر سيدى محمد بن عبد الله مرسوما لأبى مدين الفاسى باسناد أمر زاويتهم اليه وهو الذى جدد أضرحة ابى العباس السبتى والتباع والجزولى والغزوانى وأبى صالح ومولاى على الشريف وميمون الصحراوى وعلى ابن حرزهم ودراس بن اسماعيـل ومولاى عبد السلام بن على بن ريسون الذى كان له معرفة بالعلوم الرياضية كما تدل على ذلك محادثاته مع محمد الجباص وادريس الشاوى (وهما عضوان فى البعثة التى وجهها مولاى الحسن عام 1291 موافق 1875 الى انجلترا لدراسة العلـوم الرياضية) كان له تأثير سياسى على السلطان مولاى الحسن ونجليه مولاى عبد العزيز ومولاى حفيظ وبفضله استطاع سكان تطوان الوصول الى المناصب الكبرى كعبد الكريم بريشة المبعوث المفوض فى معاهدة مدريد عام 1880 ومحمد الصفار عضو الوفد المغربى فى مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906 وعبد الكريم الغنيمة السفير المفوض ببرلين وكان لسيدى عبد السلام بن ريسون وهو الموسيقار والعالم والصوفى اثر قوى على مولاى العباس فى حرب تطوان عام 1276 هـ (1860 م) (راجع حياة ابن ريسون لعبد الرحيم جبور تطوان 1951)

الفصل العشرون :

نماذج من تصوف العلماء

لعل من أبرز نماذج التصوف المغربى أى الفلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلغلت مقالاته السيارة فى قرارة النفوس فقومت اودها طيلة أجيال متوالية وطبعت التصوف المغربى بميسم خاص افرغت منه الحقيقة الصوفية فى قوالب شرعيـة وروح التوكل فى صورة السبب ولطائف الروح وأسرار النفس فى أشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدى يوسف الفاسى الفهرى . ويمكن القول بأن نظريات هـذا الرجـل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية فى هذا الباب .

وأول ما يتجلى لك من احتياط هذا الرجل كعالم يمثل الشريعة فـى نصاعتهـا الفطرية تحذيره من قراءة كتب الحاتمى وابن الفارض لانها فى نظره تسد باب الفتح نظرا لاستعصاء اسلوبها وغموضه وحضه على مطالعة حكم ابن عطاء الله وما شابهها لقربها الى التعرف وقد برر نشاطه الصوفى من الوجهة الشرعية بانه لو ظل الناس على القدم الاولى أى على ما كان عليه السلف من سلامة الدين والرسوخ فـى اليقيـن لما احتاجوا الى ذلك ومع هذا فالذى قوى يقينه وانشرح صدره يكون فـى غنى عـن خوض معامع التصوف .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يوخذ عن العالم الادنى ليرقى الى العـالم الا سنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل أنانيته فتتكشف فى باطنه حقائق وتختلج فى سره رقائق وتعرض له أحوال وجدانية لا تنضبـط ولا ترتبـط بمعهود وقد تسمو روحانية الصوفى فيتجرد عن بشريته ويتحد أى فى التوحيد لان الفناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقـة . وهذه الظواهر كلها ذوقيـة وجدانية (فمن ذاق – كما يقول الشيخ يوسف – عرف ومن لم يذق فـلا حـرج اذا سلم واعترف وهذه لطائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشـارة اذ لا يفهـم عنك الا من أشرق فيه ما أشرق فيك) والشيخ متفائل يريد من العبد أن تكون عبوديته وعبادته على بساط الحب لان هذا البساط أتم من بساط الخوف . وقـد نظر الشيـخ من خلال تصوفه الى كثير من مشاكل الفلسفة الانسانية فحللها فى سلاسـة أسلـوب وقوة اقناع مستخدما مبادىء علم النفس فى التعرف الى كثير من الحقائق الباطنيـة والخلقية والاجتماعية وقد يعرج أحيانا على هيآت ما وراء المادة فيستشـف أسرارا وحقائق من مزيج المنطق السليقى والميتافيزياء الفطريـة التى تنبثق عـن الكشـف

الباطنى . ولم يحجم الشيخ عن اثارة مشاكل القضاء والعقل والنفس والروح والعالم العلوى وقيمة الخواطر وماهية الكمال وحقيقة المعرفة ومقياس الحس ولكنه آثارها وحللها فى عبارات خاطفة يحق لها أن تسير مسرى الامثال فاستمع اليه يقول حسبما ينقله الينا نجله مؤلف (مرآة المحاسن) لعقول معقولة مهما رامت أو طلبت ما ليس تها طلبه زجرها زاجر الشرع واكتنفها وارد المنع فرجعت القهقرى ونكصت الى وراء . 2) الانسان روح ثم نفس ثم جسم فالروح عالم الجبروت والنفس عالم الملكوت والجسم عالم الملك.3) العوالم أربعة : عالم الملك وعالم الملكوت وعالم الجبروت وعالم العزة فعالم الملك يدرك بالحس وعالم الملكوت يدرك بمبادىء العقل وعالم الجبروت يدرك بنهاية العقل ولا مجال للعقل فى عالم العزة . 4) القدر يرجع بحسب المقدرة الى التعلق الصلاحى أزلا والقضاء الى التعلق التنجيزى والقضاء غير القدر بل هو متأخر ناشىء عنه وبه . 5) الكمال هو الرجوع الى الخلق بالحق وعدم الاخلال بشىء من الشريعة . 6) المعرفة شعور بالحق لا كشف عن الحقيقة : 7) الاتصال – أى بالعالم العلوى هو أى أساسه – الانفصال عن لوث الصلصال . 8) ليست الطريق – أى طريق الكمل – بكثرة القيل والقال ولا بكثرة الاعمال أى بكثرة الصلوات والمبرات – وانما هى بفراغ القلب مما سوى الرب . 9) قرب العبد من ربه على قدر بعده من طبعه : 10) أول خاطر يخطر لك عند المهمات فهو ميزانك . 11) الناس فى مواردهم على حسب مشاربهم : مواجد مختلفات وفى توحيدهم معارج متعددات ايمانى وبرهانى واحسانى فمشرب الانسان على حسب وسعه وسلامة ذهنه . 12) المال لا يذم لذاته وانما يذم لعوارضه ولعل فى هذه الامثلة لرسم صورة مصغرة عن أسس الفلسفة الروحية والخلقية بالمغرب ولو أردنا التعليق على كل فكرة لاعوزنا المجال لان تحت كل ذرة درة .

الفصل الحادي والعشرون :

التصوف المغربي كمذهب اجتماعي

كانت غاية الحركات الصوفية فى نصاعتها الاولى صقل الروح وتصفية الوجدان ولكن التصوف تشعب وداخلته عناصر من غير جنسه فغلظت حواشيه واخشوشنت ديباجته وقد بدأ هذا الانقلاب الرجعى منذ القرن الثانى الهجرى حيث وصف أبو سليمان الدارانى المتصوفة بقوله : (عظمت الدنيا فى قلوبهم فلا يرون فوقها مطلبا وصغر الحق فى اعينهم فاعجلوا منه هربا وانشد الجنيد امام اهل التصوف .

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة

وقد انتشرت هذه الرجعية المبتدعةفى التصوف المغربى منذ عدة قرون حتى انبرى بعض العلماء يحذرون العوام السذج من غواية المشعوذين وفى مقدمة اولئك ابو بكر ابن العربى المعافرى والطرطوشى والمازرى والشيخ زروق صاحب كتاب عدة المريد الصادق الذى يمكن ان يعتبر من اول المصنفات السلفية فى المغرب والونشريسى صاحب المعيار وغيرهم . وقد كان محمد بن محمد بن عبد الله معن الاندلسى تلميذ أبى المحاسن الفاسى يحذر من المتصدرين للمشيخة

وهذا لم يمنع المغرب من انجاب عناصر طيبة كانت انموذجا للصوفية الوجدانية السامية التى ينعكس اشعاعها على المجتمع فيضفى عليه سربا لا من الطمأنينة والاستقرار والهناء : ونحن نريد ان نتحدث هنا عن الدور الذى قام به التصوف المغربى فى اقرار التسامح والسلام فى المجتمع واسعاف طبقاته المعوزة واجراءالامدادات الموصولة لتخفيف وطاة البؤس فهناك مذهب صوفى مغربى بحت يرجع الفضل فى وضع اسسه ونشر دعوته لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبتى الذى كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس فى الاسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مرددا كلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل) وقد اشتهر مذهبه ايما اشتهار حتى نعته معاصره الحاتمى فى فتوحاته المكية بصاحب الصدقة فى مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة اثرها فاسست الرباطات والمزوايا والملاجىء فى مختلف انحاء المغرب حيث كان ياوى العجزة والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراش الوديع وقد تنافس الصوفية فى هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فاسسوا الزوايا فى الفلوات لايواء عابرى السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

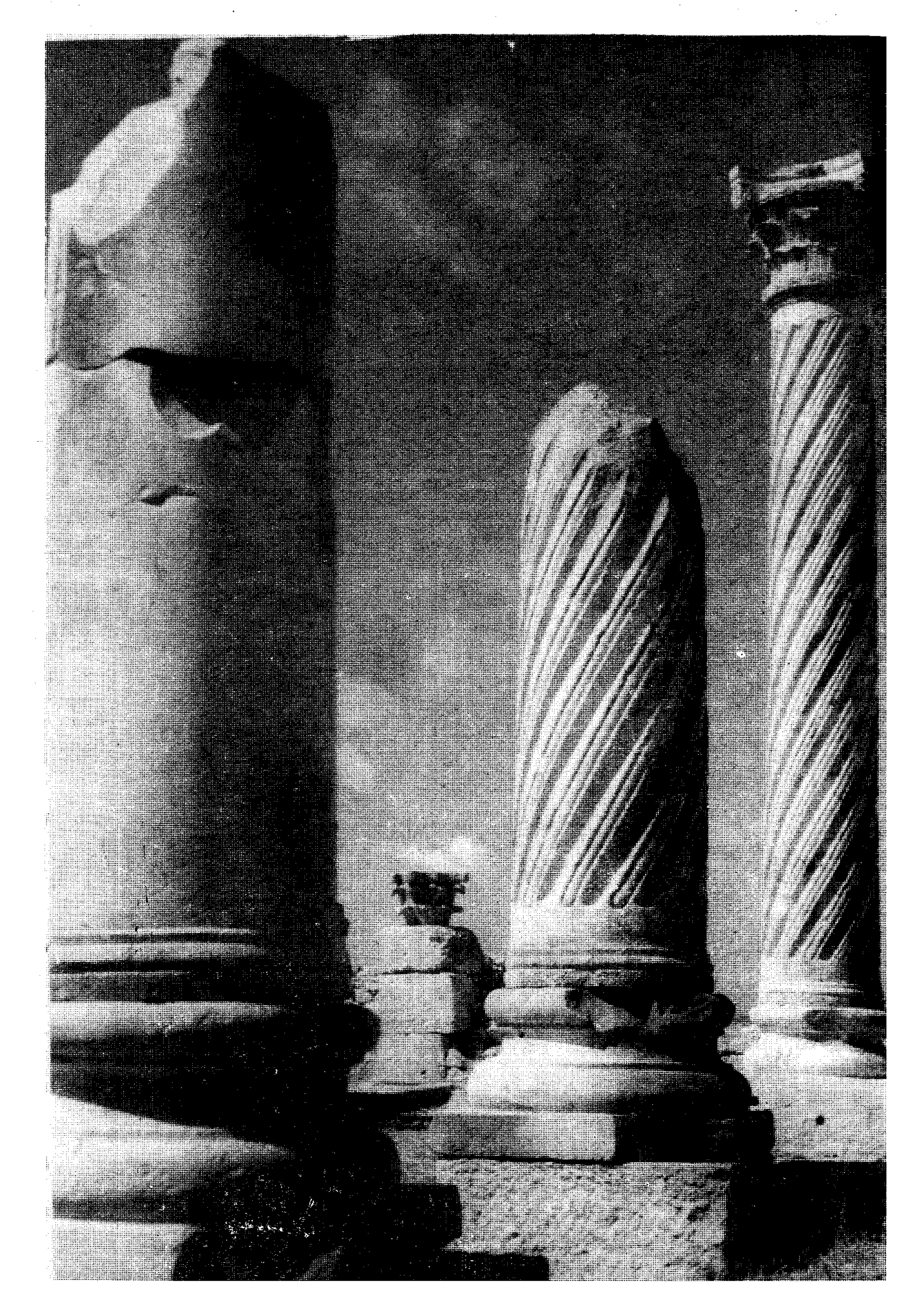
وقد كان فى زاوية محمد بن وسعدن السوسى تسعمائة طالب يكسيهم ويطعمهم من ماله الخاص واستمر فى هذا العمل الانسانى اربعين سنة . ويحكى عن الشيخ ابى الرواين انه كان يدفع كل ما لديه للفقراء والمساكين وكان سيدى عبد الرحمن المجذوب يزاول الحراثة مواظبا على اطعام الجياع واغاثة الملهوفين وكذلك الشيخ سيدى أحمد الشاوى الذى تكسب بالزرع والماشية وافاد من تكسبه (اربعين مدا من الذهب) صرفها كلها فى وجوه الخير والاسعاف وهو الذى بنى قنطرة ابن طاطو وكانت له خمسة زوايا يطعم فيها الفقراء .

وكانت لعبد الله الكوش الذى اسره الاسبان فى اصيلا عندما كان يدافع عن حوزتها فى طائفة من مريديه - زاوية تتسم بسمة المطاعم اكثر مما تتسم بسمة الزوايا حيث كانت فى مطابخها قدور تسع الثور والثورين وتحتوى على بلاط واسع مجصص يبرد فيه الكسكس بالالواح لكثرة الوافدين من المساكين وكان له عن كل نوع من الطعام وكيل خاص وكان الاطعام عاما مجانا بدون اى مقابل ! ويحكى ان نجل سيدى عبد الله بن حسين ذبح يوما سبعمائة شاه ومائتين من البقر وعشرين من الابل وهيأ الطعام فى أحواض تغدى منها أثنا عشر الفا وخمسمائة من المساكين ! وكان لمحمد بن ابى بكر الدلائى كذلك زاوية عديمة النظير اتخذ لجلب السمن اليها قواديس تتصل بقدور نحاسية ضخمة !! .

وكان للصوفية المغاربة ميادين اخرى يتجلى فيها عطفهم المثالى على المجتمع الاسلامى البائس فقد ندب محمد بن الحجام المكناسى الناس يوما الى افتكاك الاسرى المغاربة الذين وقعوا فى قبضة العدو فتسارع الناس الى البذل وتراكمت أمام منبر الشيخ ثياب وهدايا كادت تحجبه عن الابصار !

وغير خاف ما قام به الصوفى الكبير سيدى محمد العياشى تلميذ سيدى عبد الله ابن حسون من مآثر فى الدفاع عن كيان المغرب ومقاومة الاستعمار الاسبانى الذى كان يهدف الى احتلال المراسى المغربية وتطويق البلاد كما انه لا يخفى ما كان يقوم به الشيخ محمد بن مبارك الاقاوى فى سوس حيث كان يتدخل بين القبائل لكفها عن التناحر فتطيعه فى الحين لسعة نفوذه الروحى حتى جعلوا له اياما سموها أيام سيدى محمد ابن مبارك لا يحمل فيها أحد سلاحا وهو الذى أمر قبائل السوس بالانقياد للسعديين وكان سيدى محمد بن يدر التغللتى كذلك لا يفتر عن التدخل لاخماد نيران الثورة التى كانت تشب ضد الملوك أو بين القبائل ! .

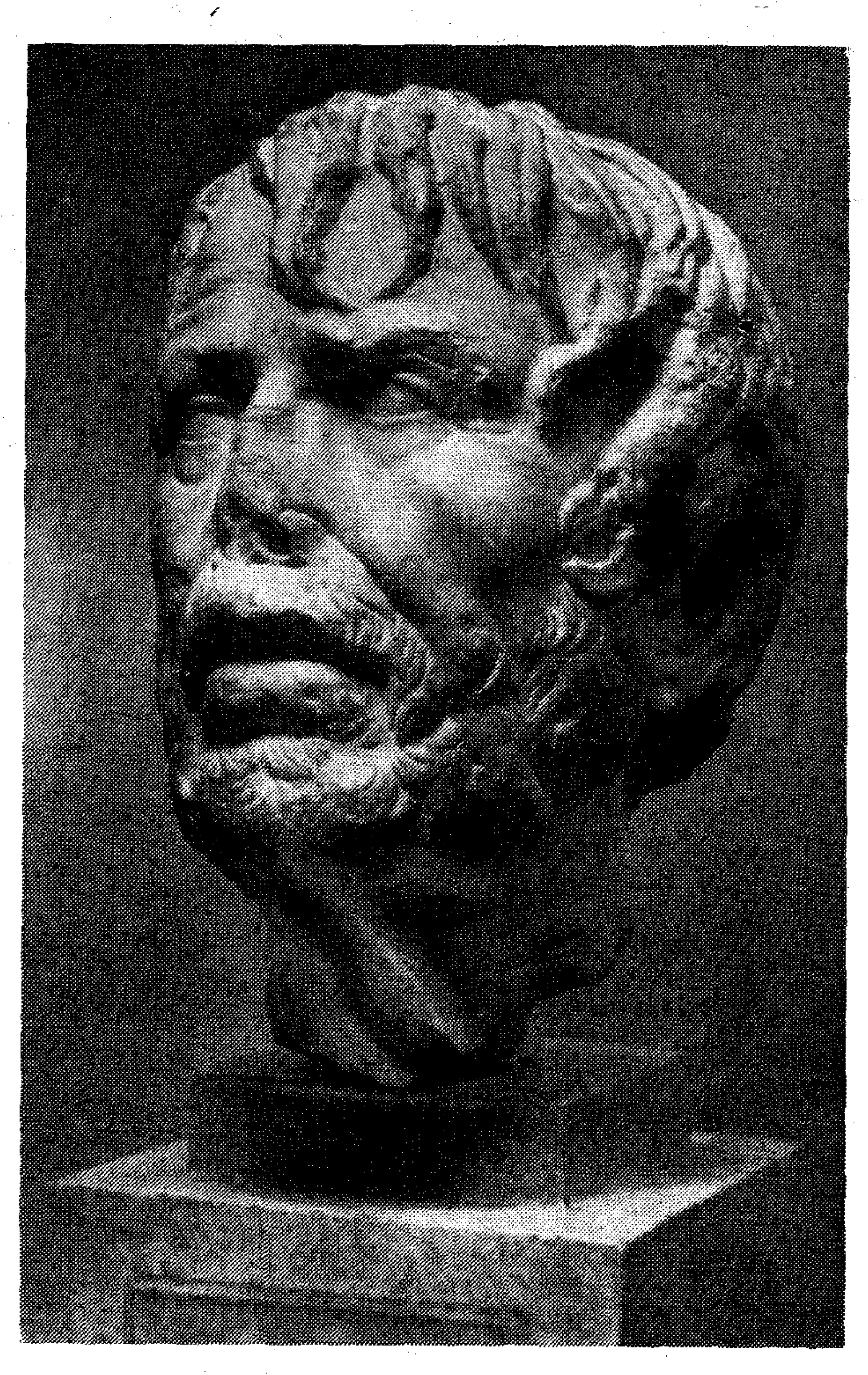
ذلك مظهر من الصفحة التى سجلها التصوف المغربى فى تاريخنا الاجتماعى وهى صفحة ناصعة مشرقة اصبح أدعياء التصوف المارقون يلوثونها بشعوذتهم الاثيمة !



مظهر من بقايا آثار شالة

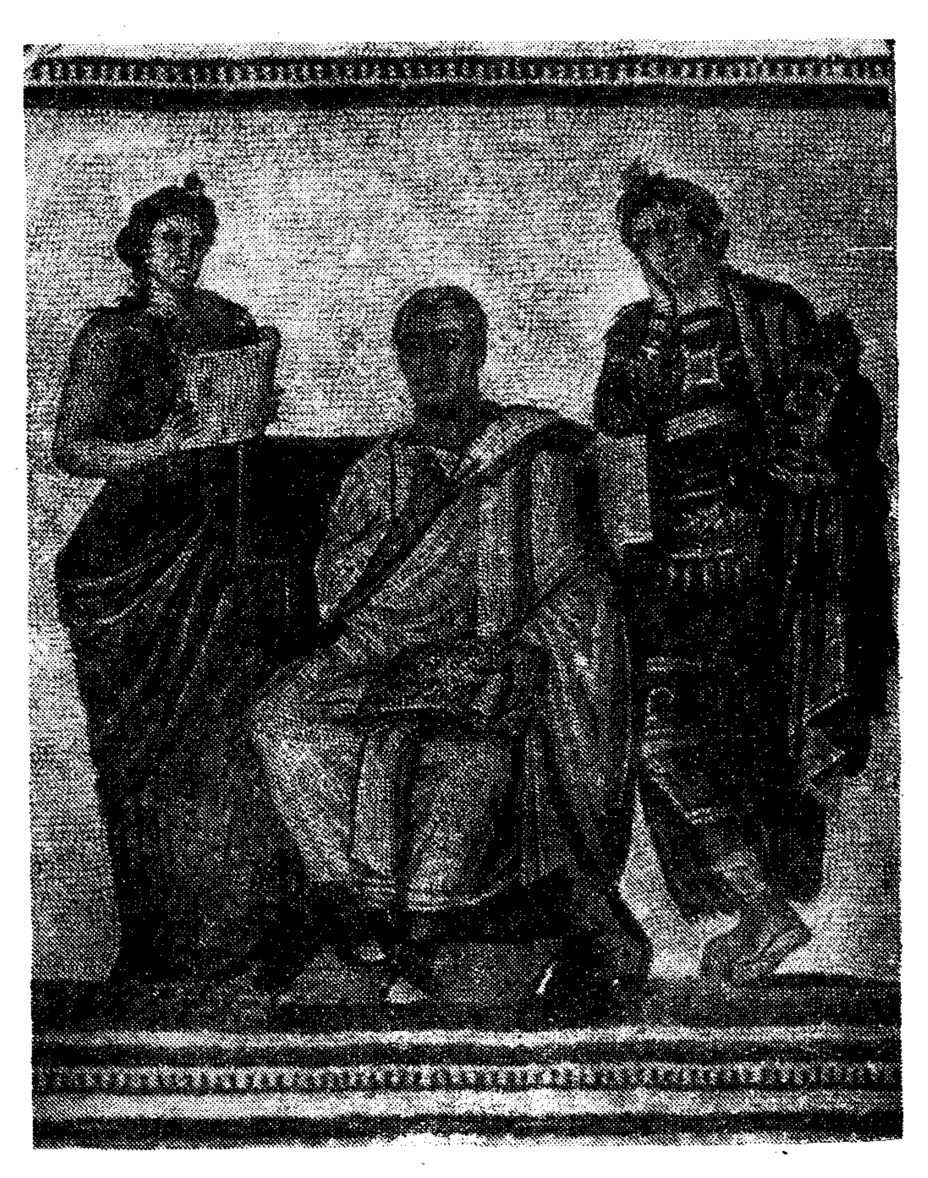


منظر من آثار لوكسوس وهى أول مدينة بناها القرطاجنيون بالمغرب
منذ ثلاثة آلاف عام

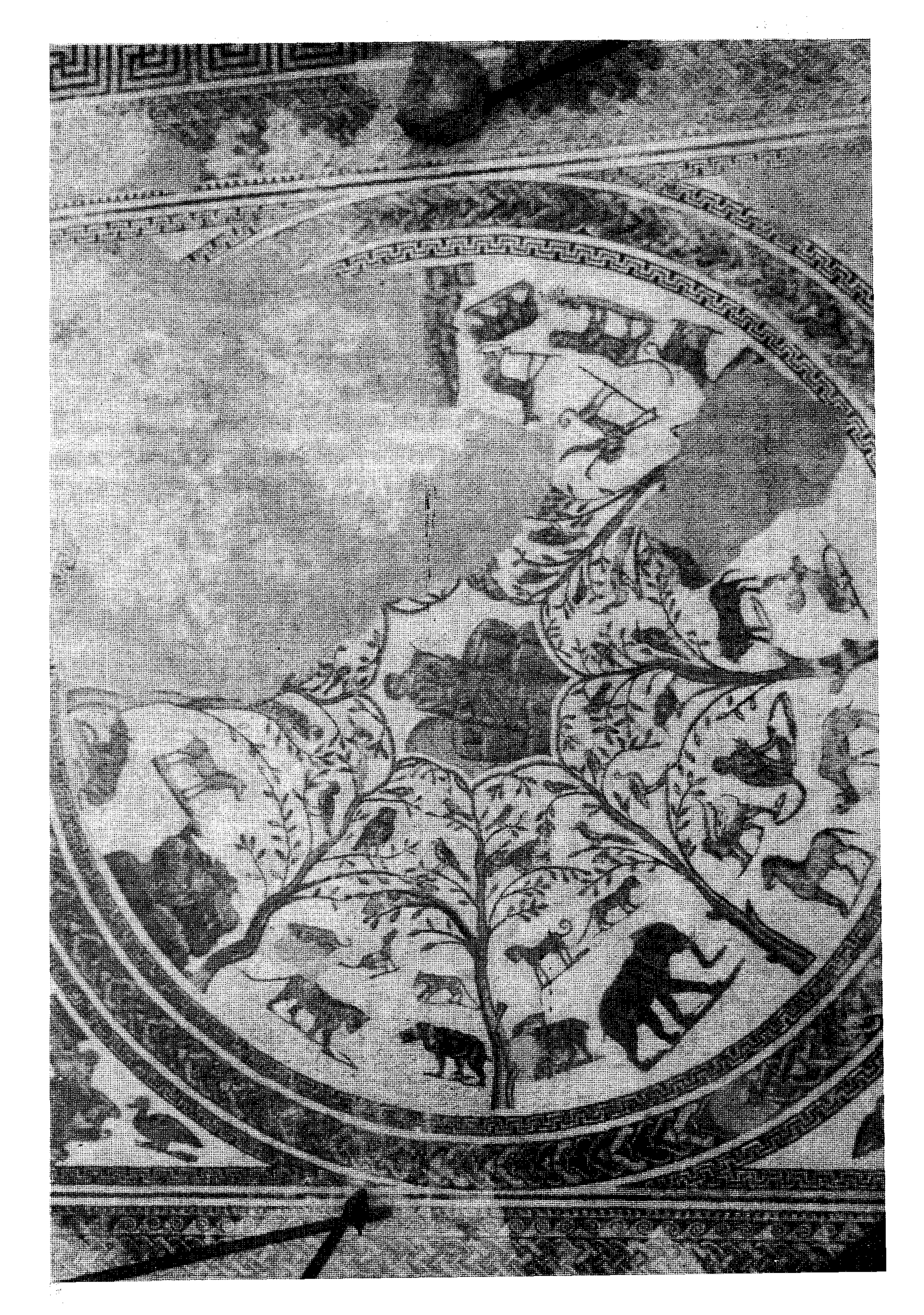


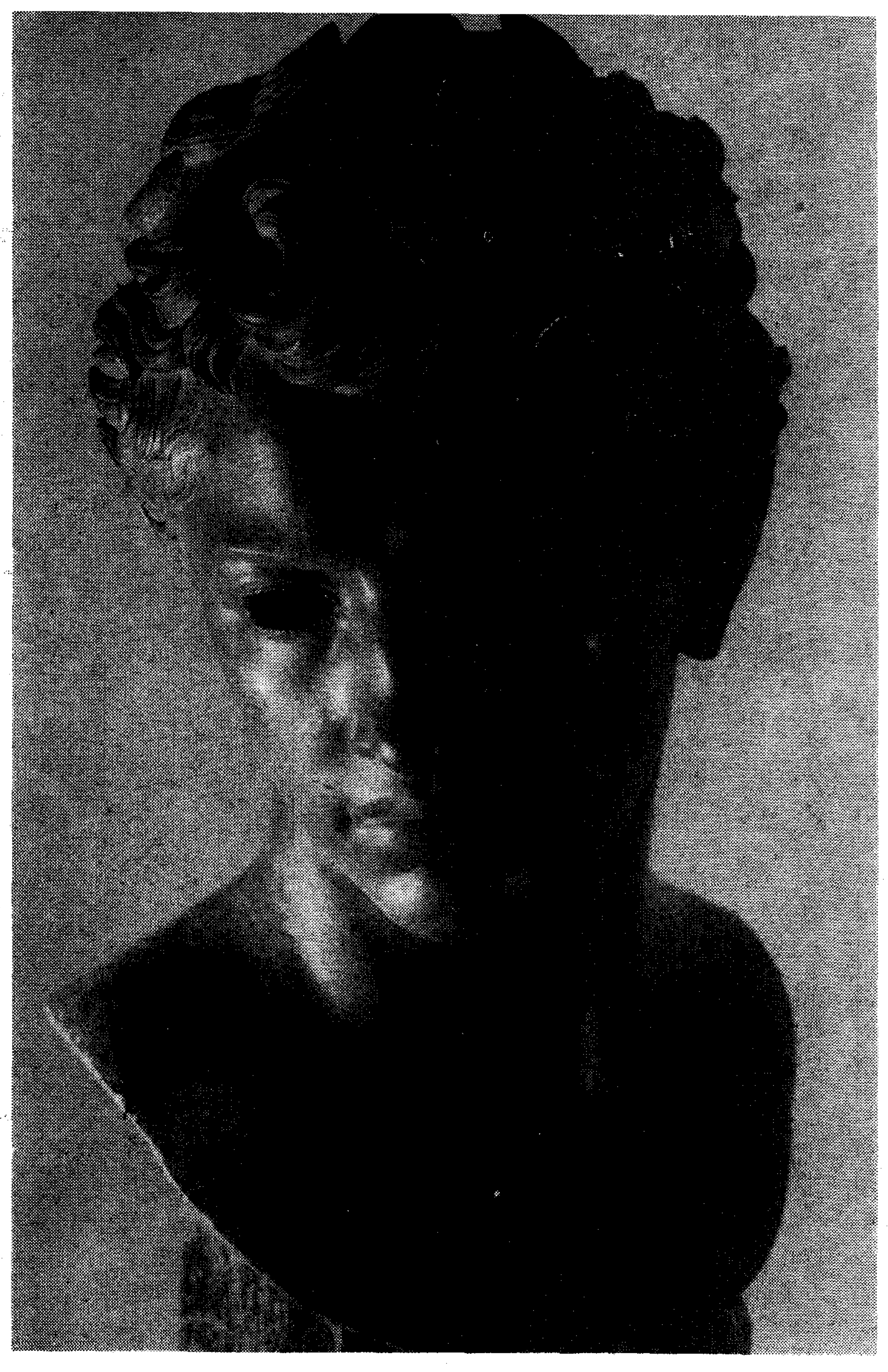
المتحف العلوى فى باردو بتونس
رأس الفيلسوف سينيك

قصر وليلى : مدخل البحرية بأساطين وقوس النصر

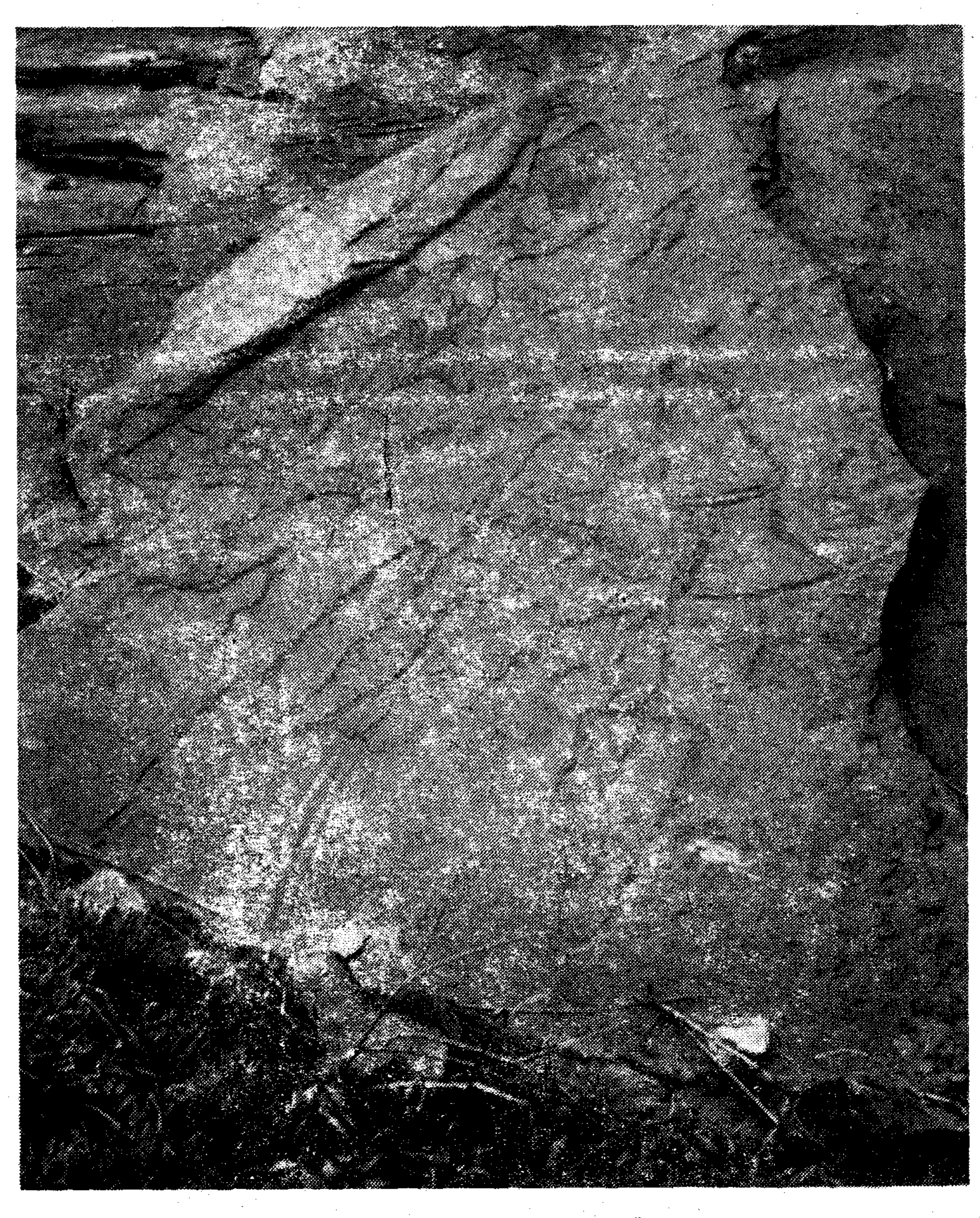


متحف باردو بتونس
فسيفساء فيرجيل بسوسة

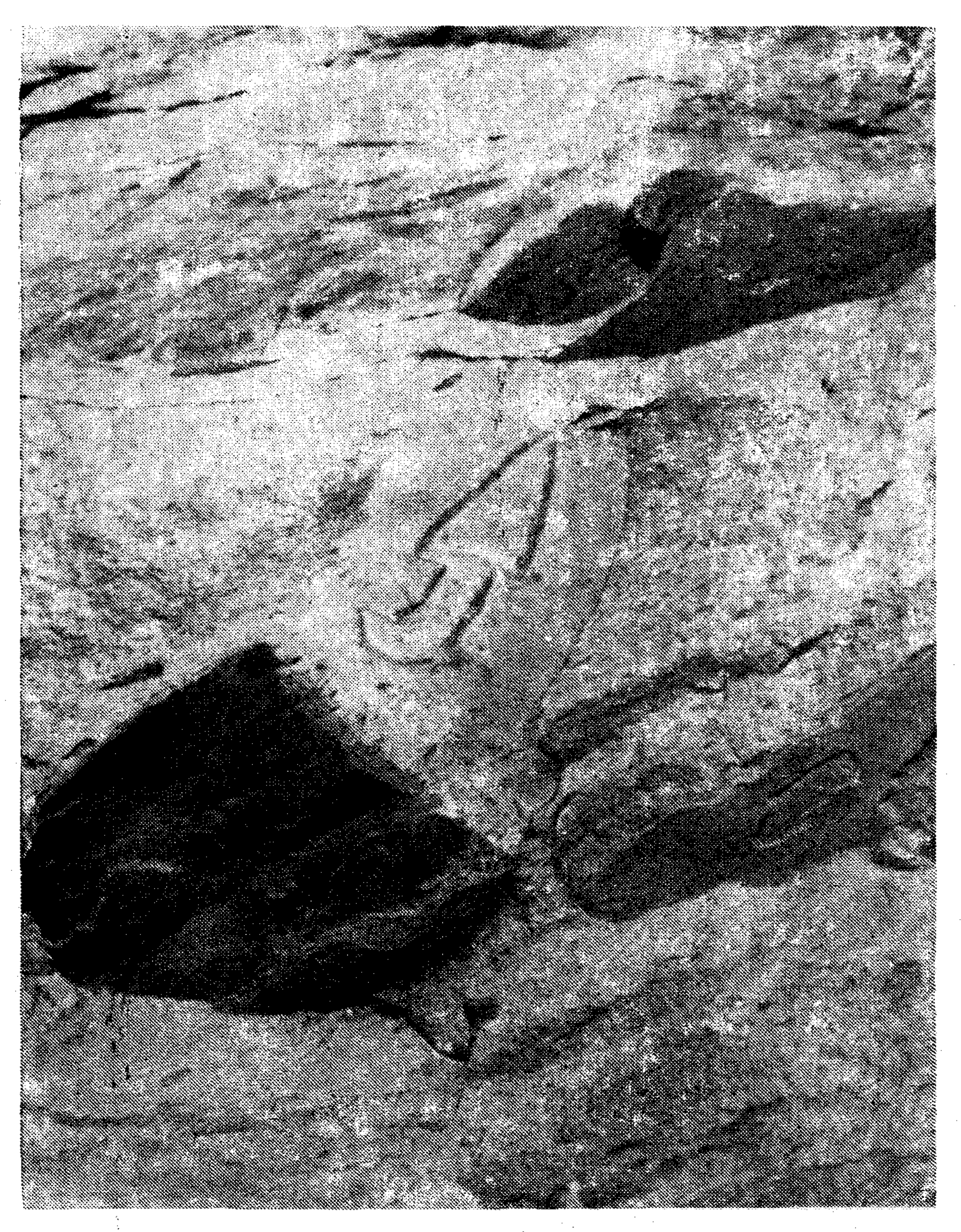




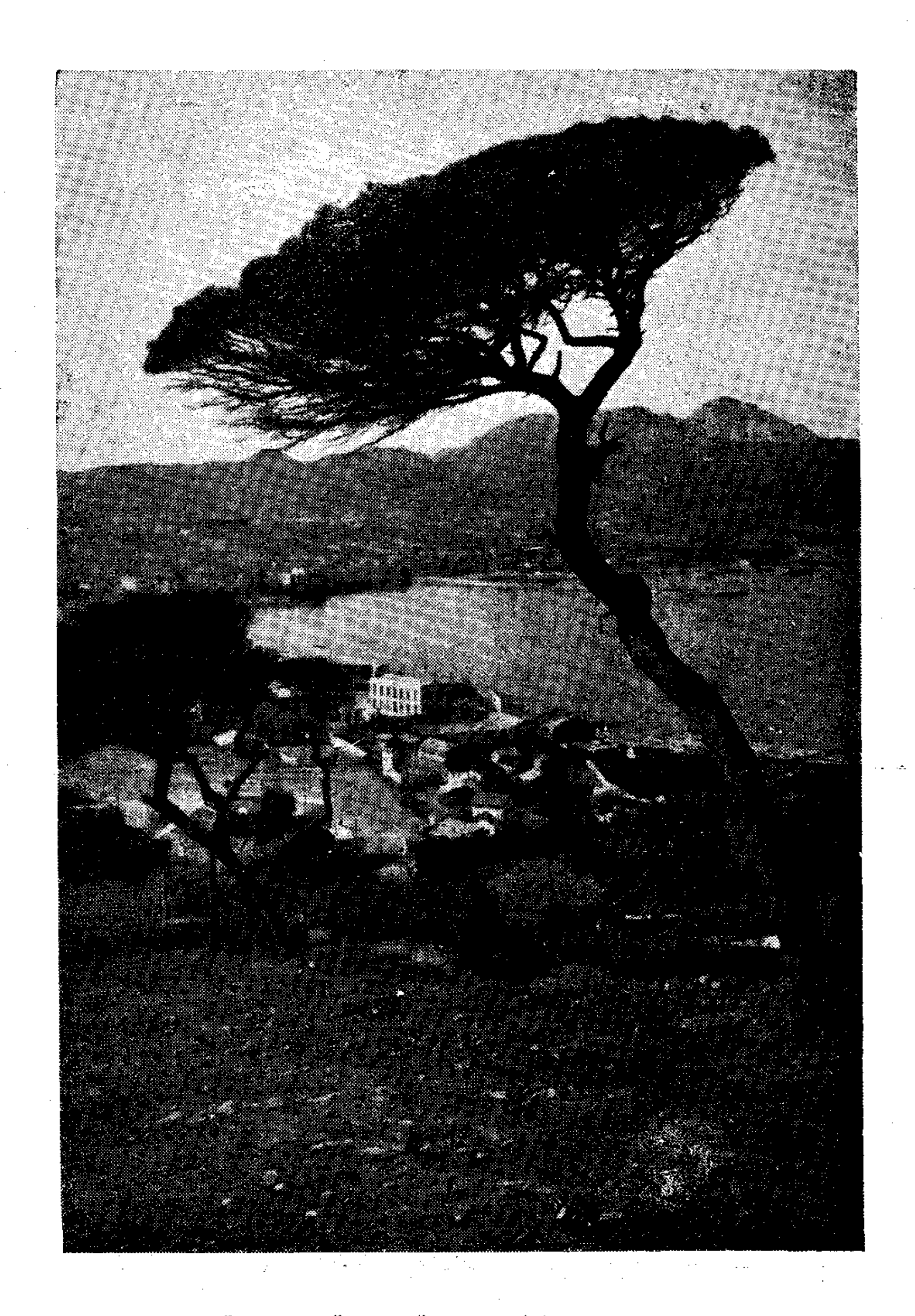
قصر فرعون : صورة يووبا الثانى من البرونز وهو ملـك موريطانيـا (مقاطعة فى افريقيا الشمالية قسمها الرومان الى موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية موزعة بين تونس والجزائر والمغرب) توفى عـام 18 م وهو كاتب له مصنفات فى التاريخ باللغة الاغريقية



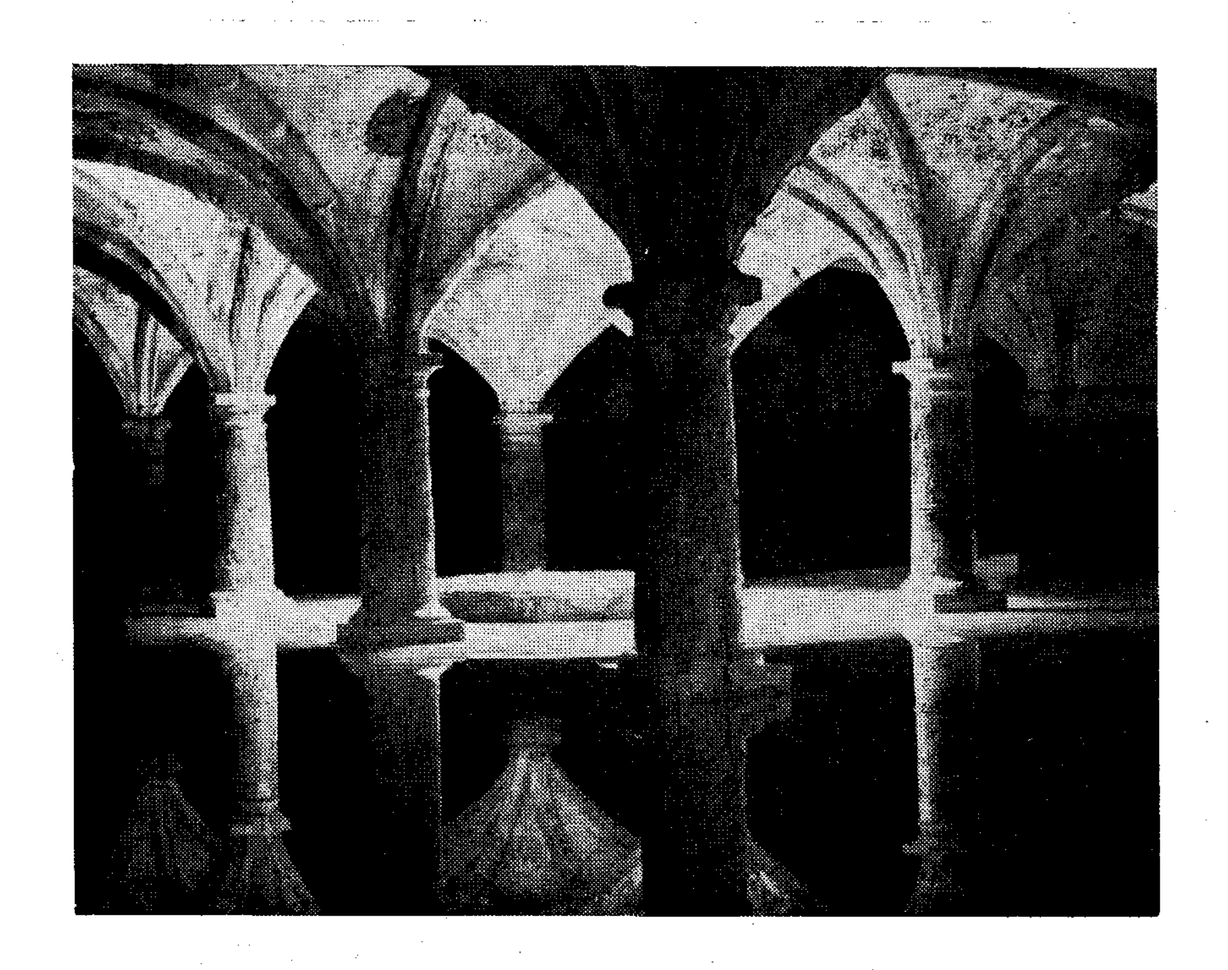
رسوم وصور منحوتة فى صخور جبل أوكايدمدن يرجع تاريخهـا الى العهد البربرى



رسوم أثرية عثر عليها فى جبل أوكايمدن



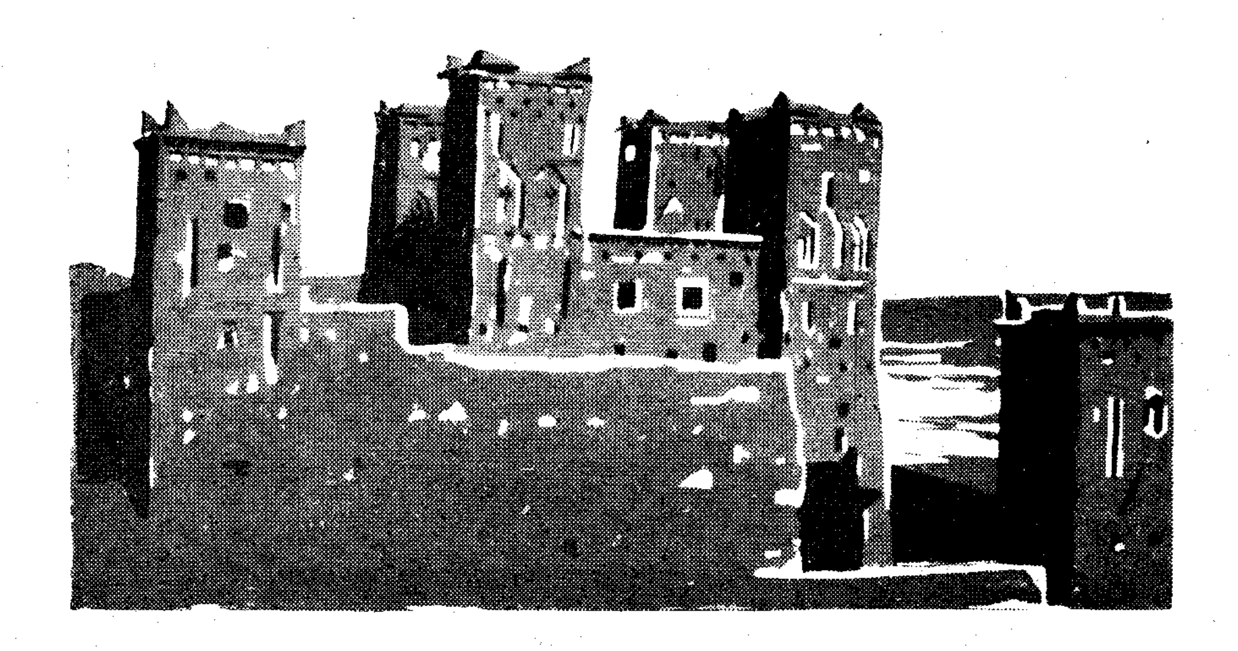
من مناظر مدينة سبتة المغربية



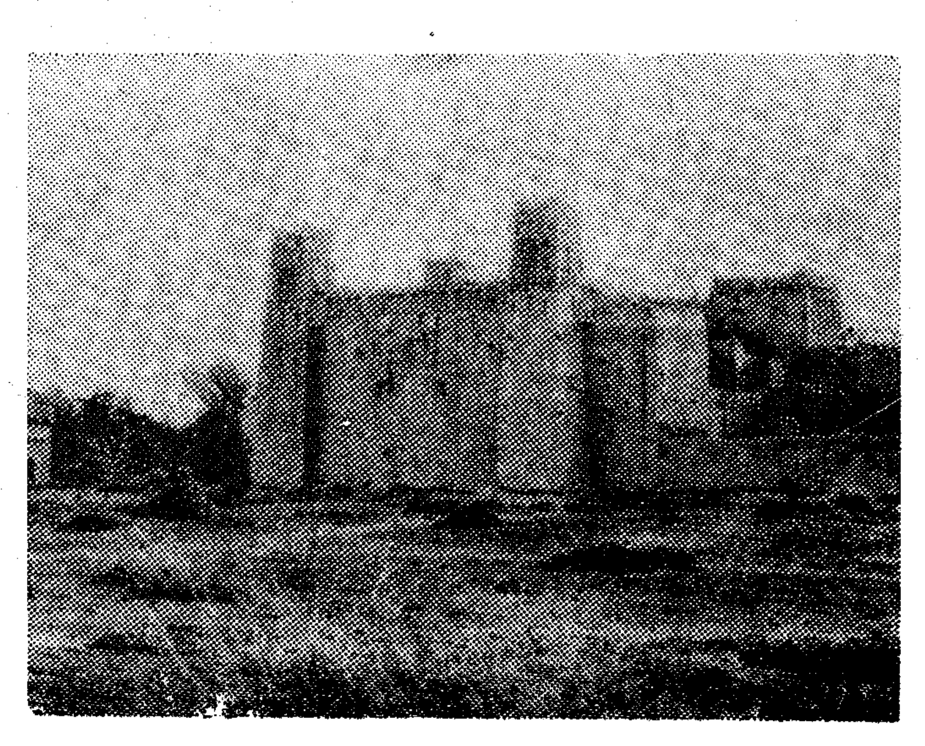
الجديدة : من المطافىء البرتغالية التى يرجع عهدها الى القرن العاشر



قصبـة أطلسيـة



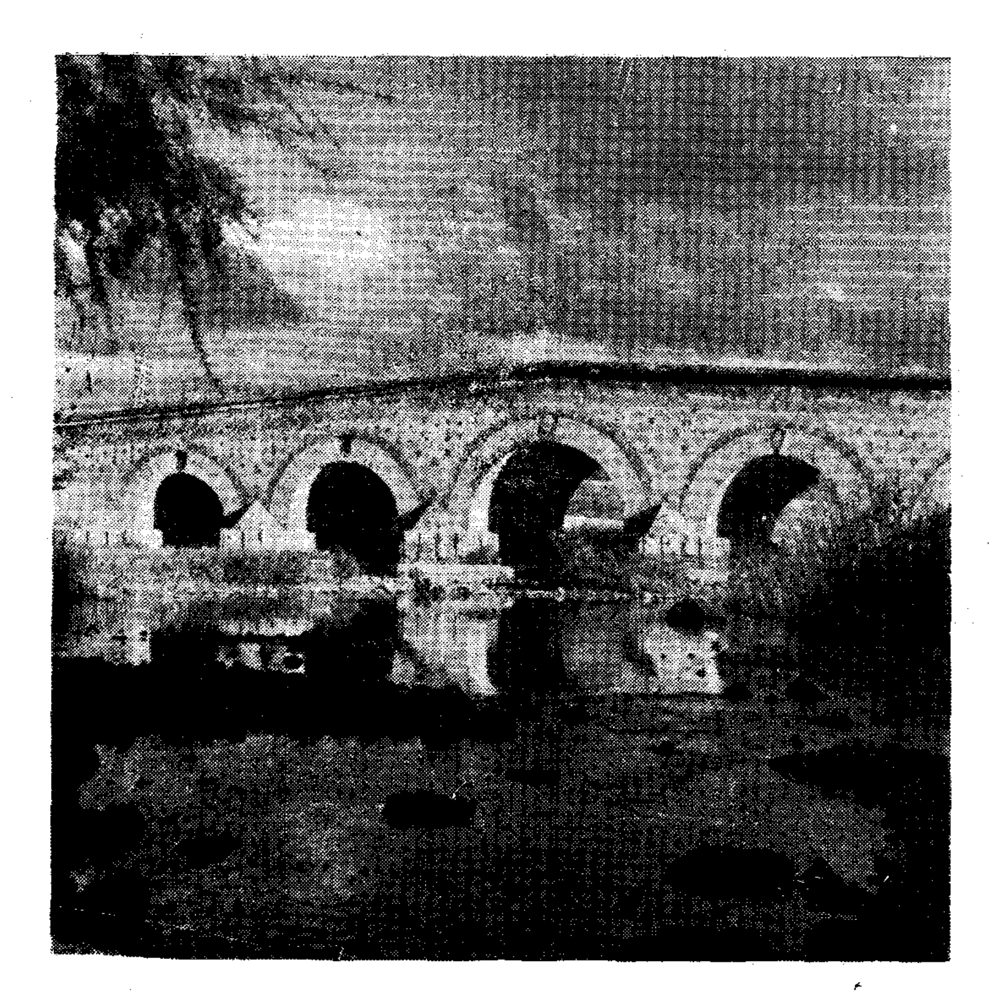
من قصبات سوس والاطلس



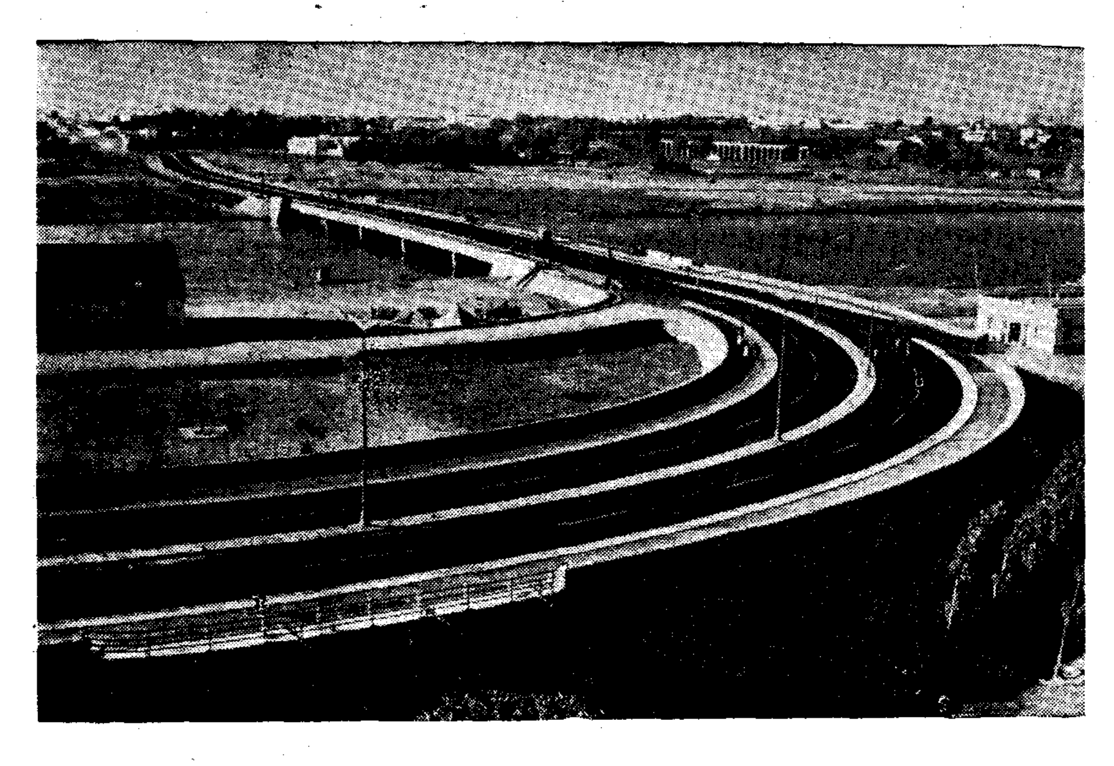
قــصبــة بــربــريــة



واحـة أطـلسـيـة



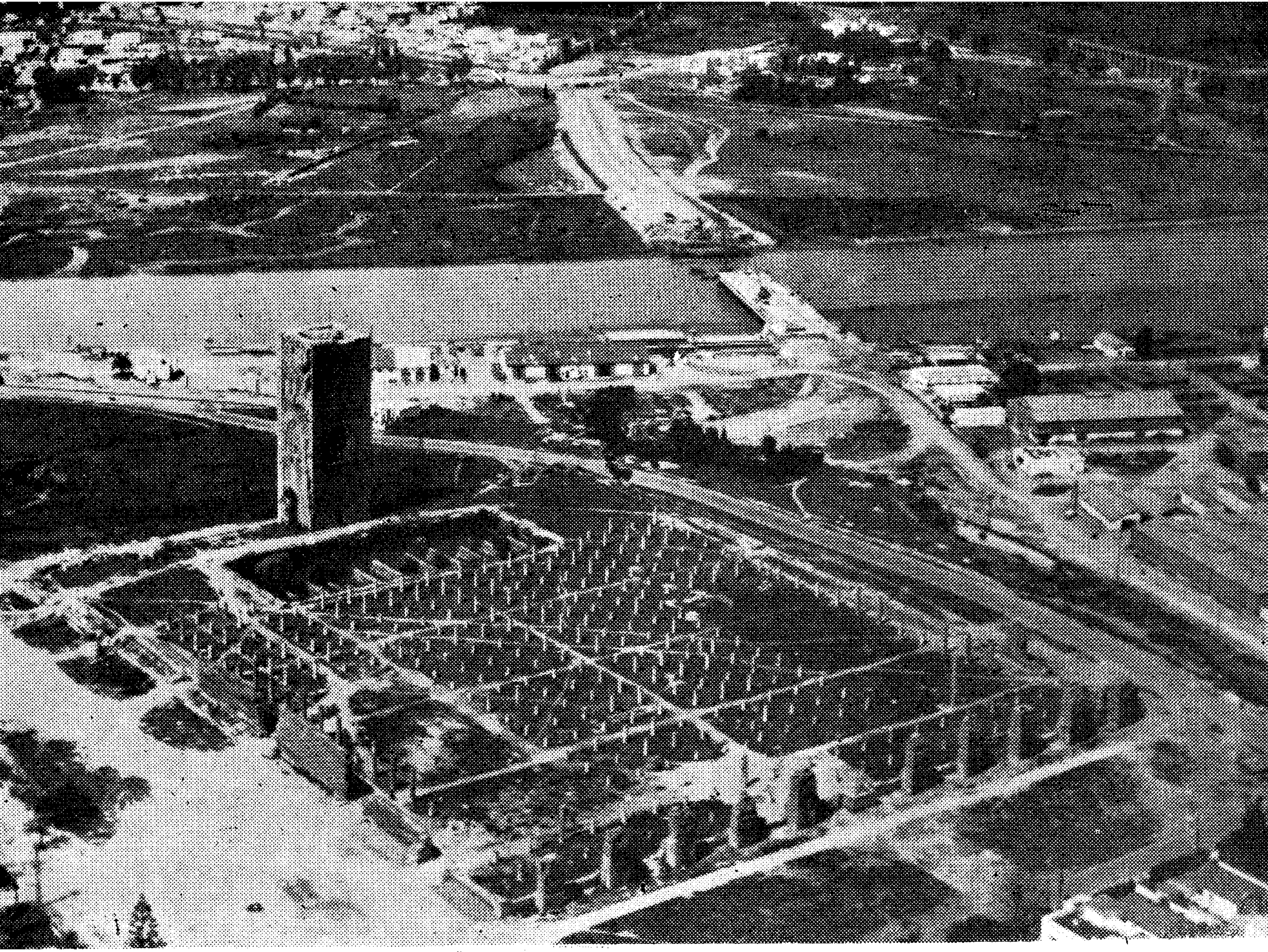
قنطرة قديمة فى وادى الجديدة بين فاس ومكناس



قنطرة مولاى الحسن بين الرباط وسلا



منارة الكتبية بمراكش (مكتب السياحة)



جامع حسان الموحدى بمنارته السامقة

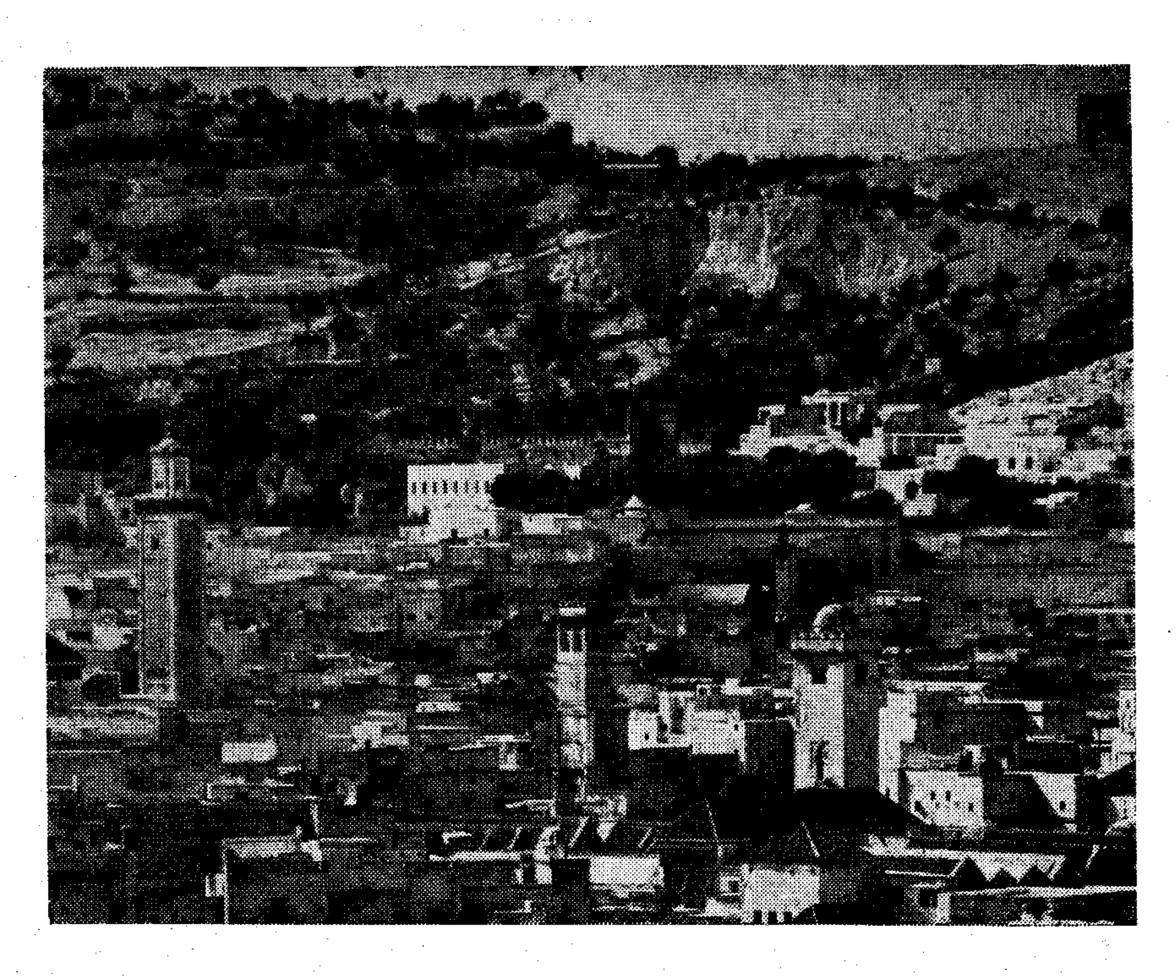
أسطوانة من اساطين جامع القرويين
ويظهر أنها من روائع الفن المرينى



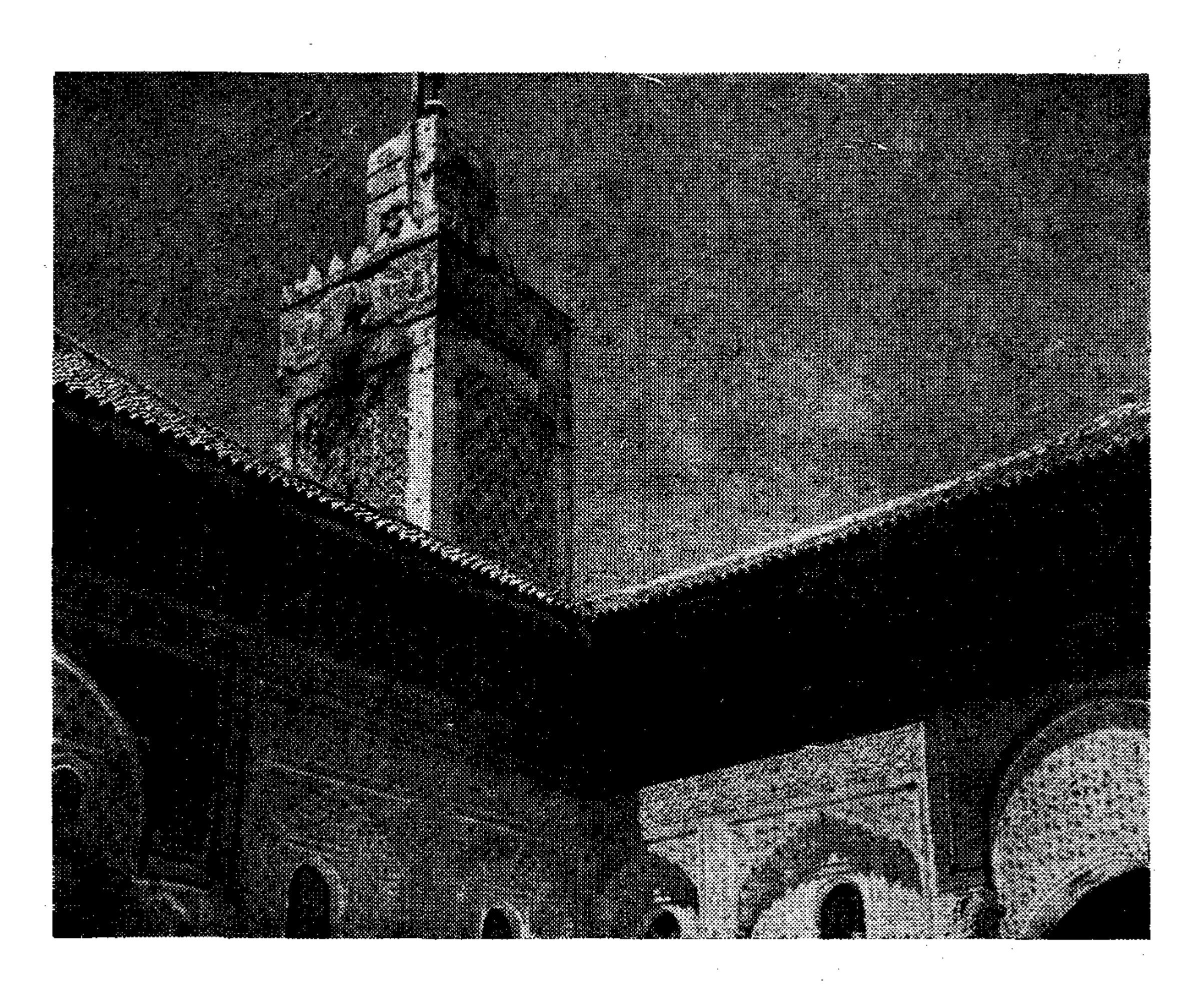
مدرسة البوعنانية بسلا
(رأس اسطوانة من الفسيفساء والبديع)



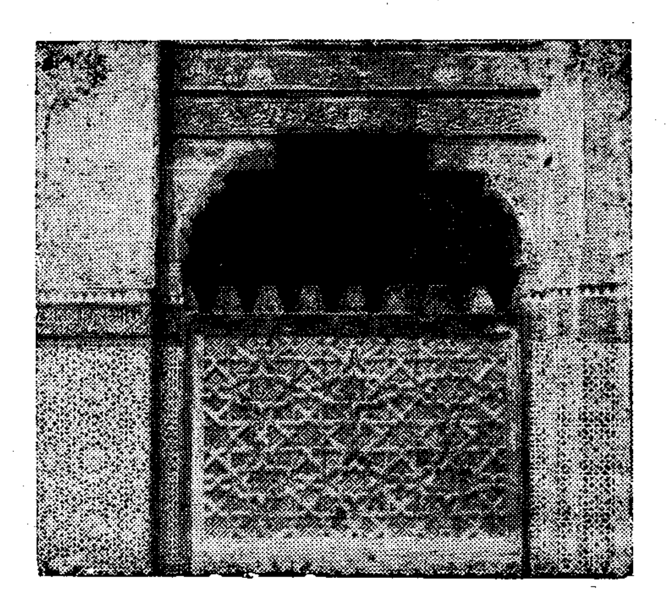
مدينة سلا



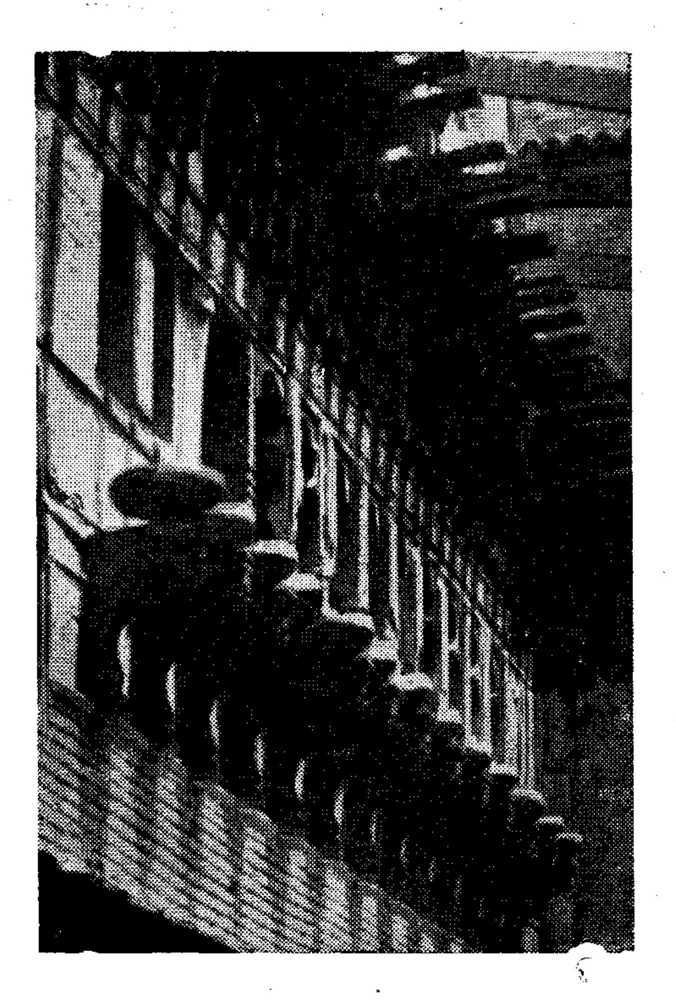
جانب من مدينة فاس وتشاهد صور عن جامع القرويين
وقبة المولى ادريس الازهر مؤسس المدينة



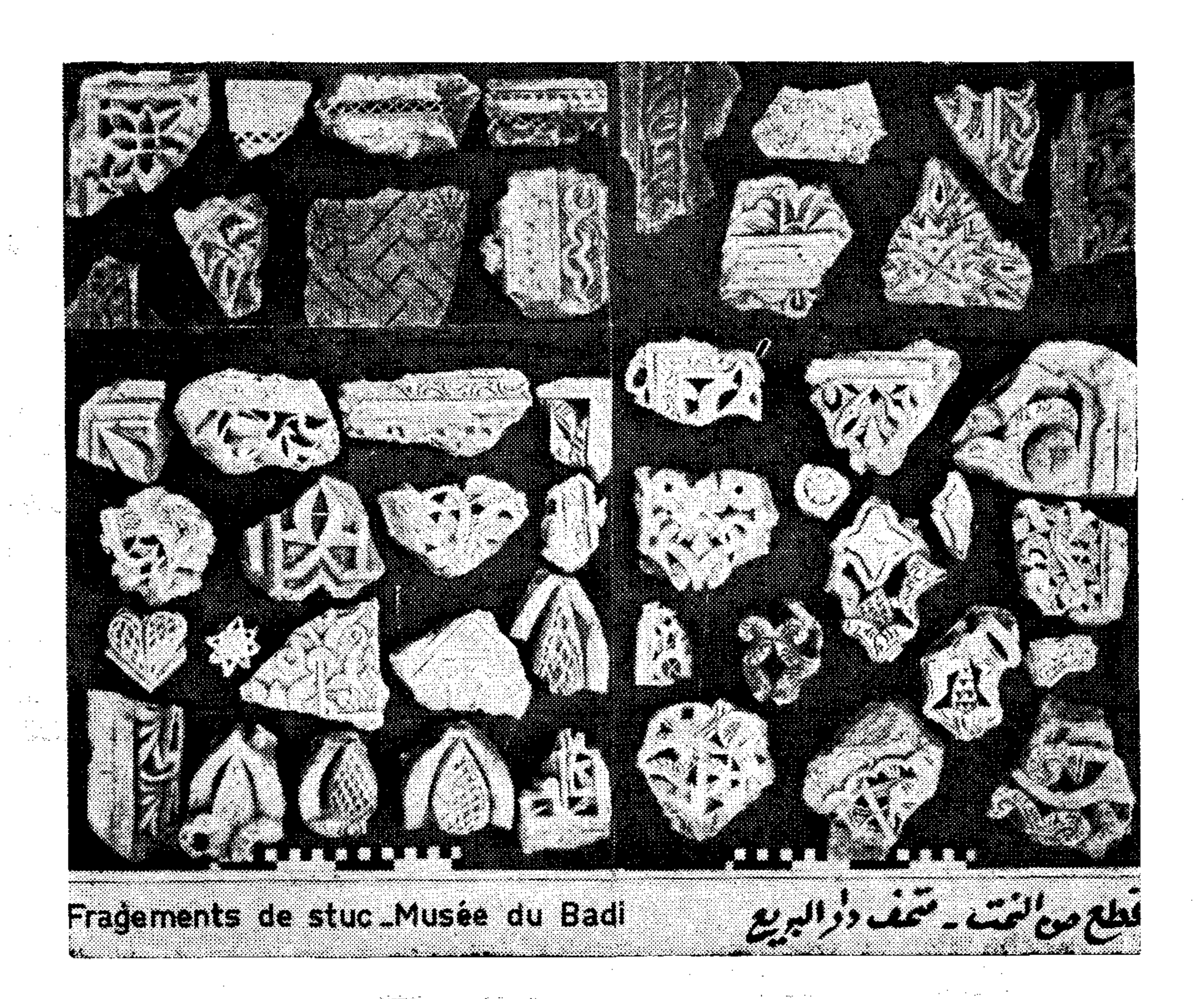
المدرســة البوعنانية بفــاس



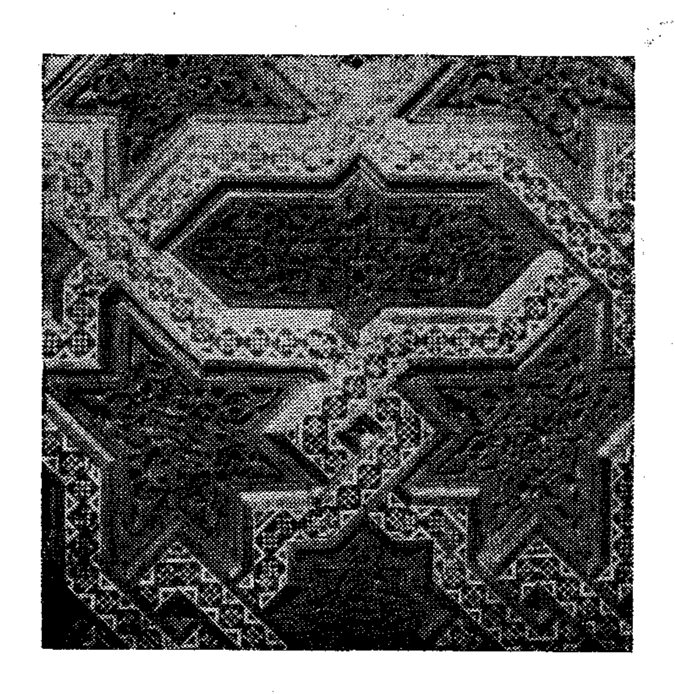
مدخل المدرسة البوعنانية بفـاس



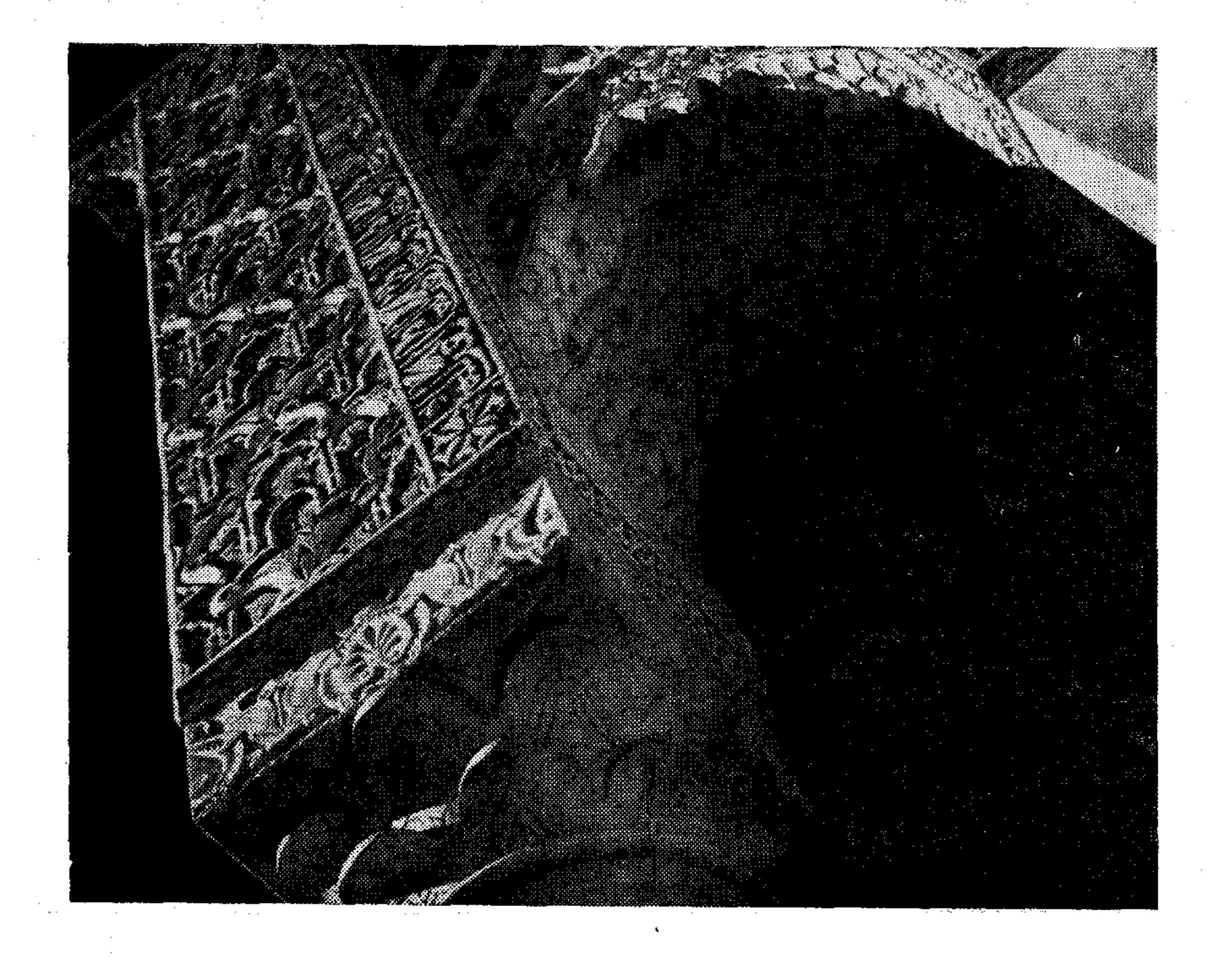
منجـانــة البوعنانيــة بفــاس
أمام المدرسة وهى تحتوى على
ثلاثة عشر طستا من النحـاس



روائع فنية من انقاض قصر البديع الذى بناه السعديون
بمراكش وهدمه مولاى اسماعيل



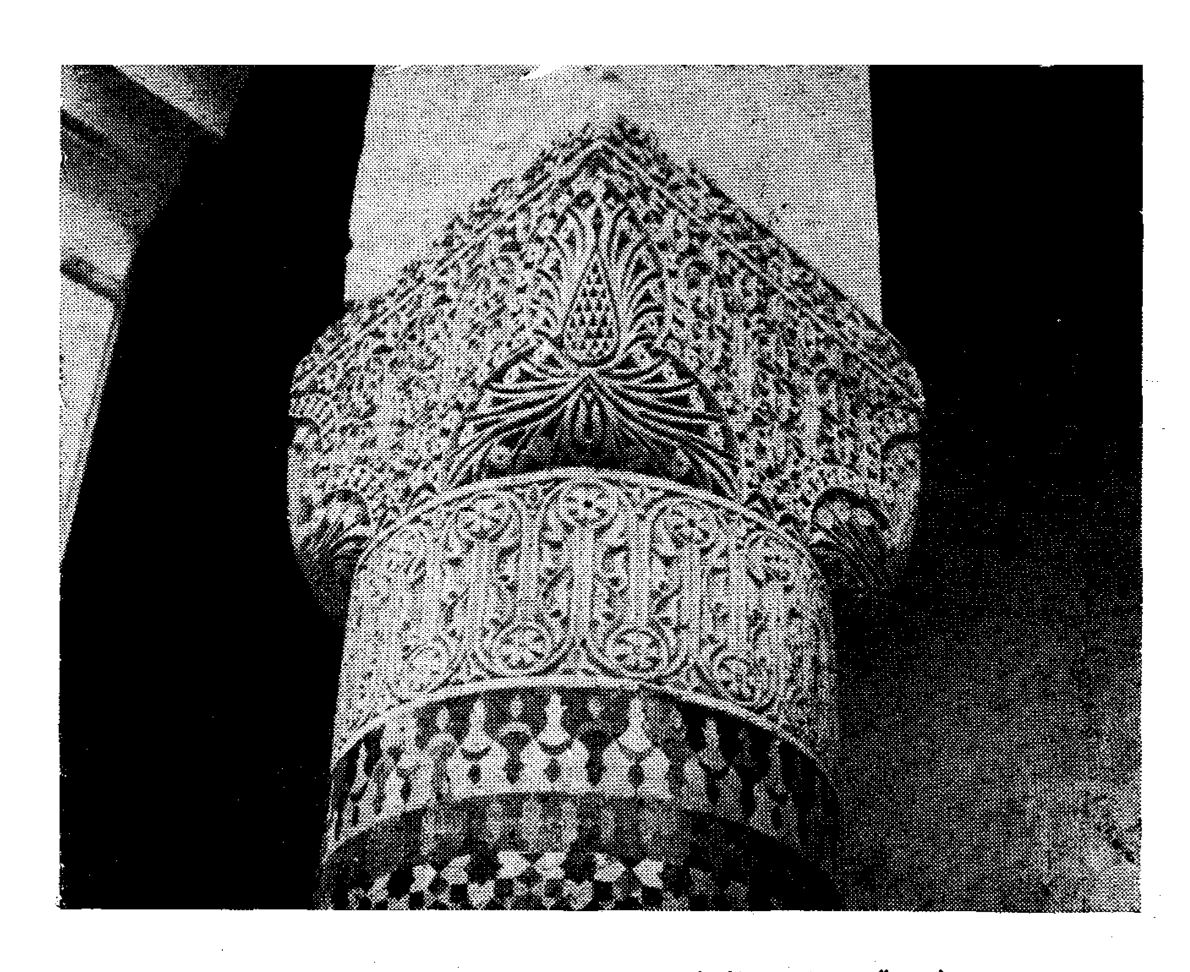
نقوش على الخشب مرصعة بالعاج
فى أحد منابر الجوامع المغربية



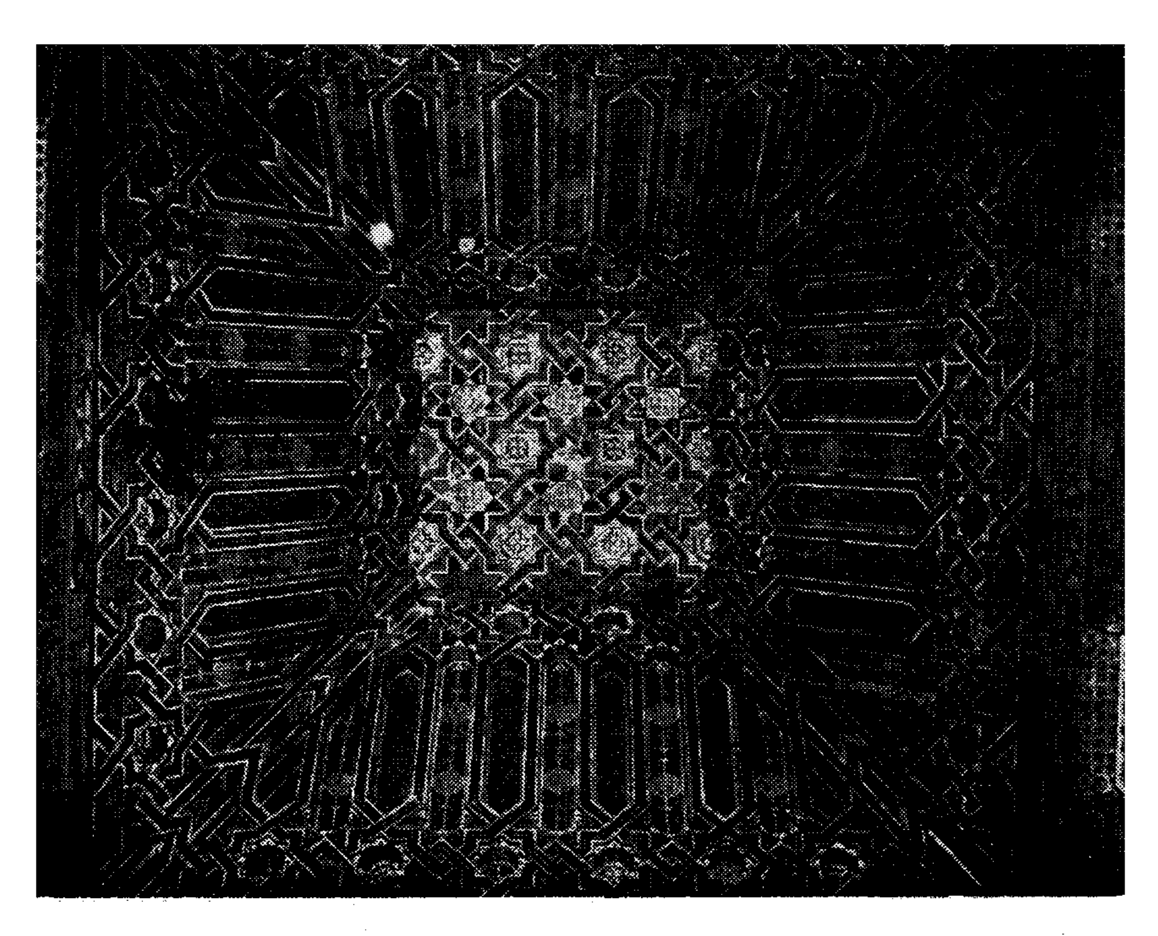
من روائع النقش الخشبى



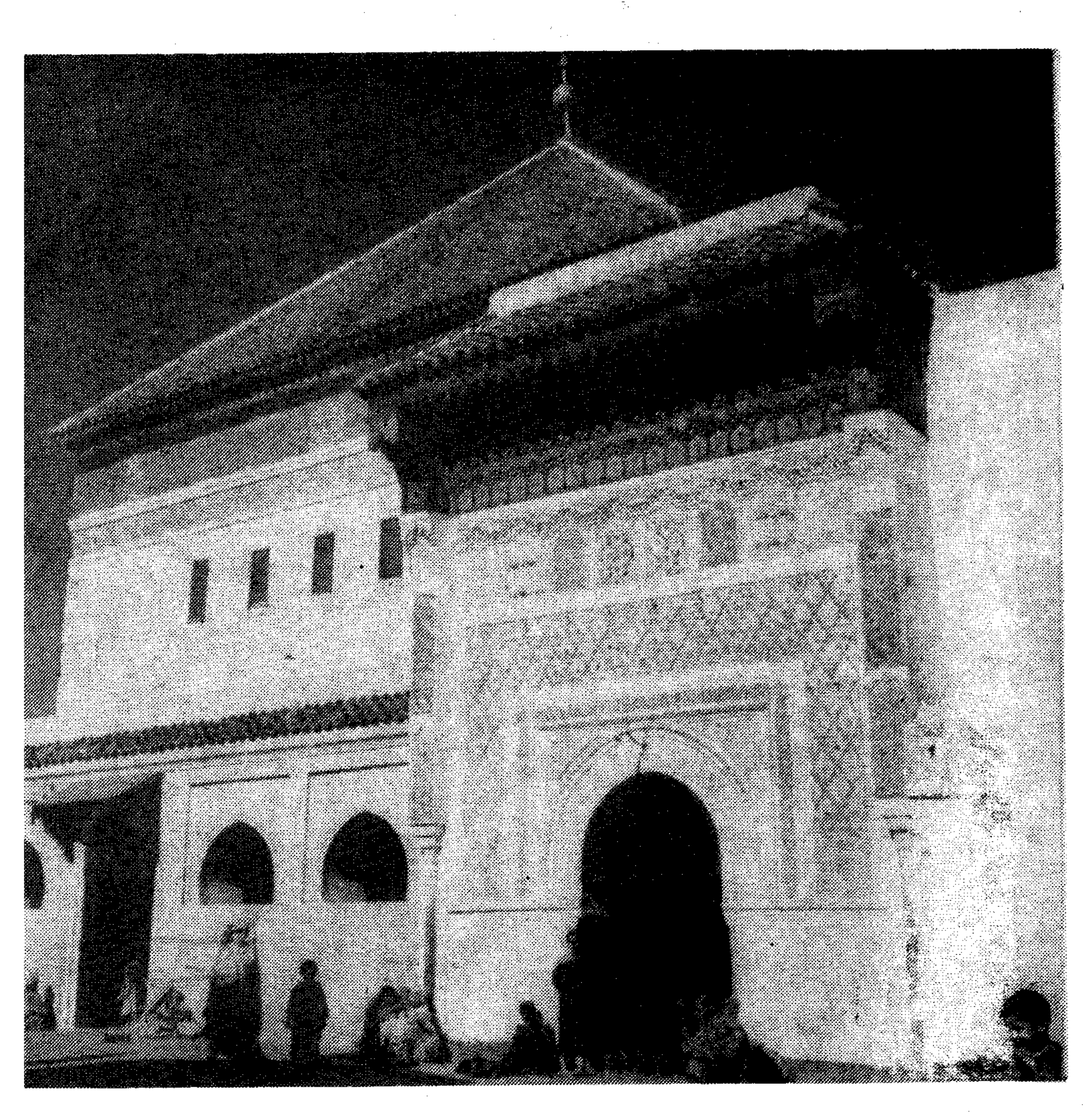
رأس أسطوانة منقوش بجامع الجنائز
بالقرويين بفاس وهو يشبه الرؤوس
المرمرية بمدينة الزهراء بقرطبة



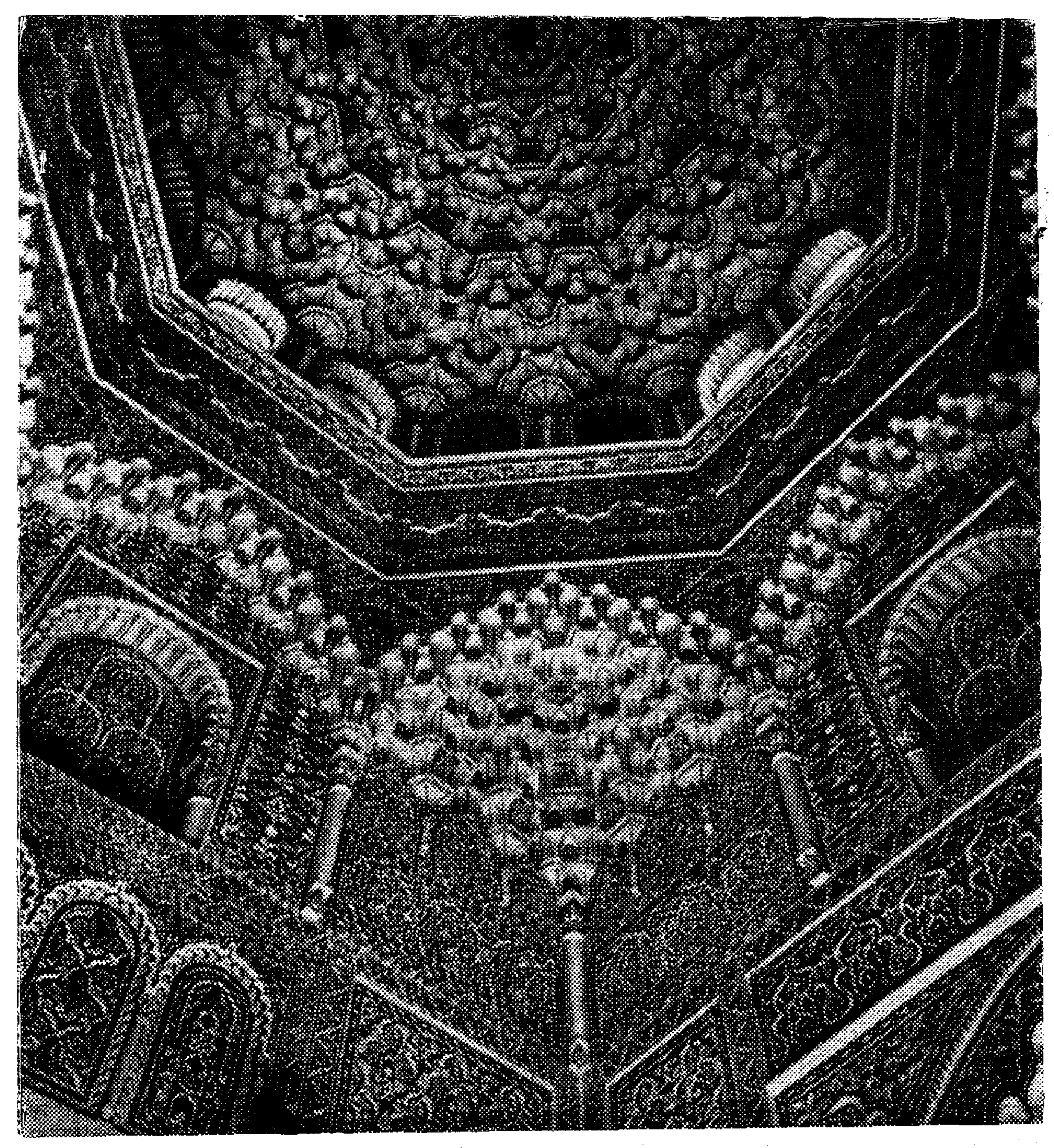
اسطوانة محلاة بالزليج ذات رأس جبسى منقوش فـــي
احدى الدور القديمة بفاس



تارودانت : أحد سقوف الجامع السعدي



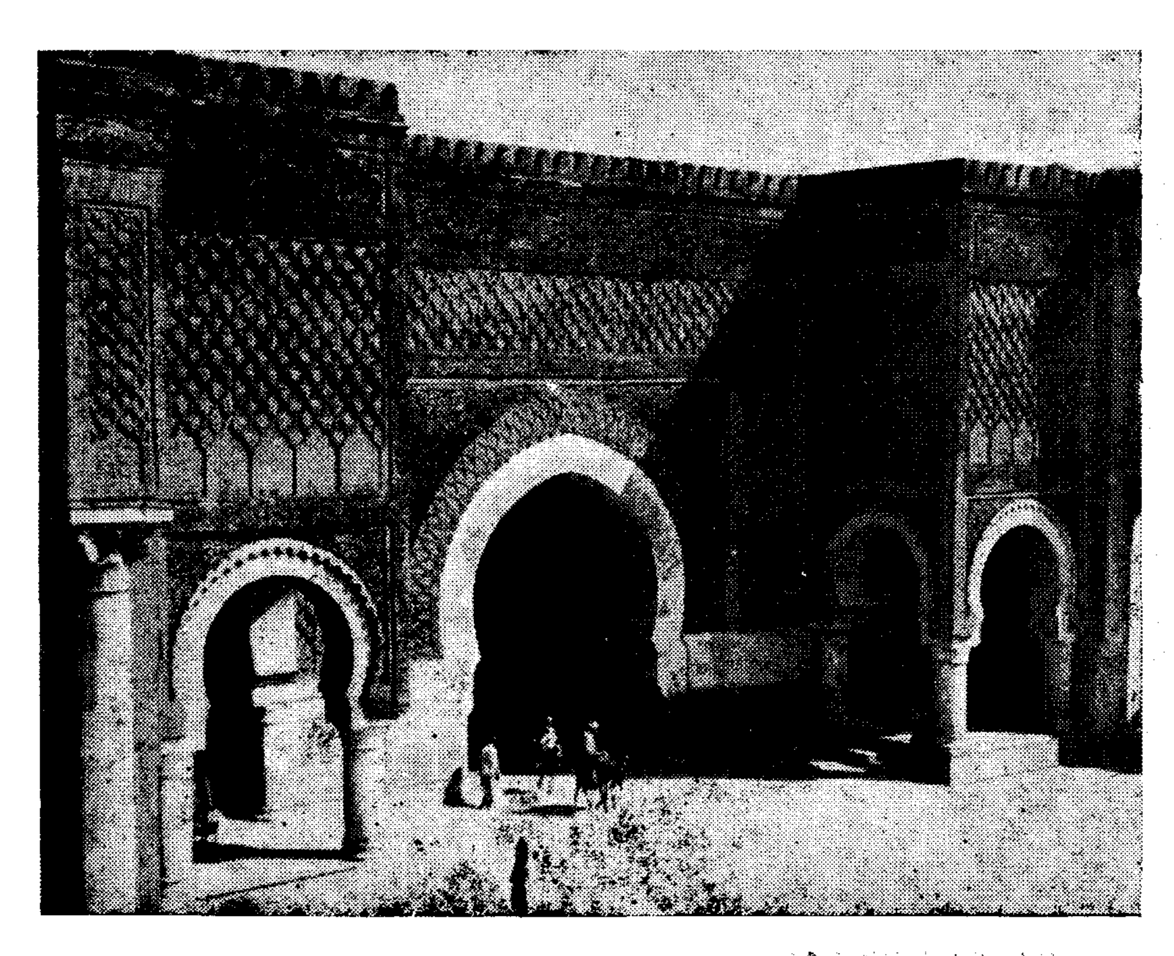
زاوية سيدى بلعباس بمراكش وهو صاحب فكرة الاحسان والصدقة
التى صدت ملوك المغرب الى تركيز الاوقاف بالمغرب



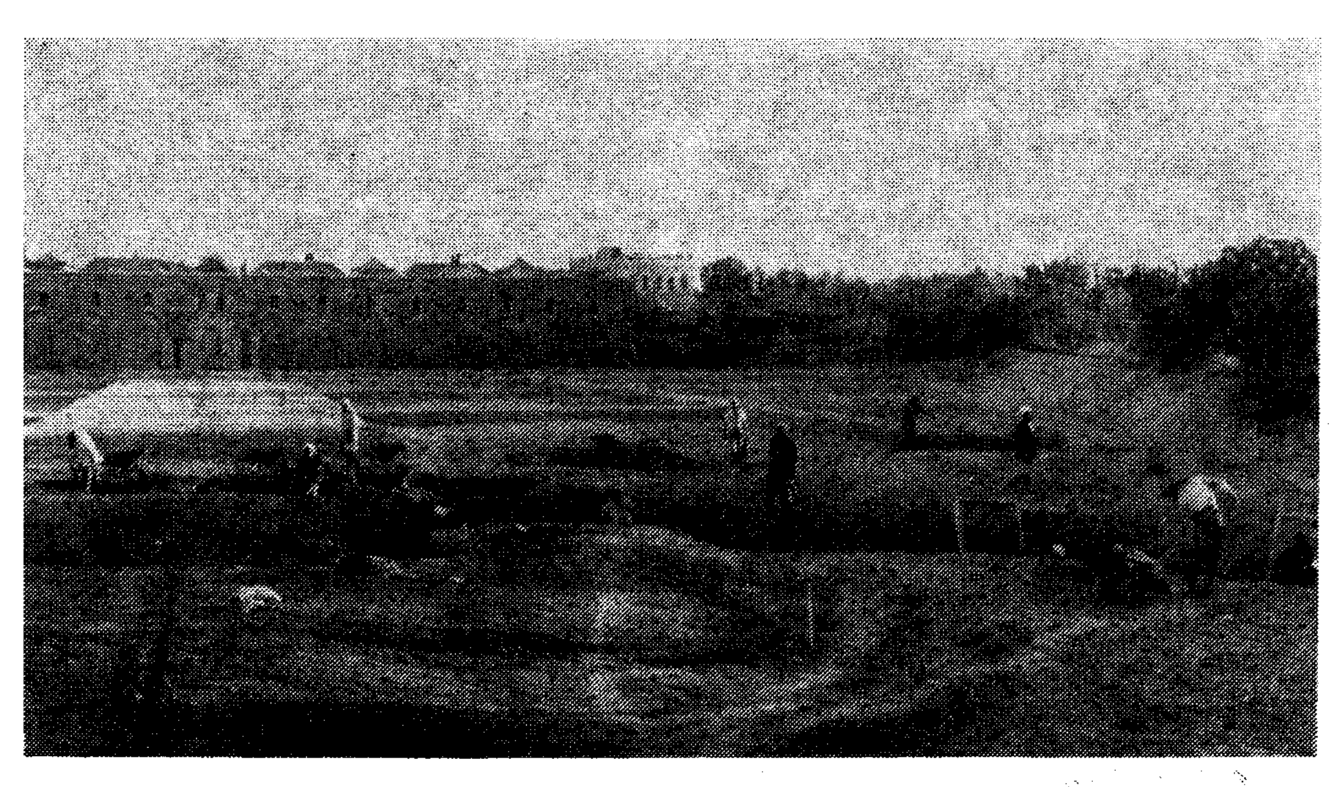
السقوف فى زخارفها الخشبية والجبسية الرائعة وهى
من أبرز ما امتاز به الفن المغربى الاندلسى



المقربصات والنقوش الخشبية



واحـة اطلسيـة



حفريات فى مكان الكتيبة الأولى

الملـوك العلـويون



مولاى رشيد



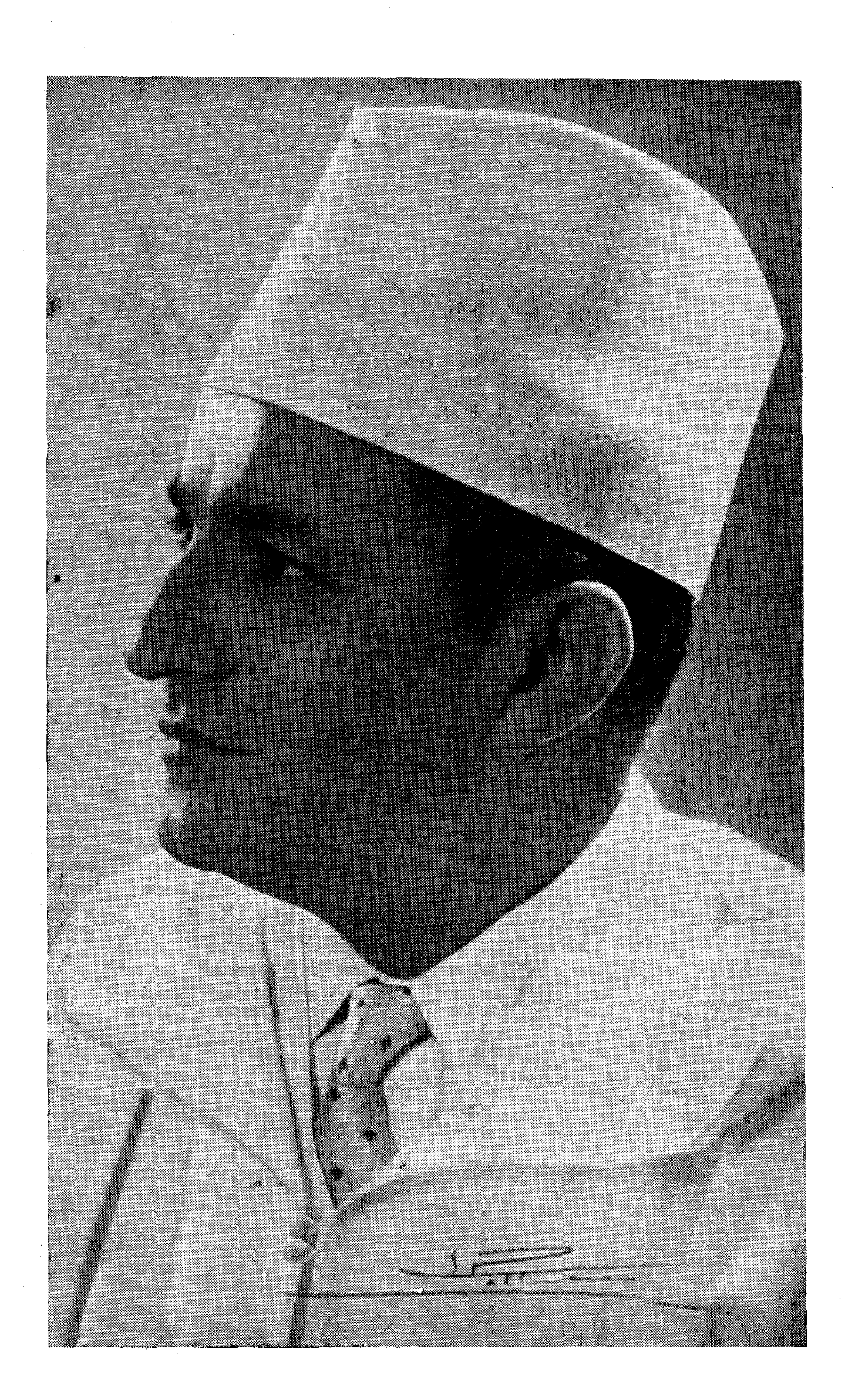
مولاى اسماعيل

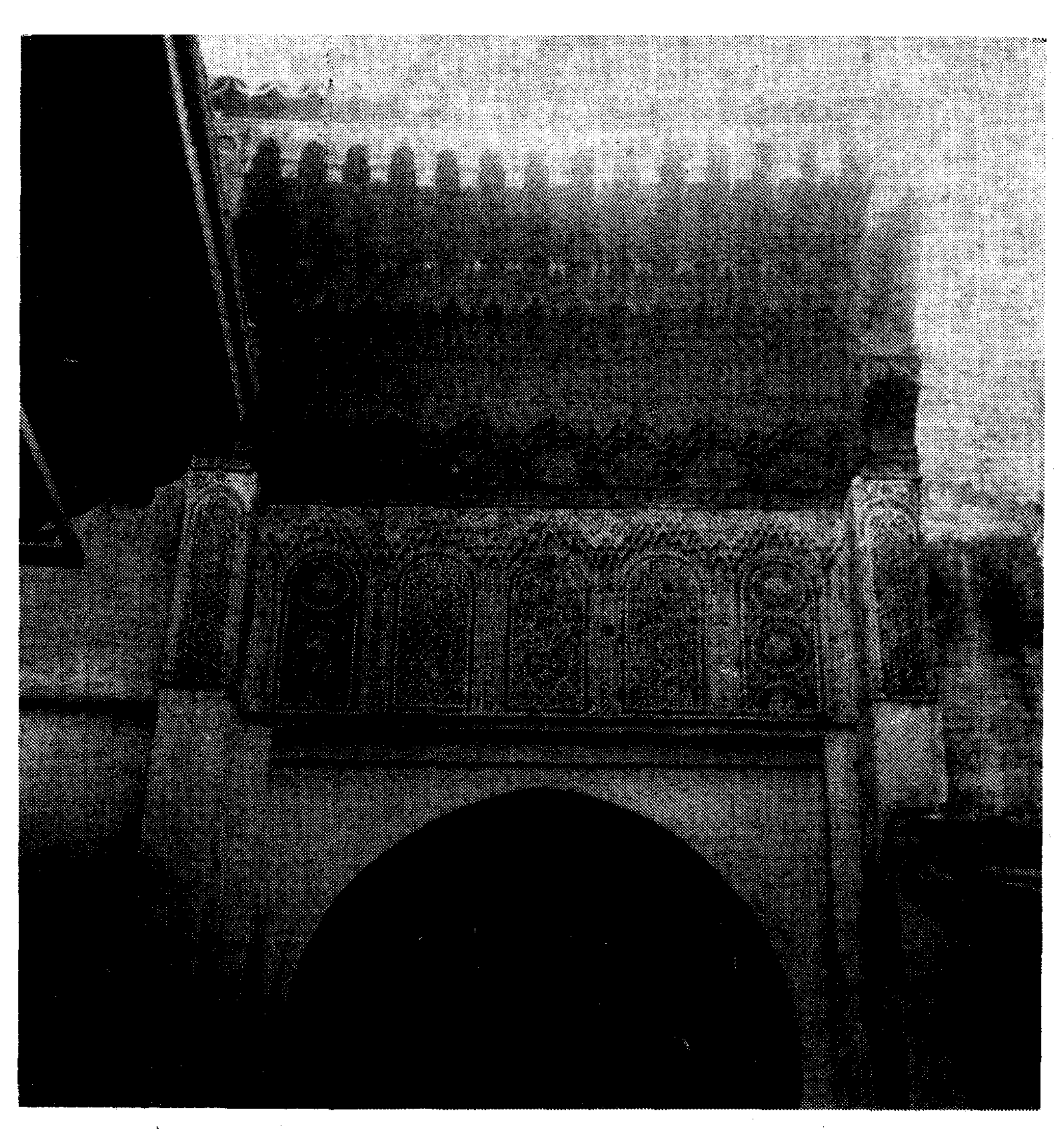


مولاى سليمان

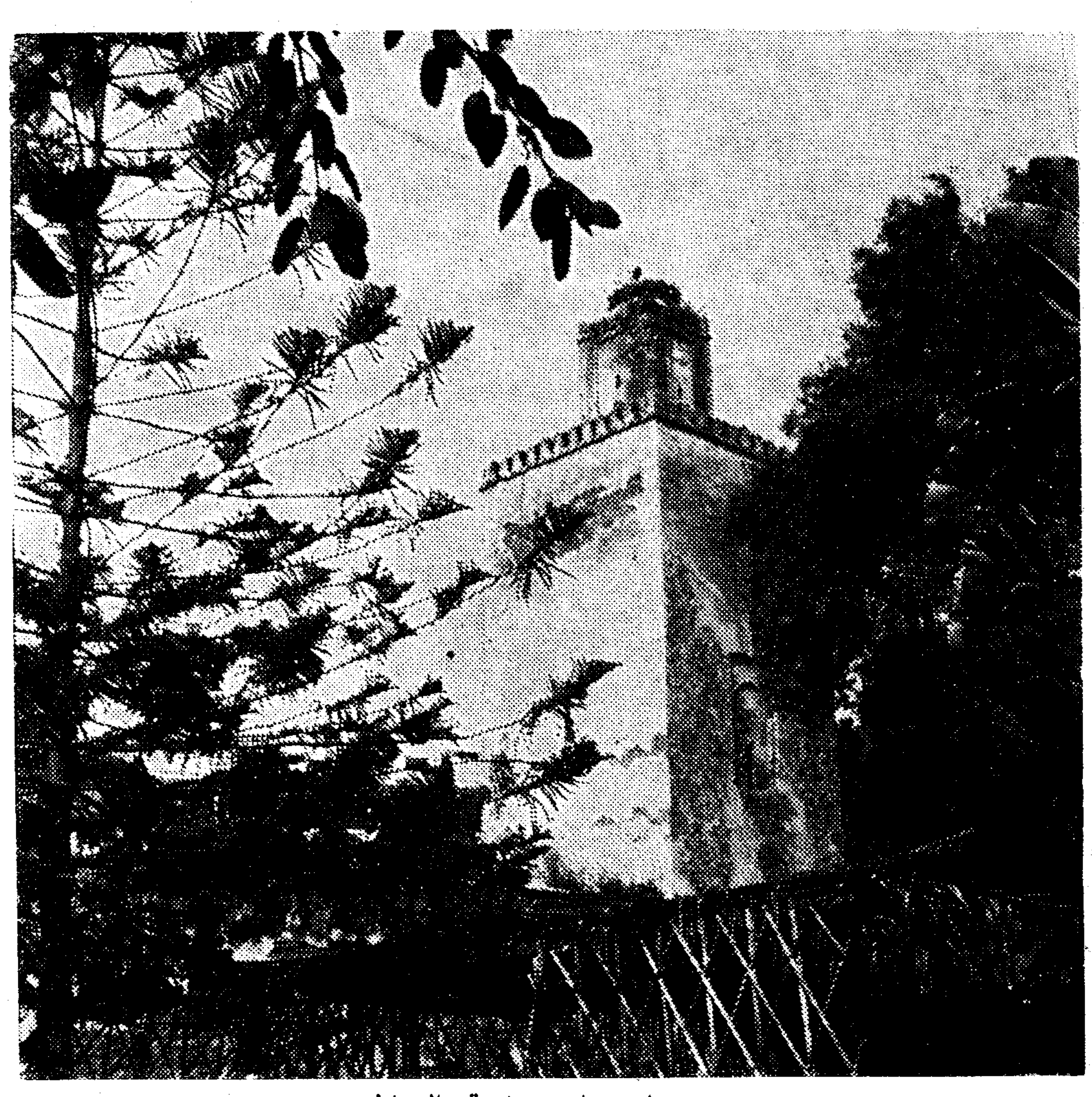


مولاى عبد العزيز

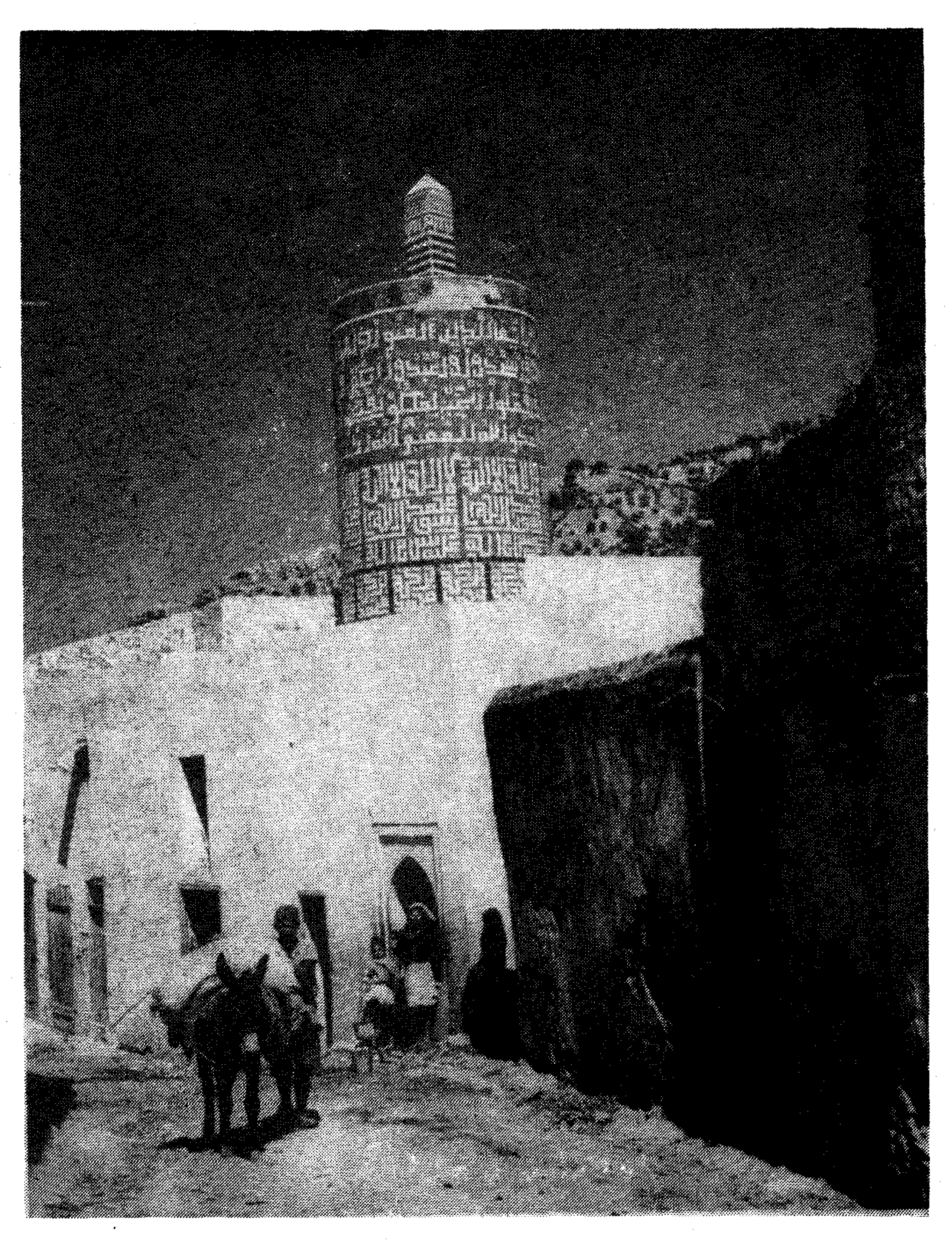




باب القرويين من جهة السبطريين



منارة جامع تملينة بالرباط



منارة مستديرة بالمغرب (مكتب السياحة)

فهرس

صحيفة

القسم الأول

القســم الثانــى

المظهر الفكري للحضارة

صحيفة

القسم الثالث

المظهر الروحي للحضارة